

تشنوا تشيبي أشياء تتداعي

ترجمة: سمير عزت نصار



علي مولا

منة كتاب وكتاب هدية نورة الشباب.. مشروع "نورة المعرفة للجميع"

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

روايات  عالمية

تشنوا تشيبي

أشياء تتداعى

ترجمة: سمير عزت نصار





الأهلية للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية ، عمان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمان / الأردن
e - mail : alahlia@nets.jo

أشياء تدعى

ترجمة: سمير عزت نصار

الطبعة العربية الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف : زهر أبو شايب / الأردن

© **س. س. س.**

الصفّ الضوئي :

التنضيد والإخراج : دار النشر للنشر والتوزيع

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه ، بأي شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطّي مسبق من الناشر .

أنشيبسي (١٩٣٠ =)

ولسد نشينوا أنشيبسي في ١٦/ نوفمبر/ ١٩٣٠ في أوجيدي ، على بعد بضعة أميال إلى شمال شرق أونيتشا . كان أبوه وكيل كنيسة . وهذا يعني أنه كان يتعلم في مدرسة الإرسالية التبشيرية أيام الأسبوع كما كان مسؤولاً عن كنيسة القرية في نفس الوقت . وقد داوم أطفال أنشيبسي في مدرسة الإرسالية هذه ، ومنها مُنح تشينوا حق الدخول إلى كلية الحكومة في أوماهيا في ١٩٤٤ .

في ١٩٤٨ ، دخل تشينوا كلية الجامعة في إبدان ، حيث درس الإنجليزية والتاريخ والدين ، وحصل على درجة B.A في ١٩٥٣ . بعد التخرج ، انضم إلى خدمة الإذاعة النيجيرية كمنتج أحاديث (١٩٥٧) ليصبح رئيس قسم الأحاديث (١٩٥٧) ومراقب المنطقة الشرقية (١٩٥٩) . وفي ١٩٦١ ، عُيّن مديراً للخدمات الخارجية كمسؤول عن صوت نيجيريا وانتقل إلى لاجوس .

وتشينوا أنشيبسي رجل كثير الترحال . ففي ١٩٦٠ ، تلقى منحة روكفلر التي مكنته من السفر كثيراً في شرق ووسط أفريقيا ، وفي ١٩٦٣ ، مُنح جائزة يونسكو ثانية للسفر ودراسة النزعات الأدبية في الولايات المتحدة والبرازيل وبريطانيا . كما أنه قام بالعديد من الرحلات على حسابه الخاص داخل وخارج نيجيريا .

تزوج تشينوا بكريستين - ولهما الآن ثلاثة أطفال . وهو يعيد أسرته . وينادي بتعزيز الروابط والمسؤوليات المتعلقة بالعائلة الموسعة التي لديها في نيجيريا . وله أخت أكبر منه يقول عنها : «روت لي قصصاً كثيرة حينما كنت صغيراً حتى يمكنني القول إنها هي التي عرّفتني على متعة وفن رواية القصص» .

بين ١٩٥٨ ، ١٩٦٤ ، كتب أنشيبسي أربع روايات . نُشرت رواية : أشياء تتداعى في ١٩٥٨ . وفي ١٩٦٠ نُشرت رواية : لم يعد مطمئناً ، التي خطط لها بالأصل وكتبها كجزء من أشياء تتداعى . ونشرت رواية : سهم الله في ١٩٦٤ وهي نفس السنة التي ظهرت فيها : تشيكسي والنهر (التي يدعوها «رواية للفتيان») وقدمها إلى مطبعة جامعة أوكسفورد للنشر .

تُرجمت الروايتان الأوليان - أشياء تتداعى ، لم يعد مطمئناً - إلى الألمانية والإيطالية والإسبانية والسلوفينية والروسية والعبرية والفرنسية والتشيكية والمجرية .

إن ما يلفت الانتباه في الأدب النيجيري الآن هو أن أغلب الروائيين أشخاص يعملون طيلة النهار في مكاتب . وهذه السمة تلفت النظر بطريقتين واضحتين : أولاً ، يستطيع هؤلاء الروائيين ولديهم الطاقة (العقلية والجسمانية) للكتابة إضافة إلى العمل العادي : ثانياً ، العمل في مكتب في لاجوس أو إبدان أو إنوجو ، أو العيش في عزلة عن المجتمع ، لم يعزل أنشيبسي ولا أوكو ولا إكوينسي ولا نزيكوو عن مضمون أدب مجتمعاتهم سريعة التغيير .

الجزء الأول

فصل ١

أحرز أوكونكوو شهرةً واسعة في جميع أنحاء القرى التسع وحتى فيما وراءها . وقد قامت شهرته على إنجازات شخصية راسخة . فحين كان شاباً في الثامنة عشرة ، حاز لقريته على شرف عظيم بتغلبه على الهرّ أمالينز . كان أمالينز المصارع العظيم الذي لم يقهره أحد ، من أومووفيا إلى مبالو طيلة سبع سنوات . كان يدعى الهرّ لأن ظهره ما كان يلمس الأرض أبداً . وهو الرجل الذي طرحه أوكونكوو أرضاً في قتال وافق الرجل العجوز على أنه أشرس قتال منذ أن تصارع مؤسس بلدتهم مع روح البراري مدة سبعة أيام وسبع ليال .

قرعت الطبول وعزفت المزامير وجلس المشاهدون أنفاسهم . كان أمالينز فناناً مأكراً ، لكن أوكونكوو كان زليلاً كيمكة في الماء . برز كل عصب وكل عضل في سواعدهما ، وفي ظهريهما وأفخاذهما ، وكاد أن يُسمع انشدادهما إلى حد نقطة الانكسار . في النهاية ، طرح أوكونكوو الهرّ أرضاً .

حدث ذلك قبل سنين عديدة ، عشرين عاماً أو أكثر ، وأثناء هذا

الوقت ، انتشرت شهرة أوكونكوو كحريق غابة أثناء هبوب رياح
الحرور/ هارماتان . كان طويلاً وضحماً ، أضفى عليه حاجباه الكثان
وأنفه العريض مظهراً صارماً جداً . وهو يتنفس تنفساً ثقيلاً ، وقد قيل
أن زوجاته وأطفاله كانوا يسمعون صوت تنفسه أثناء نومه وهم في
أكواخهم البعيدة عن كوخه . حين يمشي ، لا يكاد عقباه أن يمسّا
سطح الأرض ، فيبدو أنه يمشي على نوابض ، كأنه يوشك أن ينقض
على شخص ما . وفعلاً ، كثيراً جداً ما قفز منقضاً على الآخرين .
وهو يشكو من تلثم طفيف في النطق ، وحين يغضب ولا يستطيع أن
ينطق كلماته بسرعة كافية ، يستعمل قبضتيه . وهو لا يصبر على
الرجال الفاشلين . ولم يصبر على أبيه .

مات أونوكا ، فهذا هو اسم أبيه ، منذ عشر سنوات . كان أثناء
حياته كسولاً ومبذراً وعاجزاً تماماً عن التفكير في الغد . فإذا توفر مال
بين يديه ، ونادراً ما يحدث هذا ، كان يشتري به فوراً قرعات نبيذ
نخيل ، ويدعو جيرانه فيلهون . وقد قال دائماً إنه كلما رأى فم رجل
ميت ، رأى حماقة ألا يأكل الإنسان ما لديه أثناء حياته . كان أونوكا
مديوناً بالطبع ، فقد استدان من كل جار له مبلغاً من المال تراوح بين
بضع ودعات حتى مبالغ كبيرة حقاً .

كان طويلاً لكنه نحيل جداً ومحني الظهر قليلاً . واكتسى بملامح
هزيلة وحزينة إلا عندما يشرب أو يعزف على نايه . كان ماهراً جداً في
العزف على الناي ، فكانت أسعد لحظات حياته هي الأيام الواقعة بعد
قمرين أو ثلاثة أقمار من الحصاد حينما يُحضر الموسيقيون آلانهم ،

فيتحلقون حول موقد النار . فيعزف أونوكا معهم ، ووجهه يشع غبطةً
وطمأنينة . وقد تطلب قرية أحياناً من فرقة أونوكا الموسيقية وراقصيتها
الإيجووجوو أن يأتوا إليها ويمكثوا فيها ويعلموهم ألحانهم . فيذهبون
إلى مثل هؤلاء المضيفين لفترة تطول إلى ثلاثة أو أربعة أسواق ،
ويعزفون الموسيقى ويحتفلون . وقد أحب أونوكا الارتحال الجيد
والرفقة الجيدة ، وأحب الموسم الذي تنحبس فيه الأمطار وتشرق فيه
الشمس كل صباح بجمال باهر . ولا يكون الطقس حاراً جداً أيضاً ،
لأن رياح الحرور الباردة الجافة تهب هابطة من الشمال . وقد تكون
رياح الحرور في بعض السنين قاسية جداً ويتعلق سديم كثيف في
الجو . فيجلس العجائز والأطفال حول نيران الحطب المشتعلة ،
ويدفئون أجسادهم . وقد أحب أونوكا كل هذا ، وأحب الحداث
الأولى العائدة مع الموسم الجاف ، والأطفال الذين يغنون أغاني
الترحيب بها . فيتذكر طفولته ، وكيف كان غالباً ما يهيم على وجهه
باحثاً عن حدة تبهر على مهل في صفحة السماء الزرقاء . وحالما
يعثر على واحدة ، يغني لها بكل كيانه ، مرحباً بعودتها من رحلتها
الطويلة الطويلة ، ويسألها إن كانت جلبت إلى موطنها أية قطع
قماش .

كان ذلك منذ سنين خلت ، عندما كان شاباً . أما أونوكا الرجل
الناضج ، فكان فاشلاً . كان فقيراً ولا يكاد يوفر لزوجته وأطفاله ما
يأكلونه . فسخر الناس منه لأنه كان صعلوكاً ، وأقسموا ألا يقرضوه
مزيداً من المال أبداً لأنه لا يسدد دينه . لكن أونوكا كان ينتمي إلى

ذلك النوع من الرجال الذين ينجحون دائماً في اقتراس المزيد ،
وتكوين الديون .

ذات مرة ، أتى جاره يدعى أوكوي لزيارته . كان أونوكا متكئاً
على سرير من الطين في كوخه ويعزف على الناي . وثب واقفاً على
الفور وصافح أوكوي ، الذي فرش جلد ماعز كان يحمله تحت
إبطه ، وجلس . ذهب أونوكا إلى غرفة داخلية وعاد بسرعة حاملاً
صحناً خشبياً صغيراً يحتوي على جوزة كولا ، وقليل من فلفل
التمساح وقطعة طباشير بيضاء .

صرّح حين جلس : «لدي كولا» ، وناول القرص لضييفه .

أجاب أوكوي وهو يعيد القرص : «شكراً . مَنْ يحضر كولا يحضر
الحياة . لكنني أعتقد أن عليك أن تكسرها أنت» .
- «كلا ، إنها لك على ما أظن» .

تجادلا على هذا النحو بضع لحظات قبل أن يقبل أونوكا شرف
كسر الكولا . في هذه الأثناء ، تناول أوكوي قطعة طباشير ، ورسم
بضعة خطوط على الأرض ، ثم لوّن أصبع قدمه الكبير . وبينما كان
أونوكا يكسر الكولا ، صلّى داعياً أجدادهما أن يمدوهما بطول الحياة
والعافية ، ويحموهما من أعدائهما . حينما أكلا ، تحدثا حول أمور
كثيرة : حول الأمطار الغزيرة التي تغرق بطاطا الـيام ، وحول
احتفالات الأجداد القادمة وعن الحرب وشيكة الوقوع مع قرية
مباينو . لا يحسن أونوكا بالسعادة أبداً حين يصل الكلام إلى الحرب .

فهو في الحقيقة جبان لا يطيق رؤية الدم . لذلك غير الموضوع ،
وتحدث عن الموسيقى ، فأشرق وجهه . فهو يسمع بأذن عقله
إيقاعات الإيكوي والأدودو والأوجيني المتشابكة والمثيرة للدم
ويسمع صوت نايه يتلوى داخلاً في هذه الإيقاعات وخارجاً منها ،
مزيناً إياها بنغمة ملونة وحزينة . فكان التأثير الإجمالي لها مرحاً
ورشيقاً ، لكن الإنسان لو التقط صوت الناي في علوه وخفوته وجزأه
إلى نتف صغيرة ، لرأى فيه الأسى والحزن .

كان أوكوي موسيقياً أيضاً . فهو يعزف على الأوجيني . لكنه لم
يكن فاشلاً مثل أونوكا . إنه يملك مخزناً كبيراً مليئاً باليام وثلاث
زوجات . وسيحصل الآن على لقب إيديميلي ، ثالث أعلى الألقاب
في البلاد . والاحتفال بهذا اللقب غال جداً ، لذلك راح يجمع كل
موارده . وكان هذا في الحقيقة هو سبب زيارته لاونوكا . فسلك حلقه
وبداً : «شكراً على الكولا . لعلك سمعت باللقب الذي أنوي
الحصول عليه قريباً» .

بعد أن تحدث أوكوي حتى الآن بلغة بسيطة ، راح يوشيّ جملة
الست التالية بلغة الأمثال . ففن الحديث يتبوأ لدى الإيبو مكانة رفيعة
جداً ، والأمثال هي زيت النخيل الذي تؤكل الكلمات معه . كان
أوكوي محدثاً ذلق اللسان فتحدث طويلاً ، لافاً حول الموضوع ثم
داخلاً فيه في النهاية . بايجاز ، كان يطلب من أونوكا أن يعيد إليه
مائتي ودعة اقترضها منه قبل أكثر من عامين . وما أن أدرك أونوكا ما
يقصده صديقه ، حتى انفجر ضاحكاً . قهقهه عالياً وطويلاً ورنّ صوته

صافياً كالأوجيني ، وترقرت الدموع في عينيه . ذُهل زائره ، وجلس صامتاً . في النهاية ، تمكّن أونوكا من الرد وسط تفجرات متجددة من المرح .

قال : «أنظر إلى ذلك الجدار» ، وأشار إلى جدار كوخه القصيّ المفروك بالطين الأحمر حتى أصبح لامعاً . «أنظر إلى خطوط الطباشير تلك» ، رأى أوكوي مجموعات خطوط عمودية قصيرة مرسومة بالطباشير . كانت هناك خمس مجموعات ، شملت أصغرها عشرة خطوط . ولأن أونوكا يتحلى بحسّ دراميّ ، أفسح المجال لفترة صمت قصيرة ، تناول أثناءها قبضة سعوط وعطس بصوت عال ، ثم استأنف : «كل مجموعة هناك تمثل ديناً لشخص ، وكل خط عبارة عن مائة ودّعة . كما ترى ، أنا مدين لذلك الشخص بألف ودّعة . لكنه لم يأت ليوقظني صباحاً من أجلها . سأدفع لك ، لكن ليس اليوم . فحكماؤنا يقولون إن الشمس تسطع على الواقفين قبل أن تسطع على الراكعين تحتهم . سأدفع ديوني الكبيرة أولاً» . تناول قبضة سعوط أخرى ، كما لو أنه يدفع بذلك ديونه الكبيرة أولاً . فلّف أوكوي جلد ماعزه وغادر .

حين مات أونوكا ، لم يكن قد نال أي لقب على الإطلاق ، وكان غارقاً في الدين حتى أذنيه . فلا عجب إذن في أن يشعر ابنه أوكونكوو بالخجل منه ؟ إلا أن الحكم على أي إنسان عند هؤلاء القوم كان لحسن الحظ مبنياً على قيمته الشخصية وليس على قيمة أبيه . وكان واضحاً أن أوكونكوو خلّق للقيام بأعمال عظيمة . كان لا يزال شاباً ،

لكنه اكتسب صيتاً ذائعاً بصفته أعظم مصارع في القرى التسع . وكان مزارعاً غنياً ويملك مخزنين مليئين باليام ، وقد تزوج لتوه زوجته الثالثة . وتوج كل هذا بحصوله على لقبين كما أظهر شجاعة لا تصدق في حربين بين القبائل . هكذا ، وعلى الرغم من أنه كان ما يزال شاباً ، كان واحداً من أعظم رجالات عصره . كان السن موضع احترام وسط قومه ، لكن الإنجاز كان موضع تبجيل . وكما قال الشيوخ ، إذا غسل الطفل يديه ، فهو يستطيع الأكل مع الملوك . ومن الواضح أن أوكونكوو غسل يديه ، وبالتالي أكل مع الملوك والشيوخ . لهذا السبب ، وقع عليه الاختيار للاعتناء بالصبي المحكوم عليه بالموت والذي قدمته القبيلة المجاورة قرباناً لقرية أومووفيا تفادياً للحرب وسفك الدماء . وكان اسم الصبي سيىء الطالع إيكيمي فونا .

فصل ٢

أطفأ أوكونكوو قنديل زيت النخيل وتمدّد فوق سرير الخيزران حين سمع صوت أوجيني ، منادي القرية ، يخترق جو الليل الساكن . جوم ، جوم ، جوم ، دوى المعدن الأجوف . ثم أعلن المنادي رسالته ، وبعد انتهائه عاد وطرق على آتته مرة أخرى . كانت هذه هي الرسالة : يُطلب من كل رجل في أوكونكوو التجمع غداً صباحاً في ساحة السوق . تساءل أوكونكوو عما جرى ، فقد تيقن أن خطأ كان قد وقع . إذ استشف في صوت المنادي نبرة مأساة واضحة ، ظلّ يسمعها وهي تخفت تدريجياً مع ابتعاده .

كان الليل هادئاً جداً . وهو هادئ دائماً في الليالي المقمرة . العتمة تنطوي على رعب غامض لهؤلاء القوم ، حتى لأشجع رجل منهم . فقد حذّر الأطفال من الصفير في الليل خوفاً من الأرواح الشريرة . كما تصبح الحيوانات الخطيرة أشدّ شراً ووحشية في الظلام . فالأفعى لا تدعى باسمها في الليل ، لأنها ستسمع هذا . إنها تدعى خيطاً . في هذه الليلة بالذات ، والمسافات تبتلع تدريجياً صوت المنادي ، عاد الصمت يسود العالم ، صمت مرتجّ زاده ترديد كونيّ متعاقب ومتسارع لأصوات ملايين ملايين حشرات الغابة .

في ليلة مقمرة ، تختلف الحال . فأصوات الأطفال المرححة تسمع وهم يلعبون في الحقول المكشوفة . وقد يلهو الشباب أزواجاً في أماكن مستورة أكثر ، ويتذكر الرجال والنساء العجائز شبابهم . وكما يقول الإيبو : «عندما يسطع القمر يجوع الكسيح إلى المشي» .

لكن هذه الليلة كانت مظلمة وصامتة . وطلب منادي القرية ومعه آتة الموسيقى أوجيني في جميع قرى أومووفيا التسع ، داعياً كل الرجال للحضور إلى ساحة السوق في صباح الغد . حاول أوكونكوو ، وهو مستلق على سرير الخيزران ، أن يخمن طبيعة الحدث الطارئ - حرب مع عشيرة مجاورة؟ بدا أن ذلك هو السبب الأكثر احتمالاً ، ولم يكن هو يخشى الحرب . فقد كان رجل أفعال ، رجل حرب . وخلافاً لأبيه ، كان يستطيع أن يحتمل منظر الدم . وفي آخر حرب خاضتها أومووفيا ، كان أول من أحضر إلى قريته رأساً بشرياً . وكان ذلك رأسه الخامس ، مع أنه لم يشخ بعد . وفي المناسبات الجليلة ، كجنازة رجل مشهور من أهل قرية ، يشرب نبذ النخيل من رأسه البشري الأول .

في الصباح ، امتلأت ساحة السوق . لا بد أن هناك حوالي عشرة آلاف رجل ، وكلهم يتكلمون بأصوات خافتة . أخيراً ، نهض أوجبوفي إيزيوجو ووقف وسطهم وجأراً أربع مرات : «أومووفيا كوينو» ، وتوجه كل مرة نحو جهة مختلفة وبدا أنه يدفع الهواء بقبضة مكورة . فأجاب في كل مرة عشرة آلاف رجل «يا اا!» ثم خيم صمت مطبق . كان أوجبوفي إيزيوجو خطيباً مفوهاً ويختار دائماً للحدث في مثل هذه المناسبات . مرّ يده فوق رأسه أبيض الشعر ومسد لحيته البيضاء . ثم أصلح من وضع قطعة قماشه التي تمر تحت إبطه الأيمن وتنعقد فوق كتفه الأيسر .

جأ مرةً خامسة :«أوموفيا كوينو» ، فصاح الجمهور مجيباً . ثم فجأة ، كرّجل أصابه مس ، أطلق يده اليسرى مشيراً في اتجاه مباينو ، وقال من خلال أسنان لامعة مطبقة بإحكام :«أبناء الوحوش الكاسرة أولئك تجرؤوا على قتل بنت من أوموفيا» . نكس رأسه وصرف بأسنانه ، وسمح لهمهمة غضب مكبوت في أن تكتسح الحشد . حينما بدأ من جديد ، كان الغضب قد أمحى من وجهه وحوّمت محله ابتسامة معيّنة ، مرعبة وشريرة أكثر من الغضب . بصوت صاف خال من الانفعال ، أخبر أوموفيا كيف أن ابنتهم ذهبت إلى السوق في مباينو وقتلت . قال إيزيوجو بأن تلك المرأة هي زوجة أوجبوفيي أودو ، وأشار إلى رجل يجلس إلى جانبه منكس الرأس . فصاح الحشد بغضب وتعطش للدم .

تكلم كثيرون آخرون ، وتقرّر في النهاية سلوك سبيل العمل المألوف . أرسل فوراً إنذاراً نهائياً إلى مباينو يطالبها بالاختيار بين الحرب من جهة ، أو تقديم صبيّ وعذراء كتعويض من جهة أخرى .

أوموفيا مرهوبة الجانب من جميع جيرانها . إنها قوية في الحرب والسحر ، وكهنتها ورجال الطب فيها مرهوبو الجانب في جميع البلاد المحيطة بهم . فأنتك دواء سحريّ حربّي لديها قديم قدم القبيلة نفسها . ولم يعرف أحد مدى قدّمه . لكن هناك اتفاقاً عاماً في الرأي حول نقطة واحدة - العنصر الفعّال في ذلك الدواء السحريّ كان امرأة عجوزاً لها ساق واحدة . في الحقيقة ، كان الدواء السحريّ نفسه يدعى أجادي - نوايي ، أو امرأة عجوز . وله مقام في وسط أوموفيا ، في بقعة خالية . ولو بلغ الغباء بشخص وجروّ على المرور إلى جانب المقام بعد الغسق ، لرأى بالتأكيد المرأة العجوز تحجل حوله .

لذلك خافت جميع العشائر المجاورة ، التي تعرف هذه الأمور طبعاً ، أومووفيا ولم تجرؤ على شنّ الحرب ضدها قبل أن تحاول أولاً التوصل إلى تسوية سلمية معها . من الإنصاف لقرية أومووفيا أن نسجل أنها لم تخرج مطلقاً للحرب إلا إذا كانت قضيتها واضحة وعادلة واعتبرها وحيها - وحي التلال والكهوف ، كذلك . وقد ظهرت فعلاً مناسبات منع فيها الوحي أومووفيا من شنّ حرب . ولو خالفت العشيرة أمر الوحي لهُزمت بالتأكيد ، لأن أجاوي - نوايي المرهوب الجانب لا يمكن أن يخوض ما تدعوه قبيلة إيبو قتال لوم .

لكن الحرب التي هددت القبيلة بشنها الآن كانت حرباً عادلة . حتى العشيرة المعادية أدركت ذلك . هكذا ، وحينما وصل أوكونكوو المقيم في أومووفيا إلى مباينو بصفته مبعوث الحرب المتكبر والمتعطرس ، عومل بشرف واحترام شديدين ، وعاد بعد يومين مع غلام عمره خمسة عشر عاماً وعذراء شابة . كان اسم الغلام إيكيميفونا ، الذي لا تزال قصته المحزنة تروى في أومووفيا حتى يومنا هذا .

اجتمع الشيوخ ، أونديتشي ، ليستمعوا إلى تقرير عن مهمة أوكونكوو . في النهاية ، قرروا ، كما كان يتوقع الكل أن يحدث ، أن تذهب الفتاة إلى أوجبويفي أودو كي تحلّ محلّ زوجته القتيل . أما الغلام ، فكان من نصيب العشيرة ككل ، ولم يكن ضرورياً الاستعجال في البت بمصيره . لذا طلب من أوكونكوو الاعتناء به في غضون ذلك ، نيابة عن العشيرة . هكذا عاش إيكيميفونا في بيت أوكونكوو مدة ثلاث سنوات .

كان أوكونكوو يدير بيته بقبضة من حديد . فعاشت زوجاته ، خصوصاً زوجته الصغرى ، في خوف دائم من مزاجه الناري ، وكذلك عاش أطفاله

الصغار . قد لا يكون أوكونكوو في أعماق فؤاده رجلاً قاسياً . لكن الخوف كان يسيطر على حياته بأكملها ، الخوف من الفشل والضعف . وكان هذا الخوف أعمق وأكثر حميمية من خوفه من آلهة شريرة ذات نزوات ، ومن خوفه من السحر ، ومن الغابة وقوى الطبيعة الحقودة حمراء الأسنان والبرائن . كان خوف أوكونكوو أعظم من كل هذه . لم يكن خوفاً خارجياً ، بل كان خوفاً يستقر عميقاً في نفسه . الخوف من نفسه لئلا يبدو مشابهاً لأبيه . حتى حين كان فتى صغيراً ، كان مستاء من فشل أبيه وضعفه ، ولا يزال حتى الآن يذكر كم قاسى حين أخبره أحد رفاق لهوه بأن أباه أجبالا . على ذلك النحو عرف أوكونكوو ، لأول مرة ، أن أجبالا لم يكن مجرد اسم آخر للمرأة ، بل يمكن أن تعني أيضاً رجلاً لم يتقَلَّد لقباً في حياته . هكذا سيطرت على أوكونكوو عاطفة واحدة - كراهية كل ما أحبه أبوه أونوكا . وأحد هذه الرقة ، والآخر البطالة .

أثناء موسم الزراعة ، يعمل أوكونكوو في حقوله يوماً من صياح الديك إلى أن يبيت الدجاج في أقنانه . كان قوياً جداً ونادراً ما أحس بالتعب . لكن زوجاته والأطفال الصغار لم يكونوا أقوياء مثله ، لذلك قاسوا من ذلك . لكنهم لم يجرؤوا على الشكوى علانيةً . كان عمر ابن أوكونكوو الأول ، نوويي ، آنذاك اثني عشر عاماً ، لكنه كان يثير في نفس أبيه قلقاً عميقاً بسبب كسله المبكر . أو على الأقل ، هكذا بدا في نظر أبيه ، فحاول أن يصلح من شأنه بحثه وضربه على نحو متواصل . فحوّل ذلك نوويي إلى شاب حزين الوجه .

تجلى ازدهار أحوال أوكونكوو في بيته . فقد كان يملك مجموعة من الأكواخ مقامة على مساحة كبيرة مسورة بسياج سميك من الطين الأحمر .

يقع كوخه الخاص ، أو أوبيّ ، مباشرة خلف البوابة الوحيدة في السور الأحمر . كان لكل زوجة من زوجاته الثلاث كوخها الخاص بها ، وشكّلت هذه الأكواخ الثلاثة هلالاً خلف الأوبيّ . كان مخزن الغلال مبنياً في الطرف الأقصى من الأسوار الحمراء ، حيث تظهر في داخله أكداش الـ يام في صفوف طويلة مبيّنة مدى نجاحه . في طرف المجمع المقابل ، أقيمت سقيفة للماشية ، كما بنت كل زوجة ملحقاً صغيراً إلى جانب كوخها لتربية الدجاج . قرب مخزن الغلال ، قامت دار صغيرة ، «دار الدواء» أو المقام ، حيث يحتفظ أوكونكوو بالرموز الخشبية لآلهته الشخصية وأرواح أجداده . كان يعبدها بتقديم أضاحي من جوز الكولا والطعام ونبذ النخيل ، ويرفع إليها صلواته نيابة عن نفسه وزوجاته وأطفاله الثمانية .

هكذا جاء إيكيميغونا إلى منزل أوكونكوو حين قُتلت ابنة أوموفيا في مباينو . وعندما أحضره أوكونكوو إلى البيت في ذلك اليوم ، استدعى زوجته الكبرى وسلّمه إليها .

قال لها : «إنه مُلْك العشيرة . لذلك ، اعتني به» .

سألت : «هل سيقوم طويلاً معنا؟»

أرعد أكونكوو : «إفعلي ما يُقال لك يا امرأة» ، وتأتأ : «متى أصبحت واحدة من نديتشي أوموفيا؟»

هكذا قادت أم نووي الصبي إيكيميغونا إلى كوخها دون أن تطرح أسئلة أخرى .

أما بالنسبة إلى الصبي نفسه ، فكان خائفاً جداً . لم يفهم ما حدث له أو ما فعله . فمن أين له أن يعرف أن أباه شارك في قتل إحدى بنات أوموفيا؟

كل ما عرفه هو أن بضعة رجال وصلوا إلى دارهم ، وتحدثوا إلى أبيه
بنبرات خافتة ، وفي النهاية أخرجوه من البيت وسلّموه إلى رجل غريب .
بكت أمه بمرارة ، لكنه كان مندهشاً جداً إلى حد أنه لم يبك . هكذا قاده
الغريب ، مع فتاة ، قاطعين مسافة بعيدة جداً عن موطنهما عبر دروب
الغابة الموحشة . ولم يعرف مَنْ هي الفتاة ، ولم يرها بعد ذلك أبداً .

فصل ٣

لم تكن بداية حياة أوكونكوو كبداية الحياة التي كانت عادةً لكثيرين غيره من الشباب . فهو لم يرث عن أبيه مخزناً للغلال . إذ لم يكن هناك في الحقيقة مخزن ليرثه . وقد رويت القصة في أومووفيا عن ذهاب أبيه ، أونوكا ، ذات مرة ليستشير وحي التلال والكهوف لكي يكتشف لماذا كان حصاده بائساً دائماً .

كان الوحي يدعى أجبالا ، والناس يقصدونه من أقصى البلاد وأدناها لاستشارته . كانوا يأتون حين يلزم سوء الحظ خطواتهم بعناد أو عندما ينشب نزاع مع جيرانهم . فيأتون ليعرفوا ما يخبئه لهم المستقبل أو لاستشارة أرواح آبائهم الراحلين .

كان الطريق إلى المقام حفرة مستديرة في جانب تل ، أكبر بقليل فقط من فتحة مستديرة لمدخل قن دجاج . فيزحف المتعبدون وأولئك الذين أتوا يسعون إلى المعرفة من الإله على بطونهم من خلال الفتحة ليجدوا أنفسهم في فضاء مظلم لانهائي في حضرة أجبالا . ولم يحدث مطلقاً أن شاهد أحد أجبالا ما عدا كاهنته . لكن ، لم يخرج أحد ممن زحفوا إلى داخل مقامه المرعب دون أن يسيطر عليه الخوف من جبروته . فكاهنته

تقف إلى جانب النار المقدسة التي أشعلتها في قلب الكهف وتعلن عن إرادة الإله . لا تشتعل النار ملتهبة . وقطع الجذوع المتوهجة تعمل على إضاءة قوام الكاهنة المعتم إضاءة غامضة .

يأتي رجل أحياناً لاستشارة روح أبيه الميت أو أحد أقربائه الميتين . وقد قيل إن هذه الروح ، حين تظهر ، يراها على نحو غامض ، لكنه لا يسمع صوتها أبداً . وادعى بعض الأشخاص أنهم سمعوا الأرواح تطير وتخفق بأجنحتها على سقف الكهف .

قبل سنوات طويلة ، حين كان أكونكوو لا يزال صبياً ، ذهب أبوه ، أونوكا ، لاستشارة أجبالا . كانت الكاهنة في تلك الأيام امرأة تدعى تشيكا . كانت مفعمة بقوة إلهها ، ومرهوبة الجانب جداً . فوقف أونوكا أمامها وبدأ يروي قصته .

قال بحزن : « كل سنة ، وقبل أن أزرع أي بذور في التربة ، أضحي بديك لآني ، مالك كل الأرض . هذا هو قانون آبائنا . وأذبح أيضاً ديكاً في مقام إيفيجيوكو ، إله الأيام . وأقطع الشجيرة وأشعل النار فيها عندما تجف . وأبذر الأيام عندما تسقط الأمطار الأولى ، وأسندها إلى أعواد عندما تظهر أطرافها اللولبية المعرّشة الصغيرة . وأعشّب » .

صاحت الكاهنة : « اهدأ » ، وكان صوتها رهيباً عندما تردد صدها في الفراغ المظلم . « أنت لم تأثم بحق الآلهة أو بحق آبائك . وحين يسود السلام بين المرء وآلهته وأجداده ، يكون حصاده جيداً أو سيئاً بناءً على قوة ذراعه . أنت يا أونوكا مشهور بين كل العشيرة بضعف سيفك ومعزقتك .

فحين ينطلق جيرانك حاملين فؤوسهم لقطع أشجار الغابات العذراء ،
تبذر أنت اليام في المزارع المستنفذة التي لا تتطلب جهداً لإعدادها . إنهم
يعبرون سبعة أنهار ليعدوا مزارعهم ، بينما تظل أنت في البيت وتقدم
القرايين إلى تربة نافرة . عد إلى منزلك واشتغل كرجل » .

كان أونوكا رجلاً سيئ الطالع . كان تشيّه أو إلهه الشخصي رديئاً ،
ولازمه حظه الشرير إلى القبر ، أو بالأحرى إلى موته ، إذ لم يكن له قبر .
فقد مات من تورم تمقته إلهة الأرض . وعندما يصاب رجل بتورم في
المعدة والأطراف ، لا يُسمح له في الموت في البيت . بل يُحمل إلى غابة
الشر ويترك هناك كي يموت . وتروى قصة عن رجل عنيد جداً عاد مترنحاً
إلى بيته فاضطر القوم إلى أن يحملوه مرة أخرى إلى الغابة ويربطوه إلى
شجرة . فقد كان الممرض بغيضاً للأرض ، لذا لم يكن بالإمكان دفن
الضحية في أحشائها . فمات وتعفن فوق الأرض ، ولم يُدفن الدفن الأول
أو الثاني . هكذا كان مصير أونوكا . وعندما حملوه بعيداً ، أخذ نايه معه .

مع وجود أب كآونوكا لأوكونكوكو ، لم تتح له بداية حياة عملية أتيحت
لكثيرين غيره من الشباب . فهو لم يرث مخزن غلال أو لقباً ، أو حتى
زوجة صغيرة . لكن ، وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة ، إلا أنه بدأ
يرسي ، حتى أثناء حياة أبيه ، الأسس لمستقبل مزدهر . كان هذا بطيئاً
وموجعاً . لكنه ألقى بنفسه فيه كالممسوس . كان بالفعل ممسوساً
بالخوف من سيرة أبيه المزرية وموته المخزي .

عاش في قرية أوكونكوكو رجل موسر له ثلاثة مخازن ضخمة ، وتسع

زوجات وثلاثون ولداً . وكان اسمه نواكيبي ويتقلد لقباً يأتي قبل أرفع لقب
يمكن أن يحزره أي رجل في العشيرة . وقد عمل أوكونكوو لحساب هذا
الرجل كي يحصل على بذوره الأولى من الياقوت .

حمل زقا مملوءاً بنبيد النخيل وديكاً ، وذهب إلى نواكيبي . فدعا هذا
جارين مسنين من جيرانه ، وابنيه الكبيرين اللذين كانا موجودين في أوبيه .
قدم جوزة كولا وفلفل تمساح ، وأديرا على الحاضرين كي يعاينهما
الجميع ثم أرجعهما إليه . كسر أوكونكوو الجوزة قائلاً : «لنكتب لنا الحياة
جميعاً . إننا نصلي من أجل الحياة والأطفال وحصاد جيد والسعادة .
ستحصل على ما هو خير لك وسأحصل أنا على ما هو خير لي . فلتجثم
الحداثة وليجثم النسر أيضاً . وإذا قال أحدهما للآخر : لا ، ليكسر جناحه » .
بعد أن أكلوا جوزة الكولا جلب أوكونكوو نبيد نخيل من زاوية الكوخ
حيث وضعه ووقف في وسط الجماعة . وخاطب نواكيبي ، داعياً
إياه : «أبانا» .

قال : «ننا آبي . أحضرت لك هذه الكولا الصغيرة . وكما يقول قومنا ،
مَنْ يوقّر العظيم يمهد السبيل نحو عظمته هو . وقد أتيت لأقدم لك
احترامي واسألك معروفاً أيضاً . لكن ، لنشرب النبيد أولاً» .

شكر الجميع أوكونكوو وأخرج الجاران قرنيهما من كيسي جلد الماعز
اللذين يحملانهما . تناول نواكيبي قرنه المعلق في عوارض السقف
الخشبية . وخطا ابنه الأصغر ، الذي كان أحدث الموجودين سناً ، إلى
وسط الكوخ ، ورفع الزق على ركبته اليسرى وبدأ يصب الخمر . ذهب

الكأس الأولى إلى أوكونكوو الذي يجب أن يذوق نبيذه قبل أي شخص آخر . ثم شربت الجماعة ، بدءاً بأكبرهم سناً . عندما شرب الجميع قرنين أو ثلاثة ، استدعى نواكيبي زوجاته . ولم تكن بعضهن في الدار ، فأتت أربع منهن فقط .

سألهن : «هل أناسي موجودة؟» أجبن بأنها قادمة . كانت أناسي الزوجة الأولى ولا يجوز أن تشرب الأخريات قبلها ، لذلك وقفن منتظرات .

كانت أناسي امرأة متوسطة العمر ، طويلة وقوية البنية . وتلوح السلطة في مظهرها وتشير كل بوصة فيها بأنها الحاكمة بين النساء في عائلة كبيرة ومزدهرة . وقد لبست خلخال ألقاب زوجها ، الذي يحق للزوجة الأولى فقط أن تلبسه .

اتجهت نحو زوجها وتقبلت القرن منه . ثم جثت على إحدى ركبتها ، وشربت رشفة وأعادت القرن . نهضت ، ودعته باسمه وعادت إلى كوخها . شربت الزوجات الأخريات بالطريقة نفسها ، حسب ترتيبهن الصحيح ، ثم مضين .

ثم تابع الرجال الشرب والحديث . فتحدث أوجبويني أيديجو عن الخمار أويياكو الذي تخلى فجأة عن تجارته .

قال وهو يمسح رغوة النبيذ عن شاربه بقفا يده اليسرى : «لا بد أن وراء هذا أمراً . لا بد أن هناك سبباً لذلك . فالضفدعة لا تقفز في وضح النهار بلا سبب» .

قال أكو كاليا :«يقول البعض إن الوحي حدّره من أنه سيقع من فوق نخلة ويقتل نفسه» .

قال نواكيبي :«كان أوبيباكو دائماً غريب الأطوار . وقد سمعت أنه ذهب لاستشارة الوحي قبل سنوات عديدة حينما لم تمض على وفاة أبيه مدة طويلة . قال الوحي له :«أبولك المتوفي يطلب منك أن تضحي بعنزة له» . هل تعلمون ماذا أجاب الوحي؟ قال :«اسألوا أبي المتوفي إن كانت لديه دجاجة حينما كان على قيد الحياة» . ضحك الجميع من أعماق قلوبهم ما عدا أوكونكوو ، الذي ضحك قلقاً لأن المرأة العجوز ، كما يقول المثل ، تشعر دائماً بالقلق لدى ذكر العظام الجافة في الأمثال . فقد تذكر أوكونكوو أباه .

أخيراً ، رفع الشاب الذي كان يصبّ النبيذ في قرن امتلأ إلى نصفه من الثمالة البيضاء غليظة القوام ، وقال :«ما نأكله انتهى» . فأجاب الآخرون :«رأينا هذا» . فسأل :«مَنْ سيشرّب الثمالة؟» قال إيديجو :«مَنْ لديه شاغل يشغله» ، ورمق ابن نواكيبي الأكبر إيجيلو وفي عينيه تألق خبيث .

اتفق الجميع على أن يشرب إيجيلو الثمالة . فقبل القرن المملوء إلى نصفه من أخيه وشربه . فكما قال إيديجو ، كان لدى إيجيلو ما يشغله فعلاً ، فقد تزوج زوجته الأولى قبل شهر أو شهرين . ومن المفروض أن ثمالة نبيذ النخيل غليظة القوام مفيدة للرجال الذين يدخلون على زوجاتهم .

بعد أن شرب النبيذ كله ، بسط أوكونكوو صعوباته أمام نواكيبى .

قال :«أتيت إليك طالباً العون . قد تكون خمنت ما هو . لقد نظفت مزرعة ، لكن ، ليس لدي يام لأبذره . وأنا أعرف ماذا يعني أن يطلب رجل من آخر أن يأتّمه على يامه ، خصوصاً في هذه الأيام التي يخشى فيها الشباب العمل الشاق . أنا لا أخشى العمل . لقد قالت السحلية ، التي قفزت من شجرة الإيروكو العالية إلى الأرض ، إنها ستمدح نفسها إن لم يمدحها أحد . لقد بدأت أعتمد على نفسي في سن كان معظم أترابي فيه ما يزالون يرضعون من أثداء أمهاتهم . وإذا منحني بعض بذور يام فلن أخذلك» .

سلّك نواكيبى حلقه . «يسرني أن أرى شاباً مثلك في هذه الأيام التي أصبح فيها شبابنا مائعين . لقد قصدني كثير من الشبان طالبين اليام لكنني رفضت لأنني عرفت بأنهم سيلقون البذور في باطن الأرض ويتركون الأعشاب تخنقها . حين أقول لهم لا ، يظنون أنني قاسي القلب . لكن الأمر ليس كذلك . فالطائر إينيكي يقول إنه منذ أن تعلّم الناس الرماية دون أن يخطئوا ، تعلّم هو الطيران دون أن يحط على الأرض . لقد تعلمتُ أن أبخل بيامي . لكن باستطاعتي أن أثق بك . وأعرف هذا وأنا أنظر إليك . وكما قال آباؤنا ، يمكنك أن تميّز ذرة ناضجة من مظهرها . سأعطيك ضعف أربعمئة بذرة يام . إذهب وهىء مزرعتك» .

شكره أوكونكوو مراراً وتكراراً وذهب إلى بيته وهو سعيد . لقد عرف أن نواكيبى لن يرفض طلبه ، لكنه لم يتوقع أن يكون كريماً إلى هذا الحد . إذ لم يأمل في الحصول على أكثر من أربعمئة بذرة . إن عليه الآن أن يكون

مزرعة أكبر . وأمل في الحصول على أربعمائة بذرة يام أخرى من أحد أصدقاء أبيه في إيسوزو .

كان العمل بالمحاصصة طريقة بطيئة جداً في بناء مخزن غلال خاص بأي إنسان . فبعد كل الكدح ، يحصل الإنسان على ثلث المحصول فقط . لكن لا توجد طريقة أخرى بالنسبة إلى شاب لا يملك أبوه ياماً . ومما زاد الطين بلة في حالة أوكونكوو أنه تعيّن عليه أن يعيل أمه وأختين من محصوله الضئيل . فإعالة أمه تعني أيضاً إعالة أبيه . إذ لم يكن من المعقول أن تطبخ أمه وتأكل بينما زوجها يتضور جوعاً . هكذا كان على أوكونكوو ، وهو يكافح يائساً في سن مبكرة لبناء مخزن غلال عن طريق المحاصصة ، أن يعيل أيضاً بيت أبيه . كان هذا شبيهاً بصب حبوب في كيس مليء بالثقوب . وقد كدحت أمه وأختاه بجهد كبير ، لكنهن كن يزرعن غلال نساء ، مثل الكوكو - يام والبول والقريسة . أما اليام ، ملك المحاصيل ، فكان غلة الرجال .

كانت السنة التي حصل فيها أوكونكوو على ثمانمائة بذرة يام من نواكيبى أسوأ سنة وعتها ذاكرة الأحياء . فلم يحدث أي شيء في أوانه ، بل بكر أو تأخر أكثر من اللازم . بدا كأن العالم جنّ جنونه . فالأمطار الأولى تأخرت عن موعدها ، وحين هطلت دامت فترة قصيرة جداً فقط . وعادت الشمس الالهة أشدّ قسوة مما عُرِف عنها في أي وقت آخر ، وأحرقت كل الخضرة التي نبتت مع الأمطار . واشتعلت الأرض كالقحم الساخن وشوت جميع الأيام الذي كان قد زرع . وككل المزارعين الجيدين ، بدأ

أوكونكووييذر مع الأمطار الأولى . وكان قد بذر أربعمائة بذرة حينما جفّت الأمطار وعادت الحرارة . فراح يراقب السماء طوال النهار بحثاً عن علامات سحب ماطرة ويقضى الليل ساهراً . في الصباح ، كان يعود إلى حقله ويرى المحاليق تذوي . حاول وقايتها من حرارة الأرض المحرقة بإحاطتها بحلقات من أوراق نبات السيسال السميكة . لكن حلقات السيسال جفّت في نهاية النهار وأصبحت رمادية بتأثير الحرارة . فبدّلها كل يوم ، وصلى كي يهطل المطر في الليل . لكن الجفاف استمر طيلة ثمانية أسابيع سوق وقُتل اليام .

لم يكن بعض المزارعين قد زرعوا يامهم بعد . وكان أولئك هم الكسالى المهملون الذين يؤجلون دائماً إعداد حقولهم قدر الامكان . فأصبحوا في هذه السنة هم الحكماء . وقد تعاطفوا مع جيرانهم بهزّ رؤوسهم كثيراً ، لكنهم كانوا في أعماقهم مسرورين لما اعتبروه بُعد نظر منهم .

زرع أوكونكوو ما تبقى لديه من بذور اليام حين عاد المطر أخيراً . خامره عزاء وحيد . فالبذور التي زرعها قبل الجفاف كانت بذوره الخاصة ، حصاد العام الماضي . فظلّت لديه الثمانمائة بذرة التي حصل عليها من نواكبي والأربعمائة بذرة من صديق أبيه . هكذا سيبدأ بداية جديدة .

لكن السنة جنّ جنونها . فقد هطل المطر كما لم يهطل من قبل أبداً . وانصبّ مدراراً من السماء لعدة أيام وليالٍ متتاليات مشكلاً سيولاً عنيفة ،

وجُرُفت أكوام الأيام . واقتلعت الأشجار من جذورها وظهرت شقوق عميقة في كل مكان . ثم هداً عنف المطر . لكنه استمر من يوم إلى آخر دون انقطاع . لم تظهر دورة الشمس التي تأتي عادة في منتصف الموسم الماطر . وأنبتت الأيام أوراقاً وارفة خضراء ، لكن كل المزارعين عرفوا أن الدرنات لن تنمو دون أشعة الشمس .

في تلك السنة ، كان الحصاد حزيناً مثل جنازة ، وبكى كثير من المزارعين وهم يستخرجون الأيام المتعفن التعيس . وربط مزارع قماشه حول غصن شجرة وشنق نفسه .

ظل أوكونكوو يتذكر تلك السنة المأساوية طيلة حياته ورعدة باردة تسري في بدنه . وقد عرته الدهشة دائماً حين كان يفكر كيف أنه لم يغرق تحت ثقل اليأس . هو يعرف أنه مقاتل شرس ، لكن تلك السنة كانت كافية لتحطيم قلب أسد .

ردد دائماً : «لأنني نجوت من تلك السنة ، فسأنجو من أي شيء» . وعزا هذا إلى إرادته التي لا تلين .

وقد قال له أبوه أونوكا ، الذي كان مريضاً أثناء شهر الحصاد الرهيب ذلك : «لا تيأس . أنا أعرف أنك لن تيأس . فلك قلب رجل مفعم بالكبرياء . والقلب ذو الكبرياء يستطيع أن يتجاوز فشلاً يكون من نصيب الناس عامة ، لأن فشلاً كهذا لا يحطم كبرياءه . فالفشل الأصعب والأكثر مرارة هو الفشل الذي يصيب الإنسان وحده» .

كان أونوكا دائماً على ذلك النحو في أيامه الأخيرة . فقد زاد حبه
لل كلام مع تقدّم السن والمرض . فأعياى ذلك صبراً أو كونكوو إلى حد
يفوق الوصف .

فصل ٤

قال رجل عجوز :«حين ينظر المرء إلى فم ملك ، يخيل إليه أنه لم يرضع مطلقاً من ثدي أمه» . وقد تكلم ذلك العجوز عن أوكونكوو الذي ارتقى فجأة من الفقر المدقع وسوء الحظ ليصبح واحداً من سادة العشيرة . لم يحمل الشيخ ضغينة لأوكونكوو ، بل احترمه في الحقيقة لجدته ونجاحه . لكنه صدم ، مثله في ذلك مثل معظم القوم ، لفظاظته في التعامل مع الناس الأقل نجاحاً . فقبل أسبوع فقط خالفة شخص في الرأي أثناء اجتماع للأقارب عقدوه لمناقشة الاحتفال بعيد الأجداد القادم . فقال أوكونكوو دون أن ينظر إلى الرجل :«إن هذا الاجتماع للرجال» . فالرجل الذي خالفه في الرأي لا يحمل أية ألقاب . لذلك السبب دعاه امرأة . إن أوكونكوو يعرف كيف يقتل روح رجل .

انحاز الجميع في اجتماع الأقارب إلى جانب أوسوجو حين دعاه أوكونكوو امرأة . وقال أكبر الرجال الحاضرين سناً بصرامة بأن أولئك الذين كسرت روحٌ خيرة نوى نخيلهم يجب ألا ينسوا أن يتواضعوا . اعتذر أوكونكوو على ما بدر منه ، واستؤنف الاجتماع .

لكن لم يكن صحيحاً أن روحاً خيرة هي التي كسرت نوى نخيل أوكونكوو . فقد كسرهما هو نفسه . فأى إنسان يعرف صراعه المرير ضد الفقر والشقاء لم يكن يستطيع القول إنه كان محظوظاً . وإن وُجد رجل يستحق نجاحه ، فإن ذلك الرجل هو أوكونكوو . ففي سن مبكرة ، اكتسب شهرته كأعظم مصارع في كل البلاد . ولم يكن هذا حظاً . وأقصى ما يمكن للإنسان قوله هو أن تشبه أو إلهه الشخصي كان طيباً . لكن لدى شعب الإيبو مثل مفاده أن الرجل حين يقول نعم يقول تشبه نعم أيضاً . وقد قال أوكونكوو نعم بقوة شديدة ، فوافقه تشبه . وليس تشبه فحسب ، بل عشيرته أيضاً ، لأنها تحكم على الرجل بناء على ما فعلته يده . لذلك السبب اختارته القرى التسع كي ينقل إلى أعضائها رسالة حرب إلا إذا وافقوا على تقديم صبيّ وعذراء تكفيراً عن قتل زوجة أودو . كان خوف أعداء أومووفيا منها عميقاً إلى حد أنهم عاملوا أوكونكوو معاملة ملك وأحضروا له عذراءً منحت إلى أودو كزوجة ، والصبي إيكيميوفونا .

قرر الشيوخ أن يوضع إيكيميوفونا تحت رعاية أوكونكوو لفترة من الزمن . لكن أحداً لم يفكر أن الفترة ستطول إلى ثلاث سنوات . فقد بدوا أنهم نسوا كل شيء عنه فور اتخاذ القرار .

كان إيكيميوفونا في البداية خائفاً جداً . حاول مرة أو مرتين الفرار ، لكنه لم يكن يعرف من أين يبدأ . فكر بأمه وأخته البالغة من العمر ثلاث سنين وبكى بحرقة . عطف عليه أم نووي كثيراً وعاملته كواحد من أطفالها . لكن كل ما كان يقوله : «متى سأعود إلى البيت؟» وحين سمع أوكونكوو

أنه رفض أن يأكل أي طعام ، دخل الكوخ وفي يده عصا كبيرة ووقف فوقه بينما راح الغلام يبتلع الياقوت وهو يرتعد . بعد لحظات ، ذهب إلى خلف الكوخ وبدأ يتقيأ متألماً . فمضت أم نووي إليه ووضعت كفيها على صدره وظهره . مرض مدة ثلاثة أسابيع سوق ، وعندما استرد عافيته ، بدا كأنه تغلب على خوفه الشديد وحزنه .

كان الغلام بحكم طبيعته مفعماً بالحياة ، وقد اكتسب تدريجياً شعبية في منزل أوكونكوو ، خصوصاً لدى الأطفال . ولم يعد ابن أوكونكوو ، نووي ، الذي كان يصغره بعامين ، يفارقه تماماً ، فقد بدا له أنه عارف بكل شيء . كان باستطاعته أن يصنع نايماً من ساق خيزران وحتى من عشب الفيل . وكان يعرف أسماء جميع الطيور وينصب فخاخاً لقوارض الآجام الصغيرة . كما كان يعرف من أي أشجار تصنع أقوى الأقواس .

حتى أوكونكوو نفسه أصبح مولعاً جداً بالغلام - في سريرته طبعاً . فأوكونكوو لا يبدي أبداً أي عاطفة علنية ، إلا إذا كانت عاطفة الغضب . فإبداء الحنان علامة على الضعف ، والشيء الوحيد الذي يستحق الإظهار هو القوة . لذلك عامل إيكيميونا كما عامل كل شخص آخر - بيد ثقيلة . لكن لم يكن هناك أدنى شك في أنه أحب الغلام . فأحياناً ، حين يذهب إلى اجتماعات القرية الكبيرة أو احتفالات الأجداد الجماعية ، كان يسمح لإيكيميونا بمرافقته ، كابن له ، حاملاً مقعده وكيسه المصنوع من جلد الماعز . وبالفعل ، دعاه إيكيميونا أبي .

أتى إيكيميونا إلى أومووفيا في نهاية الموسم الرغد الواقع بين الحصاد

والزرع . وقد شفني في الواقع من مرضه قبل أيام فقط من بداية أسبوع السلام . وكانت تلك أيضاً هي السنة التي انتهك فيها أوكونكوو السلام ، وعاقبه على ذلك ، كما جرت العادة ، إيزباني ، كاهن ربة الأرض .

أثارت زوجة أوكونكوو الصغرى غضب المبرر ، عندما ذهبت إلى بيت صديقتها كي تضفر شعرها ، ولم تعد في وقت مبكر لتطبخ وجبة العصر . لم يعرف أوكونكوو في البداية أنها غير موجودة في البيت . وبعد أن انتظر الطبق عبثاً ، ذهب إلى كوخها ليرى ما كانت تفعله . لم يكن هناك أحد في الكوخ وكان الموقد بارداً .

سأل زوجته الثانية ، التي خرجت من كوخها لتجلب ماء من الوعاء العملاق الموضوع في ظل شجرة صغيرة في وسط مجمع الأكواخ : « أين أوجيوجو؟ »

- « ذهبت لتضفر شعرها » .

عضّ أوكونكوو شفتيه والغضب يجيش في صدره .

سأل بهدوء وضبط نفس غير عاديّين : « أين أطفالها؟ هل أخذتهم معها؟ »

أجابت زوجته الأولى ، أم نووي : « إنهم هنا » . فانحنى أوكونكوو ونظر في داخل كوخها . كان أطفال أوجيوجو يأكلون مع أطفال زوجته الأولى .

- « هل طلبت منك إطعامهم قبل أن تذهب؟ »

كذبت أم نووي : « نعم » ، محاولة أن تخفف من طيش أوجيوجو .

عرف أوكونكوو أنها لا تقول الحقيقة . خطأ عائداً إلى أوييه في انتظار عودة أوجيوجو . حين عادت ، انهال عليها ضرباً بقسوة شديدة . فقد نسي في غمرة غضبه أن الأسبوع كان أسبوع السلام . ركضت زوجته الأوليان خارجتين من كوخيهما فزعتين وتوسلتا إليه بحرمة الأسبوع المقدس . لكن أوكونكوو لم يكن الرجل الذي يكفّ عن ضرب شخص قبل أن ينهيه ، حتى ولا خوفاً من إلهة .

سمع جيران أوكونكوو صراخ زوجته ، فأوصلوا أصواتهم من فوق جدران المجمع متسائلين عن الأمر . أتى بعضهم ليجلوا الأمر بنفسهم . فلم يحدث أن سمع أحد بشخص أقدم على ضرب أي شخص في الأسبوع المقدس .

قبل حلول المغيب ، زار إيزياني ، كاهن ربه الأرض ، آني ، أوكونكوو في أوييه . فأحضر أوكونكوو جوزة كولا ووضعها أمام الكاهن .
- «أبعد عني جوزة الكولا . لن آكل في بيت رجل لا يكن احتراماً لآلهتنا وأجدادنا» .

حاول أوكونكوو أن يشرح له ما فعلته زوجته ، لكن إيزياني لم يبد اهتماماً بذلك . كان يحمل في يده عصا قصيرة دق بها على الأرض ليؤكد نقاطه .

قال حينما تكلم أوكونكوو : «اسمع ، أنت لست غريباً في أوموفيا . وأنت تعلم جيداً ، كما أعلم أنا ، أن أجدادنا قضوا بأننا ، قبل أن نزرع أية غلال في الأرض ، يجب أن نراعي حرمة أسبوع لا يوجه أي رجل فيه إلى

جاره كلمة سوء . إننا نحيا بسلام مع زملائنا تكريماً لربة الأرض العظيمة التي بلا بركتها لن تنمو غلاتنا . لقد ارتكبت شراً عظيماً» . وأنزل عصاه على الأرض بشدة . «أخطأت زوجتك ، لكن ، حتى لو دخلت الى أوبيك ووجدت عشيقها فوقها ، فإنك ترتكب شراً عظيماً إن أنت ضربتها» . هبطت عصاه على الأرض مرة أخرى . «إن الشر الذي ارتكبتَه يمكن أن يدمر العشيرة بأكملها . فربة الأرض التي أهنتها قد ترفض أن تمنحنا بركتها ، فنهلك كلنا» . تغيرت لهجته من الغضب إلى إصدار أمر . «ستحضر غداً إلى مقام أني عنزة واحدة ودجاجة واحدة وقطعة قماش ومائة ودعة» . ثم نهض وغادر الكوخ .

فعل أوكونكوو ما قاله الكاهن . حمل إليه أيضاً زقاً مليئاً بنبذ النخيل . في أعماقه كان نادماً . لكنه لم يكن الرجل الذي يتجول مخبراً جيرانه بأنه كان مخطئاً . هكذا قال الناس عنه إنه لا يكن احتراماً لآلهة العشيرة . وقال أعداؤه إن حظه الحسن أدار رأسه . ودعوه بالطائر الصغير نزا الذي نسي نفسه بعد وجبة دسمة إلى حد أنه تحدى تشيه ، إلهه الشخصي .

لا يجري أي عمل خلال أسبوع السلام . ويزور الناس جيرانهم ويشربون نبذ النخيل . ولم يتحدثوا في هذه السنة إلا عن النسو - أني الذي اقترفه أوكونكوو . إذ كانت هذه أول مرة منذ سنوات طويلة ينتهك فيها رجل السلام المقدس . حتى الشيوخ لا يتذكرون سوى مناسبة أو مناسبتين مشابھتين حدثتا ذات مرة في الماضي المعتم .

راح أوجبوي في أيزودو ، الذي كان أكبر الرجال سناً في القرية ، يخبر ضيفين قدما لزيارته أن عقوبة انتهاك سلام أني أصبحت لينة جداً في عشيرتهم .

قال :«لم يكن الأمر دائماً هكذا . حدثني أبي بأنه رُوي له أن أي رجل ينتهك السلام في الماضي كان يُجر على الأرض في القرية إلى أن يموت . لكن هذه العادة أُلغيت بعد فترة ، لأنها أفسدت السلام التي قصدت أن تحافظ عليه» .

قال أحد الشابين :«أخبرني شخص أمس أنه إثم كبير في بعض العشائر أن يموت رجل خلال أسبوع السلام» .

قال أجيويفي إيزودو :«هذا صحيح حقاً . فلدى أوبودواني تلك العادة . إذا مات رجل خلال أسبوع السلام فإنه لا يدفن بل يطرح في غابة الشر . إنها عادة سيئة يتبناها أولئك الناس لأنهم يفتقرون إلى الفهم . إنهم يطرحون أعداداً كبيرة من الرجال والنساء دون دفن . وما هي النتيجة؟ تمتلئ عشيرتهم بالأرواح الشريرة لهؤلاء الموتى غير المدفونين ، والجائعة إلى إيذاء الأحياء» .

بعد أسبوع السلام ، يبدأ كل رجل وعائلته بتنظيف الغابة من الأشجار لإعداد مزارع جديدة . فتترك الشجيرات المقطوعة كيما تجف ثم تضرَم فيها النار . حين يرتفع الدخان إلى عنان السماء ، تظهر الحدآت مقبلة من جهات مختلفة وتحلّق فوق الحقول المحترقة في وداع صامت . فالفصل الماطر يقترب وسترحل بعيداً إلى حين عودة الفصل الجاف .

أمضى أوكونكوو الأيام القليلة التالية في تهيئة بذور الأيام . فحص كل حبة يام بعناية ليقرر إن كانت صالحة للبذار . فيقرر أحياناً أن حبة يام معينة أكبر من أن تشكل بذرة واحدة فيشقّها بالطول بمهارة بسكينه الحادة . وقد

ساعده ابنه البكر ، نووي ، وإيكيمي فونا بجلب اليام في سلال طويلة من المخزن وعدّ البذور المهيأة في مجموعات مكوّنة من أربعمئة بذرة . في بعض الأحيان ، أعطى أوكونكوو كلاً منهما بضع حبّات من اليام لإعدادها للبذار . لكنه وجد دائماً أخطاء في عملهما ، وأشار إلى هذه الأخطاء بلهجة مفعمة بالتهديد .

سأل نووي : «هل تعتقد أنك تقطع اليام للطبخ؟ إذا قطعت حبة أخرى بهذا الحجم ، فسأكسر فكك . أنت تظن أنك ما زلت طفلاً . لقد بدأت أملك مزرعة حين كنت في سنك» . وقال لإيكيمي فونا : «وأنتم ، ألا تزرعون اليام في المكان الذي أتيت منه؟» وأوكونكوو يعرف في أعماقه أن الأولاد ما زالوا أصغر من أن يفهموا تماماً فن إعداد بذور اليام الصعب . لكنه فكر أن الإنسان لا يستطيع أن يبدأ في وقت مبكر جداً . فاليام رمز الرجولة ، وكل مَنْ يستطيع أن يطعم عائلته اليام ، من حصاد إلى آخر ، فهو رجل عظيم حقاً . وقد أراد أوكونكوو لابنه أن يكون مزارعاً عظيماً ورجلاً عظيماً . وسيستأصل علامات الكسل المقلقة التي اعتقد أنه رآها فيه .

لن أقبل أن يكون لي ابن لا يستطيع أن يرفع رأسه عالياً في اجتماع العشيرة . وأفضّل أن أخنقه بيديّ هاتين . وإذا وقفت تحدّق فيّ على هذا النحو فسيحطم أماديورا رأسك» .

بعد بضعة أيام ، وحينما أصبحت الأرض رطبة بعد هطول المطر مرتين أو ثلاث مرات بغزارة ، ذهب أوكونكوو وعائلته إلى المزرعة ومعهم سلال بذور اليام ومجارفهم وسيوفهم ، وبدأ الزرع . أقاموا أكواماً مفرودة من الطين في خطوط مستقيمة في جميع أنحاء المزرعة وبذروا اليام فيها .

كان الـيام ، ملك الغلال ، ملكاً مرهقاً جداً . فهو يتطلب عملاً شاقاً وعناية متواصلة يومياً لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر قمرية من صياح الديك إلى حين عودة الدجاج إلى أفنانه . وتحتاج الأطراف الخضراء الوليدة إلى الحماية من حرارة الأرض بحلقات من أوراق السيسال السميكة . وحين تزداد غزارة الأمطار ، تزرع النسوة الذرة والبطيخ والـفول بين أكوام الـيام . ثم تسندن نباتات الـيام في البداية بعصي صغيرة ، وفيما بعد ، بأغصان شجر طويلة وكبيرة . ويعشبن المزرعة ثلاث مرات من حياة الـيام ، لاقبلها ولا بعدها .

ثم أتت الأمطار حقاً ، غزيرة ومتواصلة إلى حد أنه حتى صانع المطر في القرية لم يعد يدعى بأنه قادر على التدخل . فليس بوسعه الآن إيقاف المطر ، تماماً كما لم يكن سيحاول جلبه في ذروة الموسم الجاف ، دون التعرض لخطر شديد يداهم صحته . فالحركية الشخصية المطلوبة لمواجهة قوى تطرفات الطقس هذه أقوى بكثير من أن يتحملها الكيان البشري .

لذا لا يتدخل أحد في مجرى الطبيعة في وسط الموسم الماطر . وينصب المطر في بعض الأحيان على شكل صفائح سميكة من المياه بحيث تبدو الأرض والسماء مندمجتين في بلل كلي واحد . عندئذ ، لا يمكن التأكد مما إذا كان هدير رعد أماديورا الخافت يأتي من الأعلى أو من الأسفل . وفي أوقات مثل هذه ، يتحلّق الأطفال في كل كوخ من الأكواخ ذات سقوف القش التي لا يحصّيها العدّ في أومووفيا ، حول نار طبخ

أمهاتهم ويروون الحكايات ، أو يجلسون مع آبائهم في أكواخهم يستمدون الدفء من نيران الحطب ، ويشوون ويأكلون الذرة . وتلك فترة راحة قصيرة بين فصل الزرع المرهق الشاق وشهر الحصاد الذي لا يقل عنه إرهاقاً ، لكنه شهر غلال عامر بالمسرة .

بدأ إيكيميغونا يحسّ كأنه واحد من أفراد أسرة أوكونكوو . وقد ظلّ يفكر بأمه واخته البالغة من العمر ثلاث سنوات ، فتنتابه لحظات من الحزن والانقباض . لكنه أصبح ونووي متعلقين أحدهما بالآخر بعمق شديد إلى حد أن أصبحت مثل تلك اللحظات أقل تكرراً وأخف إيلاماً . كان لدي إيكيميغونا معين لا ينضب من الحكايات الشعبية . حتى تلك التي كان نووي يعرفها من قبل كانت تروى بنضارة جديدة ونكهة محلية لعشيرة مختلفة . وقد ظل نووي يذكر هذه الفترة بحيوية شديدة حتى نهاية حياته . ويذكر حتى كيف ضحك عندما أخبره إيكيميغونا أن الاسم الصحيح لكوز الذرة المشتمل على حبّات قليلة متفرقة هو ايزي - أجادي - نوايي ، أو أسنان امرأة عجوز . واتجه ذهن نووي فوراً إلى نواييكي ، التي كانت تعيش إلى جوار شجرة يودالا . فقد كانت لها ثلاثة أسنان فقط وتدخن غليونها دائماً .

تدريجياً ، خف المطر وتباعدت فترات هطوله ، وعادت السماء والأرض إلى الانفصال مرة أخرى . وسقط المطر رذاذاً رقيقاً ومائلاً بين أشعة الشمس والنسيم الهادئ . لم يعد الأطفال يمكثون في داخل بيوتهم بل راحوا يتراكمون في الجوار منشدين :

«المطر يهطل ، الشمس تشرق ،

وننادي Nnadi يطبخ ويأكل وحده» .

وقد تساءل نوويي دائماً مَنْ يكون ننادي هذا ولماذا يعيش وحيداً ،
يطبخ ويأكل . في النهاية ، قرر أن لا بد أن ننادي يعيش في أرض قصة
إيكيميغونا المفضّلة تلك ، حيث النمل يقيم مملكة رائعة والرمال ترقص
دائماً وأبداً .

فصل هـ

كان عيد اليام الجديد يقترب وأموفيا في مزاج احتفالي . كان هذا العيد مناسبة لتقديم الشكر إلى آني ، ربة الأرض ومصدر كل الخصب . فآني تلعب في حياة القوم دوراً أكبر من دور أي من الآلهة الأخرى . فقد كانت الحكم النهائي في قضايا الأخلاق والسلوك . والأهم من ذلك أنها كانت على اتصال وثيق بأباء العشيرة الراحلين الذي أودعت أجسامهم الأرض .

كان عيد اليام الجديد يجري كل سنة قبل بدء الحصاد لتكريم ربة الأرض وأرواح أجداد العشيرة . ولا يمكن أكل اليام الجديد قبل تقديم نصيب منه إلى تلك القوى . وكان الرجال والنساء ، صغاراً وكباراً ، يتطلعون بشوق إلى مهرجان اليام الجديد لأنه يمثل بداية موسم الوفرة - السنة الجديدة . في الليلة الأخيرة السابقة للمهرجان ، يتخلص الجميع من يام العام الماضي المتبقي في حوزتهم . فالعام الجديد يجب أن يبدأ بيام طازج حلو المذاق ، وليس بمحصول السنة الماضية المنكمش المتليّف . فتغسل جيداً جميع قدور الطبخ ، وأوعية القرع والطاسات الخشبية ، وخاصة الهاونات الخشبية التي يسحق فيها اليام . ويكون فو - فو اليام مع

حساء الخضار الطبق الرئيسي في الاحتفال . فتطهى كميات كبيرة من ذلك إلى حد أنه مهما أكلت العائلة ومهما أكل الأصدقاء الكثيرون والأقارب المدعوون من القرى المجاورة ، فإن كميات كبيرة منه تبقى في نهاية النهار . وتروى دائماً قصة رجل غني وضع أمام ضيوفه كومة من الفو - فو ، مرتفعة إلى حد أن الجالسين في جانب منها لم يتمكنوا من رؤية ما كان يحدث في الجانب الآخر ، وأن أحدهم رأى أول مرة صهره الذي حضر أثناء الوليمة وجلس في الجانب الآخر في ساعة متأخرة من المساء فقط . عندئذ فقط ، تبادلوا التحية وتصافحا فوق ما تبقى من الطعام .

لذا كان مهرجان الأيام الجديد مناسبة بهيجة في جميع أنحاء أمووفيا . وكان يتوقع من كل رجل قوي الذراع ، كما يقول شعب الإيبو ، أن يدعو أعداداً كبيرة من الضيوف من النواحي البعيدة والواسعة . وكان أوكونكوو دائماً يدعو أقارب زوجاته ، ولأن لديه الآن ثلاث زوجات ، يشكل ضيوفه مجموعة كبيرة إلى حد ما .

لكن أوكونكوو ، على نحو ما ، لا يتحمس أبداً كثيراً للأعياد كغالبية الناس . كان أكلواً جيداً وفي وسعه شرب قرعة أو قرعتين كبيرتين مليئتين بنبيذ النخيل . لكنه كان دائماً يحسّ بعدم الارتياح لتبطله عدة أيام في انتظار وليمة والانتهاه منها . فهو سيكون أسعد كثيراً جداً وهو يعمل في مزرعته .

بقي على حلول المهرجان ثلاثة أيام فقط . ففركت زوجات أوكونكوو الجدران والأكواخ بالتراب الأحمر إلى أن عكست النور . ثم رسمن عليها أشكالاً بالأبيض والأصفر والأخضر الداكن . ثم بدأن بصبغ أنفسهن بخشب الكام ورسمن أشكالاً سوداء جميلة على بطونهن وظهورهن .

وزَّينَ الأطفال أيضاً ، خصوصاً شعورهم التي قصت بأشكال بديعة .
وتحدثت النسوة بانفعال عن أقاربهن الذين دُعوا ، وتقافز الأطفال فرحاً
وهم يفكرون بتدليل زوارهم القادمين من وطن أمهاتهم لهم . انفعِل
إيكيميْفونا أيضاً بنفس المقدار . وبدا مهرجان اليوم الجديد في نظره حدثاً
أكبر بكثير هنا مما هو عليه في قريته ، التي أصبحت مكاناً نائياً وغامضاً في
مخيلته .

ثم انفجرت العاصفة . فجأة ، وجد أكونكوو ، الذي كان يتسكع على
غير هدى في مجمّع أكواخه ، كاظماً غيظه ، متنفساً لغضبه .
سأل : «مَنْ قتل شجرة الموز هذه؟» .

خيم صمت على مجمّع الأكواخ فوراً .

- «مَنْ قتل هذه الشجرة؟ أم أنكم كلكم صمّ بكم؟»

كانت الشجرة في الحقيقة مفعمة بالحياة . لكن زوجة أوكونكوو الثانية
قطفت أوراقاً قليلة منها فقط لتلفّ بها بعض الطعام ، ذكرت ذلك . وبلا
أية مناقشة ، أوسعها أوكونكوو ضرباً وانصرف عنها هي وابنتها الوحيدة
وهما تبكيان . لم تتجرأ أي من الزوجتين الأخريين على التدخل بأكثر من
ترديد عرضي ومتردد متوسلتين إليه من مسافة معقولة : «يكفي هذا يا
أوكونكوو» .

بعد أن شفى أوكونكوو غليله على هذا النحو ، قرر الخروج إلى
الصيد . كانت لديه بندقية عتيقة صدئة صنعها حدّاد ماهر عاش في
أوموفيا قبل أمد بعيد . لكن أوكونكوو ، رغم أنه كان رجلاً عظيماً يعترف
الجميع بجسارته ، لم يكن صياداً . فهو في الحقيقة لم يقتل ببندقيته فأراً .

لذا ، عندما نادى على إيكيميونا ليحضر له بندقيته ، تمتمت زوجته ، التي انتهى لتوه من ضربها ، بشيء عن بنادق لم تصب هدفها أبداً . ولسوء حظها سمعها أوكونكوو ، فركض بجنون داخلاً غرفته بحثاً عن البندقية المعبأة ، ثم خرج راكضاً وصوبها نحوها وهي تتسلق بارتباك سور المخزن الواطىء . ضغط على الزناد فانطلق صوت انفجار عال اقترن بعويل زوجاته وأطفاله . ثم رمى البندقية من يده وقفز إلى داخل المخزن ، وهناك كانت المرأة تستلقي مرتعدة الفرائص ومرتعبة لكن دون أن تصاب بأذى . فأطلق تنهيدة عميقة ومضى مع بندقيته .

على الرغم من هذه الحادثة ، جرى مهرجان الياام الجديد في دار أوكونكوو بفرح كبير . في صباح ذلك اليوم الباكر ، حين قدم قربانه من الياام الجديد وزيت النخيل لأجداده ، طلب منهم أن يحموه ويحموا أطفاله وأمهاتهم في السنة الجديدة .

في أثناء النهار ، وصل أصهاره من القرى الثلاث المجاورة ، وجلب كل فريق معه زقاً ضخماً من نبيذ النخيل . دار الطعام والشراب حتى حلول الليل ، حينما بدأ أصهار أوكونكوو يرحلون قاصدين بيوتهم .

كان اليوم الثاني من السنة الجديدة يوم مباراة المصارعة الكبرى بين قرية أوكونكوو والقرى المجاورة . من الصعب القول أي المناسبتين يتمتع بها القوم أكثر - الولائم والزمالة في اليوم الأول أم مباريات المصارعة في اليوم الثاني . لكن امرأة واحدة لم يخامرها شك أبداً في ذلك . كانت هذه المرأة زوجة أوكونكوو الثانية ، إيكوي ، التي كاد أن يقتلها بطلقة البندقية . فلم يكن ثمة مهرجان في جميع مواسم السنة يبعث في قلبها

السرور مثل مباراة المصارعة . فقبل سنوات طويلة ، عندما كانت غادة القرية ، أسر أوكونكيوو قلبها بتغلبه على الهرّ في أعظم مباراة تعيها الذاكرة الحيّة . ولم تتزوجه آنذاك لأنه كان أفقر من أن يدفع مهر زواجها . لكنها هربت بعد بضع سنوات من بيت زوجها ، وأتت لكي تعيش مع أوكونكوو . حدث كل هذا منذ سنوات عديدة جداً . وإيكوفي الآن امرأة في الخامسة والأربعين من العمر قاست كثيراً في حياتها . لكن حبها لمباريات المصارعة ظل قوياً مثلما كان قبل ثلاثين عاماً .

لم يكن ظهر اليوم الثاني من مهرجان اليوم الجديد قد حلّ بعد . فجلست إيكوفي وابنتها الوحيدة ، إيزينما ، قرب النار في انتظار غليان الماء في القدر . كانت الدجاجة التي ذبحتها إيكوفي لتوها موضوعة في الهاون الخشبيّ . بدأ الماء يغلي ، وبحركة سريعة واحدة رفعت إيكوفي القدر عن النار وصبت الماء الغالي فوق الدجاجة . ثم أعادت القدر الفارغ إلى الحشية المستديرة في الركن ، ونظرت إلى راحتي يديها اللتين أسود لونهما من السخام . كانت إيزينما تدهش دائماً لقدرة أمها على رفع القدر عن النار بيديها العاريتين .

قالت : «إيكوفي ، هل صحيح أن الناس عندما يكبرون لا تحرقهم النار؟» كانت إيزينما ، خلافاً لمعظم الأطفال ، تنادي أمها باسمها .

أجابت إيكوفي ، وهي مشغولة جداً إلى حد لا يسمح لها في المجادلة : «نعم» . كانت ابنتها في العاشرة من العمر ، لكنها كانت أنضج من عمرها .

- «لكن أم نوويي أوقعت قدر حساء ساخن في ذلك اليوم وانكسر على الأرض» .

قلبت إيكوفيي الدجاجة في الهاون وبدأت تنتف الريش .
قالت إيزينما التي انضمت إليها في نتف الريش : «إيكوفيي ، جفوني ترّف» .

قالت أمها : «هذا يعني أنك ستبكين» .
قالت إيزينما : «كلا ، إنه هذا الجفن ، الأعلى» .
- «هذا يعني أنك ستترين شيئاً» .
سألت : «ماذا سأرى؟»

أرادت إيكوفيي منها أن تستتج بنفسها : «كيف أعرف؟» .
قالت إيزينما أخيراً : «أوهو . أعرف ما هو - مباراة المصارعة» .
أخيراً ، نظّفت الدجاجة . حاولت إيكوفيي أن تقتلع منقارها ، لكنه كان قاسياً جداً . استدرات ، وهي على مقعدها الواطئ ، ووضعت المنقار في النار لبضع لحظات . ثم شدته ثاني فخرج بيدها .
نادى صوت من أحد الأكواخ الأخرى : «إيكوفيي» كان صوت أم نوويي ، زوجة أوكونكوو الأولى .

صاحت إيكوفيي مجيبة : «هل تلك أنا؟» . فتلک هي الطريقة التي يجيب فيها الناس على النداءات الصادرة من الخارج . إنهم لا يجيبون أبداً بنعم خوفاً من أن يكون المنادي روحاً شريرة .

-«هل تعطي إيزينما قليلاً من النار لتحضرها إليّ؟»

كان أطفالها وإيكيميونا قد ذهبوا إلى الجدول .

وضعت إيكوفي بضع فحمات مشتعلة في قطعة قدر مكسور فحملتها إيزينما عبر المجمعّ النظيف المكنوس إلى أم نووي .

قالت :«شكراً يا نما» . كانت تقشّر حبات يام جديد ، وبجوارها سلة فيها خضار طازجة وفول .

عرضت إيزينما :«دعيني أشعل لك النار» .

قالت : «شكراً يا إيزيجبو» . كانت غالباً ما تناديهما إيزيجبو ، وتعني «الفتاة الطيبة» .

مضت إيزينما إلى الخارج وجلبت بضعة أعواد من كومة حطب ضخمة . كسرتها إلى قطع صغيرة بباطن قدمها وبدأت تشعل ناراً ، نافخة فيها من أنفاسها .

قالت أم نووي ، وهي ترفع بصرها عن اليام الذي كانت تقشره : «ستنفخين عينيك وتطفئيهما . استعملي المروحة» . ثم نهضت واقفة وسحبت المروحة المعلقة في إحدى دعائم السقف . حالما نهضت ، غرزت العنزة المشاغبة ، التي كانت تأكل بإذعان قشر اليام ، أسنانها في اليام نفسه ، وانزعت لقمتين وفرت من الكوخ لتمضغ ما انتزعته في سقيفة الماعز . شتمتها أم نووي وعادت لتستقر جالسة وتقشر اليام . أرسلت النار التي أشعلتها إيزينما سحب دخان كثيف . استمرت في تهويتها بالمروحة إلى أن اندلع اللهب . شكرتها أم نووي وعادت إيزينما إلى كوخ أمها .

في تلك اللحظة تماماً ، بدأ قرع الطبول البعيد يصل إلى سمعهم آتياً من ناحية الإيلو ، ملعب القرية . كان لكل قرية إيلو ، قديم قدم القرية نفسها ، تجري على أرضه جميع الاحتفالات والرقصات الكبيرة . قرعت الطبول إيقاع رقصة المصارعة الذي لا تخطئه الأذن - سريعاً وخفيفاً ومرحاً ، فأتى طافياً على الريح .

سلّك أوكونكوو حلقة وحرّك قدميه على إيقاع قرع الطبول . فهو يشعل فيه النار كما ظلّ يشعلها منذ شبابه . ارتعش بشهوة القهر والإخضاع . كان كالرغبة في امرأة .

قالت إيزينما لأمها : «ستأخر عن المصارعة» .

- «لن يبدأوا قبل أن تغيب الشمس» .

- «لكنهم يقرعون الطبول» .

- «نعم . الطبول تبدأ ظهراً ، لكن المصارعة تنتظر حتى تبدأ الشمس بالغروب . إذهي وانظري إذا كان أبوك قد أخرج اليوم لوجبة بعد الظهر» .

- «أخرجها . وأم نووي بدأت الطبخ» .

- «إذهبي وأحضري حصتنا إذن . يجب أن نطبخ بسرعة وإلا تأخرنا عن المصارعة» .

ركضت إيزينما في اتجاه المخزن وأحضرت حبتين من اليام من فوق الجدار الواطيء .

قشرت إيكوفي اليام بسرعة . تشممت العنزة المشاكسة حواليتها ، وراحت تأكل القشور . ثم قطعت إيكوفي اليام إلى قطع صغيرة وبدأت

تعدّ حساء ، مستخدمة جزءاً من الدجاجة .

في تلك اللحظة ، سمعتا شخصاً يبكي خارج مجمّعهما تماماً . كان الصوت شبيهاً جداً بصوت أوبياجيلي ، أخت نوويي .

صاحت إيكوي في عبر الفناء موجهة حديثها إلى أم نوويي :

- «أليست هذه أوبياجيلي تبكي؟»

أجابت : «نعم . لا بد أنها كسرت جرتّها» .

اقترب البكاء الآن كثيراً ، وسرعان ما دخل صفّ الأطفال ، وهم يحملون على رؤوسهم جراراً مختلفة الأحجام ومناسبة لأعمارهم . دخل إيكيمي فونا أولاً ومعه الجرة الكبرى ، وتبعه مباشرة نوويي ثم أخواه الأصغران . أتت أوبياجيلي في المؤخرة ، وعلى وجهها تسيل دموع . وفي يدها حشيرة القماش التي من المفروض أن توضع عليها الجرة وهي على رأسها .

سألت أمها : «ماذا حدث؟» ، روت لها أوبياجيلي قصتها المحزنة . فواستها أمها ووعدتها بشراء جرة أخرى .

همّ أخوان نوويي الصغيران بإخبار أمهما بالقصة الحقيقية ، لكن إيكيمي فونا حدجها بنظرة صارمة ، فأمسكا لسانيهما . الحقيقة أن أوبياجيلي ظلت تقوم بحركة الإينيانجا وهي تحمل جرتها . فوازنت الجرة على رأسها ، وطوت ذراعيها على صدرها وبدأت تهزّ خصرها كسيدة صغيرة ناضجة . وحين وقعت الجرة وانكسرت ، انفجرت ضاحكة . ولم تشرع بالبكاء إلا عندما اقتربوا من شجرة الإيروكو خارج مجمّع أكوأخهم .

كانت الطبول لا تزال تقرع ، ملحّة وبلا تغيير . لم يعد الصوت منفصلاً
عن القرية المفعمة بالحياة . كان كنبض قلب القرية . يخفق في الجو ، في
أشعة الشمس ، وحتى بين الأشجار ، ويملاً القرية بالإثارة .

صبّت إيكوفني نصيب زوجها من الحساء في طاسة وغطتها . وحملتها
إيزنما إليه في أوبيّه .

كان أوكونكوو جالساً على جلد ماعز يتناول وجبة زوجته الأولى .
جلست أوبياجيلي ، التي أحضرت هذه الوجبة من كوخ أمها ، على
الأرض في انتظار انتهائه منها . ووضعت إيزنما طبق أمها أمامه وجلست
مع أوبياجيلي .

صاح أوكونكوو عليها : «إجلسي كامرأة !» . فضمّت إيزنما ساقها
ومدتهما أمامها .

سألت إيزنما بعد فترة مناسبة : «أبي ، هل ستذهب لتشاهد
المصارعة؟»

أجاب : «نعم . هل ستذهبين أنت؟»

- «نعم» .

بعد صمت قصير سألت : «هل أستطيع أن أحضر مقعدك؟»

- «لا ، هذه مهمة صبي» .

كان أوكونكوو مولعاً بإيزنما بصفة خاصة . فهي تبدو شديدة الشبه
بأمها التي كانت ذات مرة فاتنة القرية . لكن ولعه يظهر في مناسبات نادرة
جداً فقط .

قالت إيزينما : «كسرت أويياجيلي جرتها اليوم» .
قال أوكونكوو بين لقمة وأخرى : «نعم ، أخبرتني بذلك» .
قالت أويياجيلي : «أبي ، يجب ألا يتكلم الناس وهم يأكلون وإلا دخل
الفلفل في المجرى الخطأ» .
- «هذا صحيح جداً . هل سمعت ذلك يا إيزينما؟ إنك أكبر من
أويياجيلي لكنها أعقل منك» .
كشف الغطاء عن طبق زوجته الثانية وبدأ يأكل منه . أخذت أويياجيلي
الطبق الأول وعادت إلى كوخ أمها . ثم دخلت نكيتشي ، حاملة الطبق
الثالث . كانت نكيتشي ابنة زوجة أوكونكوو الثالثة .
من بعيد ، استمر قرع الطبول .

فصل ٦

احتشدت القرية بأكملها في الإيلو ، رجالاً ونساءً وأطفالاً . وقفوا في دائرة واسعة تاركين وسط الملعب خاوياً . جلس شيوخ وعظماء القرية على كراسيهم التي أحضرها إلى هناك أبناؤهم الشباب أو عبيدهم . كان أوكونكوو بينهم . أما البقية فكانوا واقفين ما عدا أولئك الذين حضروا مبكرين جداً ليؤمنوا أماكن على المنصات القليلة المصنوعة من زنود خشبية ملساء مرتكزة إلى دعائم متقطعة .

لم يكن المصارعون قد وصلوا بعد ، فظلّ قارعو الطبول سادة الموقف . وقد جلسوا هم أيضاً أمام دائرة المشاهدين الواسعة ، يواجهون الشيوخ . انتصبت خلفهم شجرة القطن الحريريّ العتيقة الضخمة التي كانت مقدسة . فأرواح الأطفال الطيبين تعيش فيها في انتظار أن يولدوا . وفي الأيام العادية ، تأتي النسوة الشابات الراغبات في الأطفال ليجلسن في ظلها .

كانت هناك سبعة طبول موزعة وفقاً لأحجامها في سلال خشبية طويلة . راح يقرع عليها ثلاثة رجال بعصيّ خشبية ، متقللين من طبل إلى آخر على نحو محموم . لقد تلبستهم روح الطبول . اندفع الشباب الذين

يحافظون على النظام ، في مناسبات كهذه ، هنا وهناك ، وهم يتشاورون فيما بينهم ومع قائدي فريقى المصارعة اللذين كانا لا يزالان خارج الدائرة خلف الجمهور . بين فترة وأخرى ، يجرى شابان ، يحملان سعف النخيل ، حول الدائرة الداخلية ويعملان على دفع الجمهور إلى الخلف بضرب الأرض أمامهم ، وضرب سيقانهم ، إن ظلّوا عنيدين .

أخيراً ، دخل الفريقان إلى الدائرة وهم يرقصون ، فضج الجمهور بالهتاف والتصفيق . تعالى قرع الطبول إلى حد الجنون . وتماوج الناس مندفعين إلى الأمام . تراكض الشابان المكلفان بحفظ النظام بسرعة ، ملوّحين بسعف نخيلهم . هزّ الشيوخ رؤوسهم على خفق الطبول وتذكروا أيام شبابهم عندما تصارعوا على إيقاعها المسكر .

بدأت مباريات المصارعة بفتيان الخامسة أو السادسة عشر . كان هناك ثلاثة فتيان فقط من هذا العمر في كل فريق . لم يكن هؤلاء المصارعين الحقيقيين ، بل كانوا هم الذين يهيئون المشهد فقط . انتهت المباراتان الأوليان خلال فترة قصيرة . لكن المباراة الثالثة أثارت ضجة كبيرة حتى بين الشيوخ الذين اعتادوا على ألا يظهرُوا انفعالهم على هذا النحو المكشوف . كانت مباراة سريعة مثل المباراتين الأخريين ، وربما حتى أسرع . لكن قليلاً جداً من الناس شاهدوا ذلك النوع من المصارعة من قبل . فحالما التحم الفتيان ، قام أحدهما بحركة لم يستطع أحد وصفها لأنها كانت سريعة كوميض . وقع الآخر مطروحاً على ظهره . زأر الجمهور وصفق ، فأغرق هذا قرع الطبول المسعور للحظة من الزمن . هبّ أوكونكوو واقفاً على قدميه وعاود الجلوس بسرعة . اندفع ثلاثة شبان من فريق الفتى المنتصر إلى الأمام ، فحملوه على أكتافهم ورقصوا

مخترقين صفوف الجمهور المهلل . وسرعان ما عرف الجميع مَنْ هو الفتى . كان اسمه مادوكا ، ابن أوبيركا .

توقف قارعو الطبول لفترة استراحة قصيرة قبل المباريات الحقيقية . كانت أجسادهم قد التمعت بالعرق ، فتناولوا المراوح وبدأوا يروّحون على أجسادهم . شربوا ماء أيضاً من جرار صغيرة وأكلوا جوز كولا . عادوا مرة أخرى كائنات بشرية عادية ، يتحدثون ويضحكون فيما بينهم ومع آخرين واقفين قربهم . تراخى الجو الذي كان مشدوداً بالانفعال . بدت الحال كأن ماء صب فوق جلد طفل مشدود . مال كثير من الناس بأنظارهم حولهم ، ربما للمرة الأولى ، فرأوا الوافقين أو الجالسين إلى جوارهم .

قالت إيكوفى للمرأة التي وقفت إلى جانبها كتفاً إلى كتف منذ بداية المباريات : «لم أعرف أن هذه أنت» .

قالت المرأة : «لا ألومك ، فأنا لم أر في حياتي مثل هذا الجمهور الكبير من الناس . هل صحيح أن أكونكوو كاد أن يقتلك ببندقية؟» .

- هذا صحيح حقاً يا صديقتي العزيزة . ولا أزال عاجزة عن العثور على كلمات مناسبة لرواية القصة» .

- «إن التشي الذي يحرسك يقظ جداً يا صديقتي . وكيف حال ابنتي ، إيزينما؟»

- «ظلت بصحة جيدة منذ فترة من الوقت . ربما أتت لتبقى» .

- «أعتقد ذلك . كم عمرها الآن؟»

- «حوالي عشر سنوات» .

«أعتقد أنها سوف تبقى . فهم عادة يبقون إذا لم يموتوا قبل السادسة» .
قالت إيكوفي وهي تنهد بعمق : «أدعو الآلهة أن تبقىها» .

كان اسم المرأة ، التي تكلمت ، تشيلو . وهي كاهنة أجبالا ، وحي التلال والكهوف . كانت تشيلو في حياتها العادية أرملة وأماً لطفلين . إنها صديقة عزيزة لإيكوفي وتشارك معاً في سقيفة واحدة في السوق . وهي مولعة بصفة خاصة بآبنة إيكوفي الوحيدة ، إيزينما ، التي تدعوها «بنيتي» . وكثيراً ما ابتاعت كعكاً وأعطته إلى إيكوفي لتقدمه إلى إيزينما في البيت . ومن يشاهد تشيلو في حياتها العادية لا يكاد يصدق أنها نفس الشخص الذي يلقي بنبأته حينما تتقمصها روح أجبالا .

عاد قارعو الطبول ورفعوا عصيهم ، فارتعش الجو وتوتر مثل قوس مشدود .

اصطف الفريقان يواجهان بعضهما بعضاً عبر الخلاء . تقدم أحد الشبان من أحد الفريقين ورقص في وسط الملعب ثم اتجه نحو الجانب الآخر وأشار إلى الذي يريد أن يصارعه . رقص الاثنان عائدين إلى الوسط معاً والتحما .

كان هناك اثنا عشر رجلاً في كل جانب ، فجري التحدي من جانب إلى آخر . تجول حكمان حول المتصارعين ، وحين رأيا أنهما متكافئان ، أوقفاهما . انتهت خمس مباريات على هذا النحو . لكن اللحظات المثيرة حقاً كانت حين يُطرح رجل أرضاً . فيرتفع صوت الجمهور الهائل ويشقّ عنان السماء منتشراً في جميع الاتجاهات . كان هذا الصوت يُسمع حتى في القرى المجاورة .

كانت المباراة الأخيرة بين قائدي الفريقين . وهما من أفضل المصارعين في جميع القرى التسع . وتساءل الجمهور من الذي سيطرح الثاني أرضاً هذه السنة . قال البعض إن أو كافو هو الأفضل ، وقال الآخرون إنه ليس ندأ لإيكيزوي . ففي السنة الماضية ، لم يتمكن أي منهما طرح الآخر أرضاً رغم أن الحكمين سمحا في استمرار المباراة لفترة أطول من العادة . كانا يستخدمان نفس الأسلوب ويرى الواحد منهما خطط الآخر سلفاً . وقد يتكرر هذا ثانية في هذه السنة .

أخذ الغسق يقترب حين بدأت مباراتهما . جنّ جنون الطبول وجنّ الجمهور معها . تدافع الناس إلى الأمام بينما رقص الشبان متجهين إلى داخل الدائرة . وعجزت سعف النخيل عن ردهم إلى الوراء .

مدّ إيكيزوي يده اليمنى . فقبض عليها أو كافو ، والتحما . كانت مباراة شرسة . حاول إيكيزوي جاهداً أن يغرس عقبه اليمنى خلف أو كافو كي يقذف به إلى الوراء وفقاً لطريقة إيجي الماهرة . لكن الواحد منهما كان يعرف ما يفكر فيه الآخر . أحاط الجمهور بقارعي الطبول وابتعلمهم ، ولم يعد إيقاعهم المسعور مجرد صوت محض بل خفّق قلب الناس بالذات .

سكن المتصارعان الآن تقريباً وكل منهما في قبضة الآخر . برزت العضلات في أذرعهما وأفخاذهما وظهريهما وارتعشت . بدا الأمر أنها مباراة متكافئة . وراح الحكمان يتقدمان إلى الأمام لكي يفصلا بينهما حين رجع إيكيزوي ، الذي سيطر عليه اليأس الآن ، بسرعة على إحدى ركبتيه في محاولة للإطاحة بخصمه إلى الخلف فوق رأسه . كانت تلك الحركة غلطة حساب محزنة . ففي مثل سرعة برق أماديورا ، رفع أو كافو ساقه اليمنى ومرّبها فوق رأس منافسه . انفجر الجمهور بهدير مرعد . ثم رفع

أنصار أو كافو بطلهم عن الأرض وحملوه على أكتافهم إلى البيت . غنّوا
تمجيداً له وصفقت الصبايا : «من سيصارع من أجل قرينتنا؟
أو كافو سيصارع من أجل قرينتنا .
هل طرح مائة رجل؟
طرح أربع مائة رجل .
هل طرح مائة هرّ؟
طرح أربع مائة هرّ .
أطلبوا منه إذن أن يقاتل من أجّلنا» .

فصل ٧

عاش إيكيميغونا في منزل أوكونكوو ثلاث سنوات ، وبدأ أن شيوخ أومووفيا نسوا كل شيء عنه . وقد كبر بسرعة مثل ساق يام خضراء في الموسم الماطر ، وامتلاً بنسغ الحياة . انغمس تماماً في عائلته الجديدة ؛ فكان مثل أخ أكبر لنووي ، حيث بدا منذ البداية كأنه أوقد ناراً جديدة في الصغير . فقد جعله يحس بأنه أصبح راشداً ، ولم يعودا بمضيان الأمسيات في كوخ الأم وهي تطبخ الطعام ، بل يجلسان مع أوكونكوو في أوبيه ، أو يراقبانه وهو يبزل النخلة من أجل نبيذ المساء . لم يعد أي شيء يبعث السرور في قلب نووي الآن أكثر من أن ترسل أمه أو زوجة أخرى من زوجات أبيه في طلبه كي يؤدي واحدة من تلك المهام الصعبة والذكورية في البيت ، مثل تكسير الحطب ، أو سحق الطعام . وحين يتلقى نووي دعوة كهذه عن طريق أخ أو أخت أصغر ، كان يتظاهر بالانزعاج ويتذمر بصوت مرتفع من النساء ومتاعبهن .

كان أوكونكوو مسروراً في أعماقه من التطور الذي طرأ على ابنه ، وعرف أن الفضل في هذا يعود إلى إيكيميغونا . فقد أراد لنووي أن يكبر

ويصبح شاباً صلباً قادراً على إدارة بيت أبيه بعد رحيله والتحاقه بالأجداد .
وأراد له أن يصبح رجلاً مزدهر الحال ، يملك في مخزنه ما يكفي ليغذي
الأجداد بالقرايين بانتظام . لذلك كان دائماً يحسّ بالسعادة عندما يسمع
ابنه يتذمر من النساء . فهذا يبين أنه سيكون قادراً على التحكم بنسائه في
الوقت المناسب . فمهما كان الرجل ناجحاً ، لن يكون رجلاً حقاً إذا عجز
عن التحكم في نسائه وأطفاله (وخصوصاً نسائه) . سيكون مثل الرجل في
الأغنية ، الرجل الذي كانت لديه عشر زوجات وزوجة واحدة وليس لديه
ما يكفي من الحساء لفو-فو-ه .

هكذا شجع أوكونكو والغلامين على الجلوس معه في أوبيه ، وروى
لهما حكايات الأرض - حكايات ذكورية حافلة بالعنف وسفك الدماء .
عرف نووي أن من الصواب أن يكون الإنسان ذكراً وأن يكون عنيفاً ، لكنه
ظلّ ، على نحو ما ، يفضل الحكايات التي اعتادت أمه أن تحكيها ، ولا
تزال بلا شك تحكيها لأطفالها الصغار - حكايات السلحفاة وطرقها
الماكرة ، والطائر إينيكي - نتي - أوبا الذي تحدى جميع العالم في مباراة
مصارعة ليطرحه الهراً أرضاً في النهاية . تذكر الحكاية التي رددتها أمه كثيراً
حول الشجار الناشب بين الأرض والسماء في الماضي السحيق ، وكيف
أن السماء حبست المطر سبع سنوات ، إلى أن ذبلت المحاصيل ولم يعد
بالإمكان دفن الموتى لأن المجارف كانت تتكسر على الأرض المتحجرة .
في النهاية ، أرسلت الأرض النسر ليتوسط لدى السماء ، ويرقق قلبها
بأغنية عن معاناة أبناء الرجال . كلما غنت أم نووي هذه الأغنية ، كان

يحسّ نفسه محمولاً إلى المشهد البعيد في السماء حيث غنى النسر ،
مبعوث الأرض ، طالباً الرحمة . أخيراً ، تحرك قلب السماء بالشفقة ،
وأعطت النسر المطر ملفوفاً بأوراق الكوكو - يام . لكن ، وفيما هو يطير
متجهاً نحو الوطن ، مزقت مخالفه الطويلة أوراق الشجر وهطل المطر كما
لم يهطل من قبل . هطل على النسر بغزارة إلى حد أنه لم يرجع لتسليم
الرسالة بل طار إلى أرض بعيدة لمح فيها ناراً . حين وصل إليها ، وجد أنها
نار رجل يقدم قرباناً . فتدفأ بلهبها وأكل أمعاء القربان .

ذلك هو نوع الحكايات الذي أحبه نووي . لكنه بات يعرف الآن أنها
حكايات للنساء والأطفال الحمقى ، ويعرف أن أباه يريد أن يكون رجلاً .
لذلك تظاهر بأنه لم يعد مهتماً بحكايات النساء . وحين أظهر ذلك ، رأى
أن أباه سُرّ ، ولم يعد يوبخه أو يضربه . هكذا راح نووي وإيكيمي فونا
يستمعان إلى حكايات أكونكوو عن حروب قبلية ، أو كيف أنه ، قبل
سنوات طويلة ، طارد ضحيته وقهرها وحصل على رأسه البشري الأول .
في أثناء حديثه عن الماضي ، كانوا يجلسون في العتمة أو في وهج
الحطب المعتم في انتظار انتهاء النساء من طبخهن . وحين ينتهين ، كانت
كل واحدة تحضر طاسة من الفو - فو وطاسة من الحساء إلى زوجها .
فيضاء مصباح زيت ، ويذوق أكونكوو الطعام من كل طاسة ، ثم يقدم
نصيباً منه إلى نووي وإيكيمي فونا .

على هذا النحو مرت الأعمار والمواسم . ثم أتى الجراد . وهو أمر لم
يحدث منذ سنين طويلة عديدة . قال الشيوخ إن الجراد يأتي مرة في كل

جيل ، ويظهر كل سنة لمدة سبعة أعوام ثم يختفي حتى جيل آخر . فيعود إلى كهوفه في أرض بعيدة ، حيث يحرسها جنس من رجال أقزام . وبعد مرور جيل يفتح أولئك الأقزام الكهوف مرة أخرى فيأتي الجراد إلى أوموفيا .

وقد أتى في موسم رياح الحرور/ الهارماتان القارسة بعد جمع المحاصيل ، وأكل العشب البري في الحقول .

كان أوكونكوو والصبيان يعملون في إصلاح أسوار المجمع الخارجية الحمراء . كان هذا أحد الأعمال السهلة التي يجري إنجازها بعد انتهاء موسم الحصاد . إذ كانت الجدران تغطي بطبقة سميكة جديدة من أغصان وأوراق النخيل من أجل وقايتها من فصل الأمطار القادم . عمل أوكونكوو في الجانب الخارجي من السور بينما عمل الأولاد في الجانب الداخلي منه . كانت هناك ثقب صغيرة تخترق الجدار من جانب إلى الجانب الآخر في مستوياته العليا ، فمرر أوكونكوو عبر هذه الثقوب حبلاً ، أو تاي - تاي ، إلى الصبيين فلقاه حول دعائم خشبية وأعاداه إليه . بهذه الطريقة نُبِتَ الغطاء على السور .

ذهبت النسوة إلى الغابة لجمع الحطب ، بينما ذهب الأطفال الصغار لزيارة أقرانهم في مجمعات الأكواخ المجاورة . لاحت رياح الهارماتان في الجو وقد بدا أنها تقطر شعور نوم مضرب على العالم . فراح أوكونكوو والصبيان يعملون في صمت مطبق ، صمت يتحطم حين ترفع سعة نخيل جديدة إلى السور أو حين تحرك دجاجة مشغولة أوراق شجر جافة

في الجوار في بحثها الدؤوب عن الطعام .

عندئذ ، وعلى نحو فجائي تماماً ، سقط ظل على العالم وبدأ أن الشمس اختفت خلف سحابة كثيفة . رفع أوكونكوو بصره متسائلاً عما إذا كانت ستمطر في مثل هذا الوقت من السنة . لكن وفي هذه اللحظة تقريباً ، انفجر ضجيج فرح من جميع الاتجاهات ، ودبت الحياة واشتعل النشاط في أوموفيا التي كانت غافية في وهج الظهر .

تردد النشيد مرحاً في كل مكان : «الجراد يهب» ، فترك الرجال والنساء والأطفال عملهم ولهوهم وتراكضوا إلى الخلاء ليشهدوا المنظر غير المألوف . فالجراد لم يأت منذ سنوات وسنوات ، والرجال المسنون فقط هم الذين رأوه من قبل .

في البداية ، أتى سرب صغير نسبياً . كان بمثابة الرسل المبعوثين لاستطلاع الأرض . ثم ظهرت في الأفق كتلة متحركة ببطء مثل صفحة سحابة لا حدود لها سوداء تنساب نحو أوموفيا . وسرعان ما غطت نصف السماء ، ورصعت الكتلة الصماء أعين نور دقيقة كغبار نجوم . كان مشهداً هائلاً ، مليئاً بالقوة والجمال .

انتشر الكل الآن ، وتحدثوا بانفعال ودعوا الآلهة أن يخيم الجراد في أوموفيا لقضاء الليل . ومع أن الجراد لم يزر أوموفيا منذ سنوات كثيرة ، عرف الكل بالغزيرة بأنه طعام شهوي جداً صالح للأكل . أخيراً ، نزل الجراد . حطّ على كل شجرة وعلى كل نصل عشبة ، واستقر على

السطوح وغطى الأرض الجرداء . انقصفت أغصان الأشجار القوية تحت ثقله ، واكتست البلد بأكملها لوناً بنياً ترابياً هو لون السرب الضخم الجائع .

خرج كثير من الناس حاملين سلالهم وحاولوا الإمساك بالجراد ، لكن الشيوخ نصحوهم أن يصبروا حتى حلول الليل . كانوا على حق . فقد استقر الجراد في الشجيرات لقضاء الليل وابتلت أجنحته بالندى . عندئذ خرجت أومووفيا عن بكرة أبيها على الرغم من رياح الحرور القارسة ، فملا الكل أكياسه وقدوره بالجراد . في الصباح التالي ، شوي الجراد في قدور صلصالية ثم نُثر في الشمس حتى أصبح جافاً وهشاً . وعلى مدى أيام عديدة ، أكل أهل القرية هذا الطعام النادر ممزوجاً بزيت النخيل .

جلس أوكونكوو في أوييه يمضغ الجراد بسعادة مع ايكيميوفونا ونووي ، ويشرب نبيذ النخيل بإفراط حين دخل عليه أوجبوفي إيزودو . كان إيزودو أكبر الرجال سناً في هذا الحي من أومووفيا . فقد كان في زمانه محارباً عظيماً جسوراً ، ولا يزال يتمتع حتى الآن باحترام شديد في العشيرة . رفض أن يشارك في وجبة الطعام ، وطلب من أوكونكوو أن يتبادل الحديث معه في الخارج . هكذا خرجا معاً ، والرجل العجوز يتكىء على عصاه . حين أصبحا خارج مدى السمع ، قال لأوكونكوو :

- «ذلك الغلام يدعوك أبي . لا تشارك في قتله» .

فوجيء أوكونكوو ، وهمّ بالكلام حين تابع الرجل العجوز :

- «نعم ، قررت أوموفيا قتله . أعلن ذلك وحي التلال والكهوف .
سيأخذونه إلى خارج أوموفيا كما جرت العادة ، وسيقتلونه هناك . لكنني
أريد ألا تكون لك يد في هذا . فهو يدعوك أباه» .

في الصباح الباكر من اليوم التالي ، حضرت إلى بيت أوكونكوو
مجموعة من شيوخ قرى أوموفيا التسع ، وقبل أن يبدأوا الحديث بصوت
خافت ، أرسل نوويي وإيكيميفونا إلى الخارج . لم يمكثوا طويلاً جداً ،
فبعد خروجهم ، جلس أوكونكوو لفترة طويلة جداً ساكناً مسنداً ذقنه إلى
كفيه . في وقت لاحق من النهار ، دعا إليه إيكيميفونا وأخبره بأنه سيؤخذ
إلى بيته الأصلي في اليوم التالي . سمع نوويي الحديث ، فانفجر باكياً ،
فضربه أبوه بسبب ذلك ضرباً مبرحاً . أما إيكيميفونا ، فقد أحسّ بالحيرة
الشديدة . إذ أصبح بيته الأصلي تدريجياً باهتاً وبعيداً جداً . لقد ظلّ يفتقد
أمه واخته ، وسيفرحه جداً أن يراها . لكنه عرف بطريقة ما أنه لن يراها .
وتذكر المرة التي تحدث فيها أشخاص بصوت خافت مع أبيه ، وبدا الآن
كأن هذا يحدث مرة أخرى معه .

فيما بعد ، ذهب نوويي إلى كوخ أمه وأخبرها بأن إيكيميفونا سيذهب
إلى بيته . أسقطت فوراً مدقة الهاون التي كانت تسحق بها الفلفل ، وطوت
ذراعيها على صدرها وتهدت : «الطفل المسكين» .

في اليوم التالي ، عاد الرجال ومعهم زق خمر . كانوا يرتدون لباسهم
الكامل كما لو كانوا ذاهبين إلى اجتماع عشيرة مهم أو لزيارة قرية مجاورة .
مرروا أقمشتهم من تحت إبطهم الأيمن ، وعلّقوا أكياسهم المصنوعة من

جلد الماعز و سيوف التحطيب المغمدة في قرايبها على الكتف الأيسر .
أعد أوكونكوو نفسه بسرعة وانطلق الجمع مع إيكيميفونا الذي حمل زق
الخمير . هبط صمت الموت على مجّمع أكواخ أوكونكوو . بدا حتى كأن
الأطفال الصغار يعرفون . جلس نويي ، غيلة ذلك اليوم في كوخ أمه
والدموع تترقق في مآقيه .

في بداية رحلتهم ، تحدّث رجال أومووفيا وضحكوا من الجراد ومن
نسائهم ومن بعض الرجال المخشّين الذين رفضوا القدوم معهم . لكنهم
حين اقتربوا من ضواحي أومووفيا ، هبط الصمت عليهم أيضاً .

ارتفعت الشمس ببطء إلى كبد السماء ، وبدأ الدرب الرملي الجاف
ينفث الحرارة المدفونة فيه . غردت بعض الطيور في الغابات المحيطة
بالمكان . داس الرجال على أوراق الشجر الجافة الساقطة على الرمل .
لكن كل شيء آخر كان صامتاً . ثم ترامى من بعيد قرع إيكوي خافت .
فعلا وخفت مع الريح - رقصة وادعة تنبعث من عشيرة بعيدة .

قال الرجال فيما بينهم : «رقصة أوزو» . لكن أحداً لم يكن متأكداً من
أين كانت تأتي . قال البعض إنها من إيزيميلي ، وقال آخرون إنها من آبامي
أو أنيتا . وتجادلوا لفترة قصيرة من الوقت وعادوا إلى الصمت ثانية ،
وعلت الرقصة المراوغة وانخفضت مع الريح . كان رجل في مكان بعيد
يتقلّد لقباً من ألقاب عشيرته مع الموسيقى والرقص ووليمة كبيرة .

ضاق الدرب الآن حتى أصبح خطأً دقيقاً في قلب الغابة . بدأت تحلّ

محل الأشجار القصيرة والنباتات القليلة المتفرقة المحيطة بقرية الرجال
الأشجار العملاقة والنباتات الكثيفة المعرّشة الموجودة هناك ربما منذ بدء
الخلقة ، دون أن يمسسها الفأس ولا النار . رسمت الشمس النافذة من
خلال أوراقها وأغصانها أشكالا من الضوء والظل على الدرب الرملي .

سمع إيكيميونا همساً خلفه واستدار بحدة . صاح الرجل الذي همس
وحدث الآخرين على الإسراع .

قال : « لا يزال أمامنا طريق طويل » . ثم تقدّم هو ورجل آخر إيكيميونا
وحثّا الخطى .

هكذا تابع رجال أومووفيا طريقهم ، مسلّحين بسيوفهم المغمدة ،
وسار إيكيميونا وسطهم ، حاملاً زق نبيذ النخيل على رأسه . مع أنه كان
قلقاً في البداية ، إلا أنه لم يعد الآن خائفاً . فقد سار أوكونكوو خلفه . فهو
لا يكاد يتخيل أن أوكونكوو ليس أباه الحقيقي . فلم يولع أبداً بأبيه
الحقيقي ، وعند نهاية ثلاث سنوات ، أصبح أبوه ذلك نائياً جداً عنه حقاً .
لكن أمه وأخته البالغة من العمر ثلاث سنوات . . . بالطبع لن يكون عمرها
الآن ثلاث سنوات ، بل ستاً . هل سيعرفها الآن؟ لا بد أنها كبرت تماماً .
كم ستبكي أمه من الفرح ، وتشكر أوكونكوو لأنه اعتنى به جيداً على هذا
النحو وأعادها إليها . سترغب في الاستماع إلى كل ما جرى له خلال هذه
السنين . هل سيتذكر كل ما جرى؟ سيحدثها عن نووبي وأمّه ، وعن
الجراد . . . فجأة ، خطرت بباله فكرة . قد تكون أمه ماتت . وحاول عبثاً
إيعاد الفكرة عن ذهنه . ثم حاول تسوية الأمر بنفس الطريقة التي اعتاد أن

يسويّ بها المسائل المشابهة عندما كان صبيّاً صغيراً . كان ما يزال يتذكر
الأغنية :

إيزي إلينا ، إلينا !

سالا

إيزي ايليکوا يا

ايکوا يا أكوا أوليجولي

إيبي داندا نيتشي إيزي

إيبي أوزوزو نيتي إيجوو

سالا

غناها في ذهنه ، ومشى على خفق إيقاعها . إذا انتهت الأغنية مع قدمه
اليمنى ، فأمه على قيد الحياة . وإذا انتهت مع اليسرى ، فهي ميتة . لا ،
ليست ميتة ، بل مريضة . وانتهت الأغنية مع قدمه اليمنى . إنها حيّة
وبخير . وغنى الأغنية مرة أخرى ، فانتهدت مع اليسرى . لكن المرة الثانية لا
تحسب . الصوت الأول يصل إلى تشوكوو ، أو إله البيت . ذلك قول أثير
يردده الأطفال . أحسن إيكيمي فونا نفسه طفلاً مرة أخرى . لا بد أن تفكيره
بعودته إلى البيت ، إلى أمه ، هو ما جعله يحسن بهذا .

سلّك أحد الرجال الذين يسرون خلف إيكيمي فونا حلقة . التفت
إيكيمي فونا إلى الورا ، فزمجر الرجل أمراً إياه بالمضي قدماً وعدم التوقف

والالتفات . بعثت لهجته قشعريرة خوف باردة في ظهر إيكيميغونا .
فارتجفت يده بغموض على الزق الأسود الذي يحمله . لماذا انسحب
أوكونكوو إلى المؤخرة؟ أحس إيكيميغونا بساقيه تذويان تحته . خاف أن
يلتفت إلى الخلف .

حين سحب الرجل الذي سلّك حلقه سيفه ورفع ، أشاح أوكونكوو
بنظره . سمع الضربة . وقع الزق وانكسر على الرمل . سمع إيكيميغونا
يصرخ : «أبي ، قتلوني!» ركض نحوه . سحب أوكونكوو سيفه ، وقد
أذهله الخوف ، وجندله . خاف أن يفكروا بأنه ضعيف .

حالما دخل أبوه إلى البيت في تلك الليلة ، أدرك نووي أن إيكيميغونا
قتل ، فشعر بأن شيئاً انهار في داخله ، كانقطاع وتر قوس مشدود . لم
يبك . تكوّم فقط رخيّ الجسم . أحس بنفس الشعور الذي أحسّ به منذ
فترة ليست بعيدة ، أثناء موسم الحصاد الماضي . كل الأطفال يحبون
موسم الحصاد . حين يذهب أولئك القادرون على حمل حتى بضع حبات
يام في سلة ضئيلة الحجم إلى الحقول مع الكبار . وإذا لم يساعدوا في
استخراج اليام من الأرض ، فإنهم يجمعون الحطب لشوي اليام الذي
سيؤكل في الحقول . وهذا اليام المشويّ المنقوع بزيت النخيل الأحمر
والمأكول في المزرعة في الهواء الطلق يكون أشهى من أي وجبة في
البيت . ففي يوم كهذا قضاه نووي في المزرعة خلال الحصاد الأخير ،
أحس لأول مرة بانخطاف في داخله شبيه بما يحسّه الآن . كانوا عائدين
إلى البيت مع سلال اليام من مزرعة بعيدة عبر الجدول عندما سمعوا

صوت طفل رضيع يبكي في الغابة الكثيفة . خيم صمت مفاجيء على النسوة اللواتي كن يتبادلن الحديث وأسرعن الخطى . كان نووي قد سمع أن التوأمين يوضعان في أوعية فخارية ويطرحان في الغابة ، لكنه لم يصادف أن مرّ بأي توأمين أبداً . فسرت في جسده قشعريرة غامضة وأحسّ برأسه ينتفخ ، كسائر متوحد في الليل يمر بروح شريرة . انهار شيء في داخله . وهبط عليه هذا الإحساس مرة أخرى حينما خطا أبوه إلى داخل البيت في تلك الليلة بعد قتل إيكيميونا .

فصل ٨

لم يذق أوكونكوو طعاماً مدة يومين بعد موت إيكيميغونا . راح يشرب نبيذ النخيل من الصباح إلى الليل ، فأحمرت عيناه وعنفتا مثل عينيّ جردز أمسك به من ذيله وقذف به بعنف إلى الأرض . دعا ابنه نوويي إلى الجلوس معه في أوييه . لكن الصبيّ كان خائفاً منه ، فانسل خارجاً من الكوخ حالما لاحظ أن الكرى بدأ يداعب جفنيه .

لم ينم في الليل . حاول ألا يفكر بإيكيميغونا ، لكنه كلما حاول أكثر ، كلما فكّر فيه أكثر . نهض ذات مرة من سريره وطاف حول مجمّع الأكواخ . لكنه كان ضعيفاً إلى حد أن ساقيه كادت ألا تحملاه . وأحسّ كأنه عملاق ثمل يسير بساقيّ بعوضة . وسرت بين حين وآخر رعشة انتقلت من رأسه إلى جميع أنحاء جسمه .

في اليوم الثالث ، طلب من زوجته الثانية ، إيكويغي ، أن تشوي له موز الجنة . فهياتة بالطريقة التي يحبها - مع شرائح من الفول والسمك .

قالت ابنته إيزيما حينما أحضرت الطعام له : «أنت لم تأكل منذ يومين . لذلك يجب أن تنهي هذا» . جلست ومدّت ساقها أمامها . أكل أوكونكوو الطعام وهو شارد الذهن . فكّر وهو ينظر إلى ابنته البالغة عشر سنوات :

«كان يجب أن تكون ولدًا». ناولها قطعة من السمك .

قال : «إذهبي واحضري بعض الماء البارد» . اندفعت إيزينما إلى خارج الكوخ ، وهي تمضغ السمك ، وعادت بسرعة حاملة طاسة من الماء البارد من جرة الفخار في كوخ أمها .

تناول أوكونكوو الطاسة منها وجرع الماء دفعة واحدة . أكل بضع قطع أخرى من الموز وأزاح الطبق جانباً .

قال : «أحضري لي كيسي» ، فأحضرت إيزينما له كيس جلد الماعز من طرف الكوخ البعيد . بحث فيه عن قنينة السعوط . كان كيساً طويلاً ، فغاب فيه كل ذراعه تقريباً . احتوى الكيس على أشياء أخرى إلى جانب قنينة السعوط . كان فيه قرن الشرب ، وقرعة شرب أيضاً فاصطدم الوعاءان أحدهما بالآخر وهو يبحث . حين أخرج قنينة السعوط ، ضرب بها بخفة على رضفة ركبته عدة مرات قبل أن يرش مقداراً من السعوط على راحة يده اليسرى . ثم تذكر أنه لم يخرج ملعقة السعوط . بحث في الكيس مرة أخرى وأخرج ملعقة مسطحة عاجية صغيرة ، حمل بها السعوط البني إلى منخريه .

حملت إيزينما الطبق في إحدى يديها وطاسة الماء الفارغة في الأخرى وعادت إلى كوخ أمها . قال أوكونكوو لنفسه مرة أخرى : «كان يجب أن تكون ولدًا» . عاد ذهنه إلى إيكيمي فونا وارتعد . لو أنه فقط يجد عملاً يقوم به لاستطاع أن ينسى . لكنه كان موسم الراحة الواقع بين الحصاد وموسم الزرع التالي . والعمل الوحيد الذي يقوم به الرجال في هذا الوقت هو تغطية جدران مجمّع أكواخهم بسعف نخيل جديد . وقد قام أوكونكوو

بذلك . وأنهى العمل في نفس اليوم الذي غزا فيه الجراد القرية ، حين عمل هو في جانب منه وعمل إيكيميغونا ونووي في الجانب الآخر .

سأل أوكونكوو نفسه : «متى أصبحت امرأة عجوزاً مرتعدة ، أنت المعروف في كل القرى التسع ببسالتك في الحرب؟ كيف يمكن لرجل قتل خمسة رجال في معركة أن يتمزق إرباً لأنه أضاف صبيّاً إلى عددهم؟ أوكونكوو ، لقد أصبحت امرأة حقاً» .

هبّ واقفاً على قدميه ، وعلّق كيس جلد الماعز على كتفه وذهب لزيارة صديقه أوبيركا .

كان أوبيركا يجلس في الخارج في ظلّ شجرة برتقال ويصنع غطاء سقف من أوراق نخل الرافية . فتبادل التحيات مع أوكونكوو وقاده إلى داخل أوبيه .

قال وهو يفرك ويزيل ذرات الرمل الملتصقة بفخذه : «كنتُ أتياً لزيارتك فور انتهائي من ذلك الغطاء» .

سأل أوكونكوو : «عسى الأمر خيراً؟»

أجاب أوبيركا : «نعم» . طالب يد ابنتي سيأتي اليوم وآمل أن نحسم أمر مهر العروس . «أريدك أن تكون موجوداً» .

في تلك اللحظة تماماً ، دخل ابن أوبيركا ، مادوكا ، إلى الأوبيّ قادماً من الخارج ، وحيّاً أوكونكوو ثم استدار نحو مجمع الأكواخ .

قال أوكونكوو للغلام : «تعال وصافحني . أدخلت مصارعتك في ذلك

اليوم الكثير من السعادة إلى قلبي». ابتسم الغلام ، وصافح أوكونكوو ودخل مجمّع الأكواخ .

قال أوكونكوو :«سيقوم بأعمال عظيمة . لو كان لي ولد مثله ، لكنت سعيداً . إنني قلق على نووي . إن طاسة من اليام المسحوق تطرحه أرضاً في مباراة مصارعة . أخواه الصغيران أفضل منه . لكنني أقول لك يا أوبيرىكا ، إن أولادي لا يشبهونني حقاً . أين الجذيرات الفتية التي ستتمو عندما تموت شجرة الموز العتيقة؟ لو كانت إيزينما ولداً ، لكنت سعيداً . فهي تتحلى بالروح الصحيحة» .

قال أوبيرىكا :«أنت تقلق نفسك بلا سبب . الأطفال لا يزالون صغاراً جداً» .

-«كبر نووي إلى حد يمكنه فيه أن يُحبّل امرأة . عندما كنت في سنه كنت مسؤولاً عن نفسي . لا يا صديقي ، إنه ليس صغيراً جداً . فالكثكوت الذي سيصبح ديكاً يمكن تمييزه في نفس اليوم الذي تفقس عنه البيضة . لقد بذلت جهدي لأجعله ينشأ كرجل ، لكن فيه شيئاً كثيراً جداً من أمه» .

فكر أوبيرىكا :«شيء كثير جداً من جده» ، لكنه لم يقل هذا . خطر نفس الخاطر ببال أوكونكوو ، لكنه تعلّم منذ فترة طويلة كيف ينبذ ذلك الشبح . فكلما ضايقته فكرة ضعف وفشل أبيه كان يطردها بالتفكير في قوّته ونجاحه . وهذا ما فعله الآن . فقد اتجه ذهنه إلى آخر عرض لرجولته .

سأل أوبيرىكا :«لا أستطيع أن أفهم لماذا رفضت القدوم معنا لقتل ذلك الولد» .

أجاب أوبيريكا بحدّة: «لأنني لم أرد ذلك . كان لدي عمل أفضل لأقوم به» .

-«يبدو من صوتك كأنك تعترض على سلطة وقرار الوحي الذي قال إنه يجب أن يموت» .

-«أنا لا أعارض . لماذا أفعل هذا؟ الوحي لم يطلب مني أن أنفذ قراره» .

-«لكن واحداً كان لابد أن ينفذه . لو خفنا كلنا من الدم ، لما نُفِّدَ . ماذا تظن بأن الوحي سيفعل حينئذ؟»

-«أنت تعرف جيداً جداً يا أوكونكوو أنني لا أخاف من الدم . إذا قال لك أحد إنني أخاف ، فهو يكذب . دعني أقول لك شيئاً واحداً يا صديقي . لو كنت مكانك لبقيت في البيت . إن ما فعلته لن يسر الأرض . إنه من نوع الأفعال التي تمحوربة الأرض بسببه عائلات بأكملها» .

قال أوكونكوو :«الأرض لا تستطيع أن تعاقبني لإطاعتي رسولها . فأصابع طفل لا تتسلخ من قطعة يام ساخنة تضعها أمه في كفه» .

وافق أوبيريكا :«هذا صحيح . لكن الوحي إذا قال إن ابني يجب أن يُقتل ، فلن أعارض على هذا ، كما لن أكون الشخص الذي ينفذه» .

كان يمكن أن يستمر في النقاش لولا دخول أوفويدو في تلك اللحظة . كان واضحاً من عينيه المتألفتين بأنه يحمل أنباءً مهمّة . لكن من سوء الأدب استعجاله . فقدم إليه أوبيريكا فلقة من جوزة الكولا التي كسرها مع أوكونكوو . أكلها أوفويدو ببطء وتحدّث عن الجراد . حين انتهى من تناول جوز الكولا قال :«الأمور التي تحدث هذه الأيام غريبة جداً» .

سأل أوكونكوو: «ماذا حدث؟»

سأل أوفويدو: «هل تعرف أوجبوفي ندولوي؟»

قال أوكونكوو وأوبيركا معاً: «أوجبوفي ندولوي من قرية إيرى» .

قال أوفويدو: «مات هذا الصباح» .

قال أوبيركا: «هذا ليس غريباً . فقد كان أكبر الشيوخ سنّاً في إيرى» .

وافق أوفويدو: «أنت على حق . لكنك كان يجب أن تسأل لماذا لم يقرع الطبل لإخطار أوموفيا بوفاته» .

سأل أوبيركا وأوكونكوو معاً: «لماذا؟» .

-«ذلك هو الغريب في الأمر . هل تعرف زوجته الأولى التي تتوكأ على عصا؟»

-«نعم . اسمها أوزويمينا» .

قال أوفويدو: «نعم . كانت أوزويمينا ، كما تعرفان ، أعجز من أن تعتني بـندولوي أثناء مرضه . ففعلت ذلك زوجاته الأصغر سنّاً . وحينما توفي هذا الصباح ، ذهبت إحدى هذه الزوجات إلى كوخ أوزويمينا وأخبرتها . فنهضت عن حصيرتها ، وحملت عصاها وسارت نحو الأوبي . انحنت على ركبتها وكفيها عند العتبة ونادت على زوجها الذي كان قد مُدّد على حصيرة . نادت عليه ثلاث مرات : «أوجبوفي ندولوي» ، ثم عادت إلى كوخها . حين دخلت عليها الزوجة الصغرى مرة أخرى لتدعوها كي تحضر غسل الجثمان ، وجدتْها ممددة على الحصيرة ميتة» .

قال أوكونكوو :«ذلك غريب جداً حقاً . سيؤجلون جنازة ندولوي إلى أن تدفن زوجته» .

-«ذلك هو السبب في عدم قرع الطبل لإخطار أوموفيا» .

قال أوبيركا : «قيل دائماً إن لندولوي وأوزويمينا عقل واحد . وأذكر أنني عندما كنت صبيّاً صغيراً ، كانت تتردد أغنية عنهما . إنه لم يكن يستطيع فعل شيء دون أن يعلمها به» .

قال أوكونكوو : «لم أكن أعرف ذلك . لقد اعتقدت أنه كان قوياً في شبابه» .

قال أوفويدو : «كان كذلك فعلاً» .

هزّ أوكونكوو رأسه بشك .

قال أوبيركا : «لقد قاد أوموفيا إلى الحرب في تلك الأيام» .

بدأ أوكونكوو يحسّ بأنه يعود إلى طبيعته السابقة . فكل ما كان يلزمه هو شيء يشغل ذهنه . لو أنه قتل إيكيميفونا أثناء موسم الزرع أو الحصاد الحافل بالعمل ، لما كان الأمر سيئاً إلى هذا الحد ، لكن عقله تركّز على عمله . فلم يكن أوكونكوو رجل فكر بل رجل عمل . لكن ، في غياب العمل ، يحتل الكلام المرتبة الثانية بالأفضلية .

حالما غادر أوفويدو ، تناول أوكونكوو كيسه فوراً وهمّ بالخروج .

قال : «يجب أن أعود إلى البيت لأبزل نخلاتي في فترة بعد الظهر» .

سأل أوبيركا : «من يبزل نخلاتك العالية لك ؟» .

أجاب أوكونكوو : «أوميزوليكي» .

قال أوبيريكا : «أتمنى أحياناً لو أنني لم أقبل لقب أوزو . فمما يدمي قلبي أن أرى هؤلاء الشباب وهم يقتلون النخيل بحجة بزله» .

وافق أوكونكوو : «هذا ما يحدث فعلاً . لكن قانون البلد يجب أن يُطاع» .

قال أوبيريكا : «لا أدري من أين أتينا بذلك القانون . ففي عشائر كثيرة أخرى ، ليس محظوراً على حامل لقب أن يتسلق النخلة . هنا نقول إنه لا يستطيع تسلق الشجرة العالية ، لكنه يستطيع بزل الأشجار القصيرة وهو واقف على الأرض . إن مثل هذا كمثل ديماراجانا الذي رفض تقديم سكينه لتقطيع لحم الكلب لأن الكلب تابو بالنسبة إليه ، لكنه عرض أن يستعمل أسنانه» .

قال أوكونكوو : «يحسن أن تحافظ عشيرتنا على سمو مكانة لقب أوزو . فلقب أوزو في تلك العشائر الأخرى التي تتحدث عنها لقب حقير الشأن إلى درجة أن كل شحاذ يمكنه أن يناله» .

قال أوبيريكا : «كنت أمزح فقط . ففي قريتي آبامي وأينتنا يساوي اللقب أقل من ودعتين . وكل رجل هناك يضع خيط اللقب على كاحله ، ولا يفقده حتى لو أقدم على جريمة سرقة» .

قال أوكونكوو : «لقد لطخوا كلمة أوزو حقاً» .

قال أوبيريكا : «لن يمر وقت طويل قبل أن يأتي أصهاري» .

قال أوكونكوو وهو ينظر إلى موقع الشمس : «سأعود بسرعة» .

كان هناك سبعة أشخاص في كوخ أوبيريكا عندما عاد أوكونكوو .
وكان طالب يد الابنة شاباً في حوالي الخامسة والعشرين من عمره ، ومعه
أبوه وعمه . كان هناك من جهة أوبيريكا أخواه الكبيران ومادوكا ، ابنه البالغ
سنة عشر عاماً .

قال أوبيريكا لابنه : «أطلب من أم أكويكي أن ترسل لنا بعض جوز
الكولا» . اختفى مادوكا في مجمّع الأكواخ كالبرق . وتركز الحديث فوراً
حولهُ ، فاتفق الجميع على أنه حاد كموسى .

قال أوبيريكا بتسامح : «أفكر أحياناً بأنه حادّ أكثر من اللازم . إنه لا يكاد
يمشي . وهو دائماً في عجلة من أمره . إذا أرسلته في مهمة ، يطير خارجاً
قبل أن يسمع نصف الرسالة» .

قال أخوه الأكبر : «لقد كنت أنتَ نفسك كذلك تماماً . وكما يقول
قومنا : «عندما تمضغ البقرة الأم العشب ، تراقب العجول الصغيرة فمها» .
لقد ظل مادوكا يراقب فمك» .

بينما كان يتكلم ، عاد الفتى ، تتبعه أكويكي ، أخته من أبيه ، حاملّة
طبقاً خشبياً فيه ثلاث جوزات كولا وفلفل تمساح . أعطت الطبق لشقيق
أبيها الأكبر ثم صافحت ، بخجل شديد ، طالب يدها وأهله . كانت في
حوالي السادسة عشر وقد نضجت تماماً للزواج . ففحص طالب يدها
وأهله جسدها الشاب بأعين خبيرة كأنهم يطمئنون أنفسهم بأنها جميلة
وناضجة .

ضُمّ شعرها في منتصف رأسها بتسريحة عُرف فرس . فُرك جسمها
برقّة بخشب الكام ، ورُسّمت على جميع أجزاء جسدها أشكال سوداء

بالأولي . وأحاطت جيدها بعقد أسود تدلى على شكل ثلاث لفات فوق نهديها الممتلئين الريّانين تماماً . على ذراعيها لبست أساور حمراء وصفراء ، وطوقت خصرها بأربعة أو خمسة صفوف من الجيجيدا ، أو خرز الخصر .

بعدها صافحت الضيوف ، أو بالأحرى مدّت يدها حتى يصافحوها ، عادت إلى كوخ أمها لتساعد في الطبخ .

حذرتها أمها عندما اقتربت من الموقد لتحضر يد الهاون الموضوعة على الجدار : «إخلعي الجيجيدا أولاً . وأنا أقول لك كل يوم بأن الجيجيدا والنار ليسا صديقين . لكنك لا تسمعين أبداً . أنت تكبرين أذنيك للزينة ، لا للسمع . في أحد هذه الأيام ستشبّ النار في أطواق الجيجيدا وتشعل خصرك ، عندئذ ستتعلمين» .

ابتعدت أكويكي إلى الطرف الآخر من الكوخ وبدأت تخلع خرز الخصر . كان لا بد أن تنجز هذا ببطء وحرص ، بخلع كل خيط لوحده ، وإلا انقطع واضطرت إلى نظم الحلقات الدقيقة الألف مرة أخرى . فركت كل خيط بكفيها نحو الأسفل إلى أن تجاوز رديفها وانزلق إلى الأرض حول قدميها .

بدأ الرجال في الأوبي بشرب نبيذ النخيل الذي أحضره طالب يد أكويكي معه . كان نبيذاً جيداً جداً وقوياً ، فرغم أن الثمرة الموضوعة في فم الزق لحجز السائل الفوّار ، فار الزبد الأبيض واندلق .

قال أوكونكوو : «هذا النبيذ من صنع خمّار جيد» .

ابتسم طالب يد الفتاة الشابة ، الذي كان اسمه إيبي ، ابتسامة عريضة

وقال لأبيه : «هل تسمع ذلك؟» ثم قال للآخرين : «إنه لن يعترف أبداً بأنني حاذق في بزل النخيل» .

قال أبوه أوكيجبو : «لقد بزل ثلاثاً من أفضل نخلاتي حتى ماتت» .

قال إيبى الذي بدأ يصبّ النبيذ : «حدث ذلك قبل حوالي خمس سنوات ، قبل أن أتعلّم البزل» . ملأ القرن الأول وناول له لأبيه . ثم صبّ للآخرين . أخرج أوكونكوو قرنه الكبير من كيس جلد الماعز ، ونفخ فيه ليزيل أي غبار قد يكون هناك ، وناول له لأبى كي يملأه .

فيما كان الرجال يشربون ، تحدثوا حول كل شيء ما عدا الأمر الذي اجتمعوا من أجله . بعدما فرغ الزق فقط ، سلّك أبو الشاب حلقه وأعلن الغرض من زيارتهم .

عندئذ ، قدّم له أويبريكا حزمة صغيرة من عصي المكانس . فعدها أوكيجبو .

سأل : «إنها ثلاثون؟»

أوماً أويبريكا برأسه موافقاً .

قال أوكيجبو : «أخيراً توصلنا إلى نتيجة» ، ثم التفت إلى أخيه وابنه وقال : «لنخرج كي نتهامس سوياً» . نهض الثلاثة ومضوا إلى الخارج . حين رجعوا ، أعاد أوكيجبو حزمة العصي إلى أويبريكا . فعدها ، وبدلاً من الثلاثين ، كانت هناك خمس عشرة . ناولها إلى أخيه الأكبر ماتشي ، الذي عدّها بدوره وقال : «لم نفكر بأقل من ثلاثين . لكن ، كما قال الكلب : «إذا تنازلت لك وتنازلت لي ، فهذا لعب» . والزواج يجب أن يكون لعباً

وليس عراقاً . لذا فإننا نتنازل ثانية» . ثم أضاف عشر عصي إلى الخمس عشرة وأعطى الحزمة إلى أوكيجبو .

وبهذه الوسيلة ، تحدّد مهر أكويكي أخيراً بعشرين كيس من الودّع . وكان الغسق قد هلّ حين توصل الفريقان إلى هذا الاتفاق .

قال أوبيريكا لابنه مادوكا : «إذهب واخبر أم أكويكي بأننا انتهينا» . على الفور تقريباً ، دخلت المرأة تحمل طاسة كبيرة من الفو - فو . تبعتها زوجة أوبيريكا الثانية حاملة وعاء من الحساء ، وأحضر مادوكا زقاً من نبيذ النخيل .

فيما راح الرجال يأكلون ويشربون ، تحدثوا عن عادات جيرانهم . قال أوبيريكا : «في هذا الصباح بالذات ، كنت أنا وأكونكوو نتحدث عن أبامي وأنيّتا ، حيث يتسلق حاملو الألقاب الشجر ويسحقون الفو - فو لزوجاتهم» .

- «إن جميع عاداتهم مقلوبة رأساً على عقب . وهم لا يحدّدون مهر العروس كما نفعل نحن ، بالعصي . إنهم يساومون ويماحكون كما لو أنهم يشترون عنزة أو بقرة في السوق» .

قال أخو أوبيريكا الأكبر : «ذلك سيء جداً» . لكن ، ما هو حسن في مكان هو سيء في مكان آخر . ففي أومونسو لا يساومون على الإطلاق ، ولا حتى بعصي المكانس . إن طالب يد الفتاة يستمر في إحضار أكياس الودّع إلى أن يطلب منه أهلها التوقف . هذه عادة سيئة لأنها تؤدي دائماً إلى الخصام» .

قال أوكونكوو : «العالم واسع . وقد سمعت حتى أن أطفال الرجل ينسبون في بعض القبائل إلى الزوجة وعائلتها» .

قال ماتشي : «ذلك لا يمكن أن يكون . وبوسعك أيضاً أن تقول إن المرأة تستلقي فوق الرجل عندما ينجبان الأطفال» .

قال أويريكا : «إنها كقصة الرجال البيض الذين يشبهون ، كما يقال ، قطعة الطباشير هذه» . ورفع بيده قطعة الطباشير التي يحتفظ بها كل رجل في أوبيه كي يرسم الضيوف بها خطوطاً على الأرض قبل أن يأكلوا جوز الكولا . «ويقال أيضاً أن ليس لهؤلاء الرجال البيض أصابع في أقدامهم» .

سأل ماتشي : «ألم ترهم أبداً؟»

سأل أويريكا : «هل رأيتهم أنت؟»

قال ماتشي : «أحدهم يمر من هنا باستمرار . اسمه أمادي» .

ضحك أولئك الذين يعرفون أمادي . كان مجذوماً ، كان الاسم المهذب للجذام هو : «الجلد الأبيض» .

فصل ٩

لأول مرة منذ ثلاث ليال نام أوكونكوو . استفاق مرة في منتصف الليل وعاد ذهنه إلى الأيام الثلاثة الماضية دون أن يحسّ بأنها تقلقه . بدأ يسائل نفسه لماذا أحسّ بالقلق أصلاً . كان إحساسه مثل رجل يتساءل في ضوء النهار لماذا بدا له الحلم مخيفاً على هذا النحو في الليل . مدّ جسمه وحكّ فخذه حيث قرصته بعوضة وهو نائم . أزت بعوضة أخرى قرب أذنه اليمنى . لطم أذنه وأمل أن يكون قتلها . لماذا يتجه البعوض دائماً نحو أذن الإنسان؟ حين كان طفلاً صغيراً روت له أمه حكاية عن هذا . لكنها كانت سخيفة مثل جميع حكايات النساء . روت أن ذكرّ بعوض طلب من الأذن أن تتزوجه ، فاستلقت الأذن على قفاها من شدة الضحك . وسألت الأذن : «كم ستعيش في اعتقادك؟ أنت منذ الآن هيكل عظمي» . انصرف ذكر البعوض ذليلاً ، وظل في كل مرة يمرّ بالأذن يخبرها بأنه ما زال على قيد الحياة .

انقلب أوكونكوو على جنبه وعاد إلى النوم . في الصباح ، أيقظه طارق على بابهِ .

زمجر : «مَنْ هنا؟» . عرف أنها لابد أن تكون إيكوفي . فيإيكوفي

الوحيدة من بين زوجاته الثلاث التي تجرؤ على قرع بابه .

أتى صوتها : «إيزينما تموت» ، وتجمعت في هاتين الكلمتين كل مأساة وأسى حياتها .

قفز أوكونكوو من سريره ، أزاح مزلاج بابه واندفع راكضاً نحو كوخ إيكوفيني .

كانت إيزينما تتمدد مرتعشة على حصيرة إلى جانب نار قوية أبقتها أمها مشتعلة طوال الليل .

قال أوكونكوو : «إنها إيبا» ، وتناول سيف التحطيب ومضس إلى الغابة لجمع أوراق الشجر والأعشاب ولحاء الشجر المستخدمة في صنع دواء الإيبا .

ركعت إيكوفيني إلى جانب الطفلة المريضة ، وراحت تتحسس بكفها ، بين حين وآخر ، جبينها المبلل المحترق .

كانت إيزينما طفلتها الوحيدة ومحور عالمها . فقد كانت في كثير من الأحيان هي التي تقرر أي طعام ينبغي أن تطبخ أمها . كانت أمها تقدم إليها أطعمة مترفة كالبيض ، الذي يُسمح للأطفال بأكله نادراً ، لأن طعاماً كهذا يغريهم بالسرقة . وحدث مرة ، بينما كانت إيزينما تأكل بيضة ، أن دخل أوكونكوو قادماً من كوخه دون أن يتوقع قدومه . صدم صدمة عظيمة وأقسم أن يضرب إيكوفيني إذا تجرأت وأعطت الطفلة بيضاً مرة أخرى . لكن من المستحيل رفض أي طلب لإيزينما . فبعد توبيخ أبيها ، ازدادت شهية الطفلة للبيض . واستمتعت ، فوق كل شيء آخر ، بالسرية التي تأكل بها الآن البيض . فأمها تدخلها دائماً إلى غرفة نومهما وتغلق الباب خلفها .

لا تدعو إيزينما أمها نني ، ككل الأطفال . بل تدعوها باسمها المجرد ،
إيكوفي ، مثلما يفعل أبوها والكبار الآخرون . فالعلاقة بينهما لم تكن
مجرد علاقة بين أم وطفلتها . بل فيها شيء شبيه بالرفقة بين ندين ، زادتها
متانة مؤامرات صغيرة مثل أكل البيض في غرفة النوم .

قاست إيكوفي كثيراً في حياتها . فقد أنجبت عشرة أطفال مات منهم
تسعة في طفولتهم ، قبل سن الثالثة عادة . وبعد أن دفنت طفلاً تلو الآخر ،
أخلى الحزن مكانه لليأس ثم للاستسلام القاتم . أصبح إنجاب الأطفال ،
الذي لابد أن يشكّل مجد المرأة المتوّج بالنسبة لإيكوفي ، مجرد عذاب
جسديّ خال من الرجاء . وأصبح الاحتفال بتسمية الطفل ، بعد سبعة
أسابيع سوق من مولده ، مجرد طقس فارغ . وعبر يأسها المتعاضم عن
نفسه في الأسماء التي أطلقتها على أطفالها . فكان أحدها صرخة مفعمة
بالعاطفة ، أونوومبيكو - «أيها الموت ، أتوسل إليك» . لكن الموت لم يلق
بالاً . ومات أونوومبيكو في شهره الخامس عشر . وكان الطفل التالي فتاة ،
أوزويميننا - «أرجو ألا يتكرر هذا» . ماتت في شهرها الحادي عشر ، ومات
بعدها طفلان آخران . عندئذ ، غلب إيكوفي الاحساس بالتحدي ،
ودعت طفلها التالي أونووما - «فليفل الموت ما يشاء» . ومات الطفل .

في أعقاب موت طفل إيكوفي الثاني ، ذهب أكونكوو إلى رجل
طب ، كان في الوقت نفسه عرّاف وحي آفا ، ليستفسر عن الخلل . أخبره
هذا الرجل بأن الطفل كان أوجبانجي ، أحد أولئك الأطفال الأشرار الذين
يدخلون إلى أرحام أمهاتهم بعد الموت كي يولدوا ثانية .

قال : «عندما تحمل زوجتك مرة أخرى ، لا تدعها تنام في كوخها .

دعها تذهب لتقيم مع أهلها . فبهذه الطريقة ستتجنب معذبها الشرير وتكسر دائرة الولادة والموت الشريرة» .

فعلت إيكوفي ما طلب منها . فما إن حملت حتى ذهبت للعيش مع أمها العجوز في قرية أخرى . هناك ولد طفلها الثالث وخُتن في اليوم الثامن . لم تعد إلى مجمع أكواخ أوكونكوو إلا قبل ثلاثة أيام من احتفال التسمية . ودعي الطفل أونوومبيكو .

لم يدفن أونوومبيكو حسب الأصول بعد وفاته . فقد ذهب أوكونكوو إلى رجل طب آخر اشتهر في عشيرته بمعرفته الواسعة بالأطفال الأوجبانجين . كان اسمه أوكاجبوي أويانوا . وكان شخصاً مهيباً جداً ، طويلاً ، ذلحية مكتملة ورأس أصلع . له بشرة فاتحة اللون وعينان حمراوان وناريتان وهو يصّر دائماً بأسنانه أثناء استماعه إلى القادمين لاستشارته . سأل أوكونكوو بضع أسئلة عن الطفل الميت . وعن كل الجيران والأقارب الذين قدموا إليهم للتعزية .

سأل : «في أي يوم من أيام السوق ولد؟»

أجاب أوكونكوو : «أوبي» .

- «ومات في هذا الصباح؟»

قال أوكونكوو : «نعم» ، عندئذ فقط أدرك للمرة الأولى أن الطفل مات في نفس يوم السوق الذي وُلد فيه . لاحظ الجيران والأقارب أيضاً التوافق ، فقالوا فيما بينهم إن هذا بالغ الدلالة .

سأل رجل الطب : «أين تنام مع زوجتك ، في أوبيك أم في كوخها؟»

- «في كوخها» .

- «في المستقبل ، أدعها إلى أويك» .

أمر رجل الطب بعدم إقامة الحداد على الطفل الميت . وأخرج سكيناً حادة من الكيس المصنوع من جلد الماعز المتدلي من كتفه الأيسر وبدأ يُمثل بالطفل . ثم سحبه بعيداً ليدفنه في غابة الشر ، ممسكاً به من كاحله وجاراً إياه على الأرض خلفه . فبعد معاملة كهذه ، سيفكر الطفل مرتين قبل أن يعود ثانية ، إلّا إذا كان من العنيدين الذين يعودون ، حاملين طابع التمثيل بهم - أصبغاً ناقصاً أو ربما خطأ غامقاً في المكان الذي شطبتة سكين رجل الطب .

عندما مات أونو ومبيكو ، كانت إيكوي في قد أصبحت امرأة مفعمة بالمرارة . فامرأة زوجها الأولى أصبح لديها ثلاثة أبناء ، جميعهم أقوىاء وأصحاء . وحين ولدت ابنها الثالث ، ذبح أكونكوو عنزة لها ، كما هي العادة . ولم يكن لدى إيكوي سوى التمنيات الطيبة . لكن إحساسها بالمرارة تجاه تشيها كان قد تعاظم إلى حد أنها لم تعد قادرة على الابتهاج مع الآخرين على حظهم الحسن . هكذا ، وفي يوم احتفلت أم نووي بميلاد أبنائها الثلاثة بإقامة الولائم وعزف الموسيقى ، كانت إيكوي في الشخص الوحيد في الجمع السعيد التي راحت تنتقل من مكان إلى آخر وقد حطت سحابة على جبينها . عزت ضررتها تصرفها هذا إلى الخبث ، على جري عادة الضرائر . فمن أين لها أن تعرف أن مرارة إيكوي في لم تكن تندفق إلى الخارج ، باتجاه الآخرين ، بل إلى الداخل ، باتجاه روحها بالذات ، وأنها لا تلوم الآخرين على حسن طالعهم بل تلوم تشيها الشرير الذي حرمها من هذا الطالع الحسن ؟

أخيراً ، ولدت إيزينما ، مع أنها كانت عليلة ، إلا أنها بدت مصممة على أن تحيا . في البداية ، قبلتها إيكوفي ، كما قبلت الآخرين - بتسليم فاتر الهمة . لكن ، عندما عاشت عامها الرابع والخامس والسادس ، عاد الحب ثانية إلى أمها ، ومع الحب جاء القلق . فصممت على رعاية صحة طفلتها ، وكرّست كل وجودها لهذا . وكوفت بنوبات عرضية من الصحة فارت إيزينما أثناءها بالحيوية كنبذ النخيل الطازج . بدت إيزينما في مثل تلك الفترات أنها تجاوزت الخطر . لكنها كانت تتكس فجأة . عرف الجميع أنها أوجبانجي . وهذه النوبات من المرض والصحة نموذجية بالنسبة لنوعها . لكنها عاشت طويلاً إلى حد أنها من المحتمل أن تكون قررت البقاء . فبعضهم يتعب حقاً من دورات الولادة والموت الشريرة ، أو يشفقون على أمهاتهم ، فيقولون . وقد آمنت إيكوفي في أعماقها أن إيزينما جاءت لتبقى . وآمنت بذلك لأن ذلك الإيمان وحده هو الذي أضفى على حياتها نوعاً من المعنى . وتعزز هذا الإيمان عندما استخرج رجل طب قبل سنة أو نحوها إيبى - أووا إيزينما . عندئذ ، عرف الجميع أنها ستحيا لأن رباطها بعالم الأوجبانجي انفصم . واطمأن قلب إيكوفي . لكن قلقها على ابنتها كان عظيماً إلى درجة أنها لم تستطع التخلص كلية من خوفها . مع أنها آمنت أن الإيبى - أووا الذي استخرج من باطن الأرض كان حقيقياً ، فإنها لم تستطع تجاهل حقيقة أن بعض الأطفال الشريرين فعلاً يضللون الناس ويجعلونهم يستخرجون إيبى - أووا خادعاً .

لكن إيبى - أووا إيزينما بدا حقيقياً تماماً . كان حصاة ناعمة ملفوفة في خرقة قدرة من القماش . كان الرجل الذي حفر عليه واستخرجه هو

أوكاجبو نفسه ، المشهور بين جميع أفراد العشيرة بمعرفته بهذه الأمور . لم ترد إيزينما التعاون معه في البداية . لكن هذا كان متوقعاً . فليس ثمة أوجبانجي يسلّم أسرارَه بسهولة ، وأغلبهم لا يسلموها أبداً لأنهم ماتوا صغاراً جداً - قبل أن يصبح بالإمكان توجيه أسئلة إليهم .

سألها : « أين دفنت الإيبي - أوواك ؟ أنت تعرفين ما هو . لقد دفنته في الأرض في مكان لكي تموتي وتعودي لتعذّبي أمك » .

تطلعت إيزينما إلى أمها التي كانت عيناها الحزيتان والمتوسلتان ثابتتين عليها .

هدّر أوكونكوو : « أجيبني على السؤال فوراً » ، كان يقف إلى جانبها . كما كانت العائلة كلها هناك بالإضافة إلى عدد من الجيران .

قال رجل الطب بصوت بارد واثق : « أتركها لي » . التفت إلى إيزينما . « أين دفنت إيبي - أوواك ؟ » .

أجابت : « حيث يدفنون الأطفال » ، وتمتم المتفرجون الصامتون لأنفسهم .

قال رجل الطب : « تعالي إذن ودليني على المكان » .

انطلق الجمع مع إيزينما وسار أوكاجبوي خلفها مباشرة . وأتى بعده أوكونكوو ثم تبعتهم إيكوي في . حين وصلوا إلى الطريق الرئيسية ، استدارت إيزينما يساراً كأنها كانت تتجه إلى الجدول .

سأل رجل الطب : « لكنك قلت إنه مخبأ حيث يدفنون الأطفال ؟ »

قالت إيزينما التي ظهر إحساسها بالأهمية في مشيتها المفعمة بالحياة

والنشاط : «لا» . كانت تندفع أحياناً راكضة ثم تتوقف فجأة . تبعها الجمع صامتاً . وتساءلت النسوة والأطفال العائدون من الجدول ، وعلى رؤوسهم جرار الماء ، عما كان يحدث ، وعندما شاهدوا أو كاجبوي ، استنتجوا أن الأمر لابد أن يكون متعلقاً بالأوجبانجي . فكلهم يعرفون إيكوفني وابنتها جيداً .

حين وصلت إيزينما إلى شجرة الأودالا الضخمة ، استدارت يساراً إلى داخل الأجمة ، وتبعها الجمع . وبسبب من حجمها الصغير ، شقت طريقها خلال الأشجار والنباتات المعرّشة بأسرع من السائرين وراءها . فامتلأت الغابة بوقع الخطى على أوراق الأشجار الجافة وصوت العصي وإزاحة الأغصان جانباً . توغلت إيزينما أكثر فأكثر وتوغل الحشد معها . ثم استدارت فجأة على أعقابها وبدأت تمشي عائدة نحو الطريق . توقف الجميع ليسمحوا لها في المرور ثم اصطفوا خلفها وساروا وراءها .

قال أوكونكو ومهدداً : «إذا كنت تقوديننا جميعاً عبثاً فسوف أضربك ضرباً موجعاً حتى يعود عقلك إليك» .

قال أو كاجبوي : «قلت لك دعها وشأنها . أنا أعرف كيف أتعامل معها» .

قادتهم إيزينما عائدة بهم إلى الطريق ، وتلفتت يساراً ويميناً واستدارت إلى اليمين . هكذا عادوا إلى البيت ثانية .

سأل أو كاجبوي عندما توقفت إيزينما في النهاية أمام أوبي أبيها : «أين دفنت الإيبي - أوواك؟» كان صوته على حاله : هادئاً واثقاً .

قالت إيزينما : «إنه قرب شجرة البرتقال تلك» .

شتمها أو كونكوو بحنق : «لماذا لم تقولي ذلك يا ابنة أكالوجولي الشريعة؟» . تجاهله رجل الطب .

قال بهدوء لإيزينما : «تعالى ودليني على الموقع تماماً» .

قالت عندما وصلوا إلى الشجرة : «إنه هنا» .

قال أو كاجبوي : «أشيرى إلى الموقع بأصبعك» .

قالت إيزينما وهي تمسّ الأرض بأصبعها : «إنه هنا» . ووقف أو كونكوو جانباً ، مقعقعا كالرعد في الفصل الممطر .

قال أو كاجبوي : «أحضروا لي مجرفة» .

حين أحضرت إيكوفى المجرفة ، كان قد نحى كيسه من جلد الماعز جانباً وخلع قطعة القماش الكبيرة وبقي في ملابسه الداخلية ، شريط طويل رفيع من القماش ملفوف حول خصره ، كالحزام ، ماراً بين فخذه ومثبتاً في الحزام من الخلف . شرع فوراً بحفر حفرة حيث أشارت إيزينما . جلس الجيران حوله وهم يراقبون الحفرة تتعمق أكثر فأكثر . حلّ محل التربة الداكنة العليا الثرى الأحمر اللامع الذي تفرك به النسوة الأرض وجدران الأكواخ . عمل أو كاجبوي صامتاً دونما كلل ، والتمع ظهره تحت حبات العرق . ووقف أو كونكوو إلى جانب الحفرة . طلب من أو كاجبوي أن يصعد ويرتاح بينما سيعمل هو . لكن أو كاجبوي قال إنه لم يتعب بعد .

ذهبت إيكوفى إلى كوخها لتطبخ اليوم . فقد أخرج زوجها مقداراً من اليوم أكبر من المألوف لأنه لابد من إطعام رجل الطب . وذهبت إيزينما معها لمعاونتها في تجهيز الخضار .

قالت : «هناك مقدار كبير جداً من الخضار» .
سألت إيكوي في : «ألا ترين أن القدر مليء باليام؟ أنت تعرفين كيف أن
الأوراق تصغر بعد الطبخ» .

قالت إيزينما : «نعم ، لذلك السبب قتلتُ الأفعى السحلية أمها» .
قالت إيكوي في : «صحيح تماماً» .
قالت إيزينما : «أعطيت أمها سبع سلال من الخضار لتطبخها وفي
النهاية بقيت ثلاث . ولذلك قتلتها» .
- «تلك ليست نهاية الحكاية» .

قالت إيزينما : «أوهو . تذكرت الآن . أحضرت سبع سلال أخرى
وطبختها بنفسها . وبقيت هناك مرة أخرى ثلاث سلال . فقتلت نفسها» .
في خارج الأوبي ، كان أوكاجبوي وأكونكوو يحفران الحفرة ليعثروا
على المكان الذي دفنت فيه إيزينما إيببي - أوواها . جلس الجيران
حولهما ، يتفرجون . عمقت الحفرة الآن إلى حد أنهم لم يعودوا يرون
الحقار . بل رأوا الثرى الأحمر الذي ألقاه خارجاً وهو يتكّوم ويرتفع أكثر
فأكثر . ووقف ابن أوكونكوو ، نووي ، قرب حافة الحفرة لأنه أراد أن
يستوعب كل ما يحدث .

حلّ أوكاجبوي محلّ أوكونكوو في الحفرة مرة أخرى ، وراح يعمل ،
كعادته ، بصمت . شرعت الجارات وزوجتا أوكونكوو يتبادلن
الأحاديث . ثم فقَد الأطفال اهتمامهم وبدأوا يلعبون .
فجأة ، وثب أوكاجبوي إلى خارج الحفرة بخفة فهد .

قال أوكاجبوي : «إنه قريب جداً الآن . فقد أحسست به» .

عمّ الجميع انفعال فوري ، ووثب الجالسون وقوفاً .

قال لأوكونكوو : «أدع زوجتك وطفلتك» . لكن إيكوي في وإيزينما كانتا

قد سمعتا الضجة . فركضتا خارجتين لتجلوان حقيقة الأمر .

عاد أوكاجبوي إلى الحفرة التي أحاط بها الآن المتفرجون . بعد ملء

بضع مجارف أخرى من الثرى ، صدم إيسي - أووا . رفعه بحرص بالمجرفة

وألقي به إلى سطح الأرض . فرت بعض النسوة خوفاً عندما أُلقي به على

الأرض . لكنهن سرعان ما عدن ووقف الجميع يحدقون في الخرقه من

مسافة معقولة . برز أوكاجبوي من الحفرة ، ودون أن يتفوه بكلمة أو حتى

يتطلع إلى المشاهدين ، مضى إلى كيسه من جلد الماعز ، وأخرج ورقتين

وبدأ يمضغهما . حينما ابتلعهما ، رفع الخرقه من الأرض بيده اليسرى وبدأ

يحلّ عقدتها . عندئذ ، وقعت الحصاة الناعمة اللامعة . فالتقطها .

سأل إيزينما : «هل هذه لك؟» .

أجابت : «نعم» . صرخت جميع النسوة بابتهاج لأن متاعب إيكوي في

انتهت أخيراً .

حدث كل هذا قبل أكثر من سنة ، ولم تمرض إيزينما منذ ذلك الوقت .

لكن ، ها هي ترتعد فجأة في الليل . فقرّبتها إيكوي في إلى موقع النار ،

ومدّت حصيرتها على الأرض وأشعلت ناراً . لكن حالتها ساءت أكثر

فأكثر . حين ركعت إلى جانبها ، تتحسس بكفها جبينها المبتل الملهب ،

صلّت آلاف المرات . ومع أن امرأتيّ زوجها قالتا إنها مجرد إيبا ، إلا أنها لم تسمعهما .

عاد أوكونكوو من الغابة حاملاً على كتفه الأيسر حزمة كبيرة من الأعشاب وأوراق الشجر والجذور واللحاء جمعها من الأشجار والشجيرات الطبيّة . دخل إلى كوخ إيكوي في ، وأنزل حملة وجلس .
قال : «أحضري لي قدرًا ، واتركي الطفلة وحدها» .

ذهبت إيكوي في لتحضر القدر واختار أوكونكوو أفضل ما في حزمته ، وفقاً لمقاديرها المناسبة ، وقطعها قطعاً صغيرة . ثم وضعها في القدر وصبّت عليها إيكوي في بعض الماء .

سألت عندما صبّت في القدر نصف الماء تقريباً : «هل يكفي ذلك؟»
زأر أوكونكوو فيها : «أكثر قليلاً . . . قلتُ قليلاً . هل أنت صماء؟»
وضعت القدر على النار وتناول أوكونكوو سيفه ليعود إلى أبيه .

قال وهو يذهب : «يجب أن تراقبي القدر بعناية ، لا تتركيه يغلي ويفور . إذا فار ، ستذهب قوته» . مضى إلى كوخه وبدأت إيكوي في تعنى بالقدر كما لو أنه هو نفسه تقريباً طفل مريض . تنقّل بصرها باستمرار بين إيزينما والقدر الغالي ثم عاد إلى إيزينما .

عاد أوكونكوو عندما أحس أن الدواء غلى كفاية . تفحصه وقال إنه جاهز .

قال : «أحضري لي مقعداً واطئاً لإيزينما وحصيرة سمكة» .

أنزل القدر عن النار ووضعه أمام المقعد . ثم أنهض إيزينما ووضعها

على المقعد ، منفرجة الساقين فوق القدر النافث بخاراً . وألقى الحصيرة فوقهما . جاهدت إيزينما لتفلت من البخار الخانق القوي ، لكنها ثبتت في مكانها . وبدأت تبكي .

عندما أزيحت الحصيرة عنها أخيراً كانت غارقة في العرق . مسحت إيكوي في جسدها بقطعة قماش ورقدت على حصيرة جافة وسرعان ما استغرقت في النوم .

فصل ١٠

بدأت جماهير غفيرة تتجمع في قرية إيلو حالما خفّت حدة حرارة الشمس ولم تعد مؤلمة على الجسم . كانت معظم الاحتفالات الجماعية تجري في مثل ذلك الوقت من النهار ، فحتى عندما يذكر أن احتفالاً سيبدأ «بعد وجبة منتصف النهار» ، يعرف الجميع بأنه سيبدأ بعد ذلك بفترة طويلة ، عندما تخف حرارة الشمس .

كان واضحاً من طريقة وقوف وجلس الحشد أن الاحتفال خاص بالرجال فقط . لكن كثيراً من النسوة وجدت هناك ، فبدون من الأطراف كالغريبات . جلس حاملو الألقاب والشيخ على مقاعدهم بانتظار أن تبدأ المحاكمات . وأمامهم صف من المقاعد لم يجلس عليها أحد . كانت هناك تسعة من هذه المقاعد . وقفت مجموعتان صغيرتان من الأشخاص على مسافة لائقة وراء المقاعد . واجهوا الشيخ . كان في المجموعة الأولى ثلاثة رجال ، وفي الثانية ثلاثة رجال وامرأة . كانت المرأة هي مجبافو والرجال الثلاثة الذين برفقتها إخوانها . وفي المجموعة الأخرى زوجها ، أوزوولو ، وأقاربه . كانت مجبافو وإخوانها جامدين كتماثيل صب الفنان في وجوههم تحدياً . بينما راح أوزوولو وأقاربه ، بالمقابل ،

يتهامسون فيما بينهم . بدوا كأنهم يهمسون ، لكنهم في الحقيقة كانوا يتحدثون بأعلى أصواتهم . كان كل مَنْ في الحشد يتحدث . وكان المشهد أشبه بسوق . بدا صوت الضجة من بعيد أشبه بهدير تحمله الريح .

دَوَّى صوت جرس قرصي حديدي مطلقاً موجة من الترقب بين الحشد . تطلع الجميع باتجاه بيت الإيجووجو . جوم ، جوم ، جوم ، انطلق الجرس القرصي ، وصدرت عن ناي قوي نفخة عالية الطبقة . ثم أتت أصوات الإيجووجو حلقية ورهية . لطمت الموجة النساء والأطفال وحدث هروب فزع إلى الخلف . لكن هروبهم كان مؤقتاً . فقد كانوا واقفين على مسافة كافية بحيث يمكنهم أن يهربوا لو تقدم أي من الإيجووجو نحوهم .

دَوَّى الطبل مرة أخرى وعزف الناي . أصبح بيت الإيجووجو الآن جحيم أصوات مرتعشة : آرو أوييم دي دي دي داي ! ملأت الجو ، بينما راحت أرواح الأجداد ، التي انبثقت من الأرض لتوها ، تحيي بعضها البعض بلغتها الغامضة . كان بيت إيجووجو الذي ظهرت منه الأرواح مواجهاً للغابة ، بعيداً عن الحشد الذي رأى فقط واجهة البيت الخلفية مزينة بأشكال ورسومات رسمتها نساء اخترن خصيصاً لهذه الغاية على فترات منتظمة . لم تر هذه النسوة داخل الكوخ أبداً . كما لم تره أية امرأة أخرى مطلقاً . فقد فركن الجدران الخارجية وطلينها تحت إشراف الرجال . وإذا كن تخيلن ما في داخل البيت ، فانهن احتفظن بخيالتهن لأنفسهن . فلا تطرح أية امرأة مطلقاً أية أسئلة حول أقوى عبادة وأكثرها سرية في العشيرة .

آرو أوييم دي دي دي داي ! تطايرت الأصوات حول الكوخ المقفل
المظلم مثل ألسنة نار . كانت أرواح أجداد العشيرة قد خرجت . دق جرس
الحديد القرصي الآن بصورة متواصلة وطفا صوت الناي ، ثابتاً وقوياً ،
فوق الفوضى .

ثم ظهر الإيجووجوو . فأطلقت النساء والأطفال صرخة مدوية وفررن .
كان هذا تصرفاً غريباً . فأية امرأة تفر دائماً فور ظهور الإيجووجوو
للعيان . وحين ظهرت ، في ذلك اليوم ، تسع من أرواح العشيرة المقنعة
كان ذلك مشهداً مرعباً . حتى مجبافو فَرَّتْ هاربة واضطر إخوانها إلى
إيقافها .

كان كل واحد من الإيجووجوو يمثل قرية من قرى العشيرة . وكان
قائدها يدعى غابة الشر . وقد تصاعد الدخان خارجاً من رأسه .

انحدرت قرى أومووفيا التسع من تسعة أبناء لأب العشيرة الأول . كان
غابة الشر يمثل قرية أوميرو ، أو أطفال إيرو ، الذي كان أكبر الأبناء التسعة .

صرخ زعيم الإيجووجوو ، وهو يدفع الهواء بذراعيه الملفوفتين بليف
نخيل الرافيا : «أومووفيا كوينو!» فأجاب شيوخ العشيرة : «ياو!»

- «أومووفيا كوينو!»

- «ياا!»

- «أومووفيا كوينو!»

- «ياا!»

غرز غابة الشر طرف عصاه المدببة المخشخشة في الأرض . فبدأت

العصا تهتز وتخشش ، مثل شيء يجيش بحياة معدنية . ثم جلس غابة الشر على أول المقاعد الخالية وبدأ الإيجووجوو الآخرون يجلسون بعده حسب أقدمية كل واحد منهم .

لاحظت زوجات أوكونكوو ، ولعل نساء أخريات لاحظن أيضاً ، أن للإيجووجوو الثاني نفس مشية أوكونكوو الخفيفة النشيطة . من المحتمل أيضاً أنهن لاحظن أن أوكونكوو لم يكن بين حاملي الألقاب والشيوخ الجالسين خلف صف الإيجووجوو . لكن ، إذا كن قد فكرن بهذه الأمور ، فإنهن احتفظن بأفكارهن لأنفسهن . فالإيجووجوو ذو المشية الخفيفة النشيطة كان أحد آباء العشيرة الميتين . وقد بدا مخيفاً بجسده الملفوف بليف الرافيا المسودّ بالدخان ، ووجهه الخشبي الضخم المدهون باللون الأبيض ما عدا عينيه المستديرتين المجوفتين وأسنانه المتفحمة التي كانت كبيرة بحجم أصابع يد رجل . وبرز من رأسه قرنان قويان .

حين جلس جميع الإيجووجوو على مقاعدهم وهدأت أصوات الأجراس والجلال الكثيرة المعلقة على أجسامهم ، خاطب غابة الشر المجموعتين المواجهتين له .

قال : «يا جسم أوزوولو ، أنا أحبيك» . فالأرواح كانت تخاطب الأحياء دائماً «كأجسام» . انحنى أوزوولو ولمس الأرض بيده اليمنى علامة على الخضوع .

قال : «يا أبانا ، يدي لمست الأرض» .

سأل : «يا جسم أوزوولو ، هل تعرفني؟»

- «كيف لي أن أعرفك يا أبانا؟ أنتَ خارج نطاق معرفتنا» .

ثم التفت غابة الشر إلى المجموعة الأخرى وخاطب أكبر الأخوة الثلاثة سناً .

قال : «يا جسم أودوكوي ، أنا أحبيك» ، وانحنى أودوكوي ولمس الأرض . وبدأت المرافعة .

خطأ أوزوولو إلى الأمام . وعرض قضيته .

- «هذه المرأة الواقفة هناك هي زوجتي ، مجبافو . تزوجتها بنقودي ويامي . وأنا لست مديناً لأصهاري بأي شيء . لست مديناً لهم بيام . لست مديناً لهم بكوكو - يام . ذات صباح أتى ثلاثة منهم إلى بيتي ، وضربوني وأخذوا زوجتي وأطفالي وأبعدوهم عني . حدث هذا في الموسم الممطر . انتظرت عبثاً عودة زوجتي إليّ . وأخيراً ، ذهبت إلى بيت أصهاري وقلت لهم : «لقد استعدتم شقيقتكم . وأنا لم أرسلها إليكم . أنتم أنفسكم أخذتموها . قانون العشيرة يلزمكم برد مهرها» . لكن أخوة زوجتي قالوا إنه ليس لديهم ما يقولونه لي . لهذا رفعت الأمر إلى آباء العشيرة . انتهت قضيتي . أنا أحبيكم» .

قال زعيم إيجووجوو : «كلماتك حسنة . لنسمع أودوكوي . قد تكون كلماته أيضاً حسنة» .

كان أودوكوي قصيراً وغلظ البنية . خطا إلى الأمام وحيا الأرواح وبدأ قصته .

- «صهري أخبركم بأننا ذهبنا إلى بيته ، وضربناه وأخذنا أختنا وأطفالها وأبعدناهم عنه . كل ذلك صحيح . وأخبرك بأنه جاء ليسترد مهره ورفضنا إعادته إليه . ذلك صحيح أيضاً . صهرنا ، أوزوولو ، وحش . عاشت معه

أختنا تسع سنوات . وخلال هذه السنوات لم يمر يوم واحد في السماء دون أن يضرب المرأة . حاولنا أن نسوي الخلافات بينهما مرات عديدة لا يحصى عددها ، وفي كل المناسبات كان أوزوولو مذنّباً -

صاح أوزوولو : «هذا كذب !»

تابع أودوكوي : «قبل سنتين ، حينما كانت حاملاً ، ضربها حتى أجهضت» .

- «هذا كذب . لقد أجهضت بعد أن ذهبت لتنام مع عشيقها» .

قال غابة الشر وهو يسكته : «يا جسم أوزوولو ، أنا أحبيك . أي عاشق ينام مع امرأة حبلى؟» علت همهمة الاستحسان من الجمهور . تابع أودوكوي : «في السنة الماضية ، حين كانت أختي تتعافى من مرض ألمّ بها ، ضربها مرة أخرى ضرباً مبرحاً جداً إلى درجة أنه لولا دخول الجيران عليهما وإنقاذهم لها لكان قتلها . سمعنا هذا ، وفعلنا ما أخبرتكم به . إن قانون أومووفيا يقضي بأنه إذا هربت امرأة من زوجها فإنه يجب أن يعاد مهرها إليه . لكن المرأة في هذه القضية هربت لتنفيذ حياتها . إن طفليها ينتميان إلى أوزوولو . ونحن لا نعترض على هذا ، لكنهما أصغر من أن يتركا أمهما . بالمقابل ، إذا شفي أوزوولو من جنونه وجاء حسب الأصول ليرجو زوجته أن تعود إليه ، فستعود إليه على شرط أنه إذا ضربها مرة أخرى فسنقطع أعضائه التناسلية» .

ضج الجمهور بالضحك . هبّ غابة الشرّ واقفاً على قدميه فعاد النظام على الفور . ارتفعت سحابة متواصلة من الدخان من رأسه . ثم جلس ثانية واستدعى شاهدين . كان كلاهما من جيران أوزوولو فأقرّ كلاهما موضوع

الضرب . عندئذ ، نهض غابة الشر ، وسحب عصاه وأعاد غرسها في الأرض ثانية . ركض عدة خطوات باتجاه النساء ، فهربن كلهن مذعورات ليعدن على الفور تقريباً إلى أماكنهن . ذهب الإيجووجوو التسعة إلى بيوتهم للتداول وساد الصمت فترة طويلة . ثم دوى القرص المعدني وعُزف الناي . برز الإيجووجوو مرة أخرى من بيوتهم الواقع تحت الأرض تبادلوا التحيات وعادوا إلى الظهور في الإيلو .

زأر غابة الشر ، وهو يواجه الشيوخ ووجهاء القبيلة : «أوموفيا كوينو !» أجاب الجمهور بصوت كهدير الرعد : «يااا !» ثم هبط الصمت من السماء وابتلع الضجيج .

بدأ غابة الشر يتكلم ، لبث الجميع صامتين طوال الوقت الذي تكلم فيه . جلس الإيجووجوو الثمانية الآخرون ساكنين كالتماثيل .

قال غابة الشر : «استمعنا إلى الطرفين في القضية . واجبنا ليس أن نلوم هذا الرجل أو نمدح ذلك ، بل أن نسوي النزاع» . استدار إلى فريق أوزوولو وكفّ قليلاً عن الكلام .

- «يا جسم أوزوولو ، هل تعرفني؟»

أجاب أوزوولو : «من أين لي أن أعرفك يا أبي؟ أنت خارج نطاق معرفتنا» .

- «أنا غابة الشر . أنا أقتل الشخص يوم تصبح حياته أحلى ما تكون بالنسبة إليه» .

أجاب أوزوولو : «هذا صحيح» .

- «إذهب إلى أصهارك مع زق نببذ وارحُ زوجتك أن تعود إليك . ليس من الشجاعة أن يقاتل رجل امرأة» . التفت إلى أودوكوي ، وترك فترة من الوقت تمر .

ثم قال : «يا جسم أودوكوي ، أنا أحييك» .

أجاب أودوكوي : «يدي على الأرض» .

- «هل تعرفني؟»

أجاب أودوكوي : «لا أحد يستطيع أن يعرفك» .

- «أنا غابة الشر ، أنا لحم جاف يملأ الفم ، أنا نار مشتعلة بلا حزم حطب . إذا أحضر صهرك نببذاً إليك ، دع أختك تذهب معه . أنا أحييك» . سحب عصاه من التراب الصلب وغرسها ثانية .

زأر ، فأجاب الجمهور : «أوموفيا كوينو!»

قال شيخ إلى الآخر : «لا أعرف لماذا تعرض مسألة تافهة كهذه أمام الإيجووجوو» .

أجاب الآخر : «أنت لا تعرف أي نمط من الرجال هو أوزوولو؟ إنه لن يستمع إلى أي قرار آخر» .

بينما كانا يتبادلان الحديث ، مثل أمام الإيجووجوو فريقان آخران من الأشخاص حلاً محل الفريقين الأولين ، وبدأت قضية حول أرض كبيرة .

فصل ١١

كان الليل حالك السواد . وقد ظل القمر يتأخر في البزوغ ليلة إثر ليلة إلى أن أصبح الآن يُرى قرابة الفجر فقط . وكلما هجر القمر المساء وبزغ مع صياح الديك ، كلما أصبحت الليالي سوداء كفحم نباتي .

جلست إيزينما وأمها فوق حصيرة على الأرض بعد وجبة العشاء المشكّلة من الفو - فويام وحساء ورق الشجر المر . شعّ مصباح زيت النخيل بضوء مائل إلى الصفرة . بدونه ، كان من المستحيل تناول الطعام ، وكما عرّف الإنسان أين يقع فمه في عتمة ذلك الليل . كان هناك مصباح زيت النخيل في كل الأكواخ الأربعة في مجمّع أوكونكوو ، وبدا كل كوخ من الأكواخ الأخرى مثل عين ذابلة من ضوء أصفر خافت في كتلة الليل الصماء .

كان العالم صامتاً ما عدا زعيق الحشرات الحادّ ، الذي كان جزءاً من الليل ، وصوت الهاون الخشبيّ والمدقة بينما كانت نواييكبي تسحق الفو - فو . كانت نواييكبي تقيم على بعد أربعة مجمّعات ، وقد اشتهرت بتأخرها في طبخ الطعام . عرفت كل امرأة في الجوار صوت هاون ومدقة نواييكبي . وكان صوته جزءاً من الليل أيضاً .

كان أوكونكوو قد أكل من أطباق زوجاته واتكأ الآن على الجدار مستنداً بظهره إليه . بحث في كيسه وأخرج منه قنينة السعوط . قلبها فوق كف يده اليسرى ، لكن شيئاً لم يخرج منها . فضرب القنينة على ركبته ليهزّ التبغ . تلك هي المشكلة دائماً مع سعوط أوكيكي . إنه يصبح رطباً بسرعة شديدة ، وفيه كثير من الملح الصخري . لم يشتر أوكونكوو منه سعوطاً منذ فترة طويلة ، فإيديجو هو الرجل الذي يعرف كيف يسحن سعوطاً سحناً جيداً . لكنه وقع مؤخراً فريسة المرض .

تناهت إلى سمع أوكونكوو أصوات خافتة ، يقطعها الغناء بين حين وآخر ، صادرة عن أكواخ زوجاته وهن يتبادلن مع أطفالهن رواية الحكايات الشعبية . جلست إيكوي في وابنتها إيزينما على حصيرة على الأرض . وجاء دور إيكوي في لتروي حكاية .

بدأت : كان يا ما كان أن دعي جميع الطيور إلى وليمة في السماء . سعدت جميعها سعادة عظيمة ، وراحت تعدّ نفسها لليوم العظيم . فصبغت أجسامها بخشب الكام الأحمر ورسمت أشكالاً جميلة عليها بالأولي .

رأى ذكر سلحفاة جميع هذه الاستعدادات وسرعان ما اكتشف كل ما عنته . فلا يغيب عن ملاحظته أي شيء يحدث في عالم الحيوان ، فهو مفعم بالمكر . وما إن سمع بالوليمة الكبيرة في السماء حتى بدأ ريقه يتحلّب لمجرد التفكير فيها . كانت هناك مجاعة في تلك الأيام ، ولم يكن ذكر السلحفاة قد أكل وجبة جيدة منذ قمرين . طقطق جسمه مثل قطعة خشب جافة في درعه الأجوف فبدأ يخطط كيف سيذهب إلى السماء .

قالت إيزينما : «لكن ليس له أجنحة» .

أجابت أمها : «أصبري . تلك هي القصة . ليس لذكر السلحفاة أجنحة ، لكنه ذهب إلى الطيور وطلب منها أن تسمح له بالذهاب معها .

قالت الطيور حين سمعته : «نحن نعرفك جيداً . أنت ماكر جداً وناكر للجميل . وإذا سمحنا لك بالذهاب معنا فستبدأ بارتكاب الشرور» .

قال ذكر السلحفاة : «أنتم لا تعرفونني . أنا تغيرت . فقد تعلمت أن الرجل الذي يسبب متاعب للآخرين يسبب متاعب لنفسه» .

كان لذكر السلحفاة لسان حلو ، وسرعان ما وافقت جميع الطيور على أنه أصبح رجلاً متغيراً ، فأعطاه كل طائر ريشة ، فصنع لنفسه منها جناحين .

أخيراً ، حلّ اليوم العظيم ، وكان ذكر السلحفاة أول مَنْ وصل إلى مكان التجمّع ، وحين اجتمعت جميع الطيور هناك ، انطلقت سوية في سرب واحد . كان ذكر السلحفاة سعيداً جداً ذلق اللسان وهو يطير بين الطيور ، وسرعان ما اختير ليتكلم باسمها لأنه كان خطيباً مفوهاً .

قال والطيور تطير في طريقها إلى الوليمة : «هناك أمر مهم واحد يجب ألا ننساه . حين يدعى الناس إلى وليمة عظيمة كهذه ، يتبنون أسماء جديدة لهذه المناسبة . وسيتوقع مضيفونا في السماء أن نحترم هذه العادة القديمة جداً» .

لم يكن أحد من الطيور قد سمع بهذه العادة ، لكن الطيور كانت تعرف أن ذكر السلحفاة مخلوق كثير الأسفار ويعرف عادات شعوب مختلفة ، على الرغم من نقائصه في اتجاهات أخرى . وهكذا اختار كل منها اسماً .

وحين اختاروا كلهم أسماء جديدة ، اختار ذكر السلحفاة اسماً أيضاً . كان لابد أن يُدعى : كُلُّكُمْ .

أخيراً ، وصل السرب إلى السماء ، وكان مضيفوهم سعداء جداً لرؤيتهم . نهض ذكر السلحفاة بريشه متعدد الألوان وشكرهم على دعوتهم . كان خطابه بليغاً جداً إلى حد أن كل الطيور أحست بالسعادة لأنها أحضرته معها ، وأومات برؤوسها موافقة على كل ما قاله . فاعتبره مضيفوهم ملك الطيور ، خاصة وأنه بدا مختلفاً نوعاً ما عن الآخرين .

بعد تقديم جوز الكولا وأكله ، بسط قوم السماء أمام ضيوفهم أشهى أطباق رآها ذكر السلحفاة في حياته أو حلم بها . فجلب الحساء ساخناً عن النار في نفس القدر الذي طبخ فيه . وكان مليئاً باللحم والسّمك . بدأ ذكر السلحفاة يتشمم بصوت مسموع . كان هناك يام مسحوق وحساء يام مطبوخ بزيت النخيل مع سمك طازج . كان هناك أيضاً زقاق من نبيذ نخيل . وبعدهما بسط كل شيء أمام الضيوف ، تقدّم شخص من قوم السماء وتذوّق قليلاً من كل قدر . ثم دعا الطيور إلى الأكل . لكن ذكر السلحفاة هبّ واقفاً على قدميه وسأل : «لَمَن أعددتُم هذه الوليمة؟» أجاب الرجل : «لِ كُلِّكُمْ» .

التفت ذكر السلحفاة إلى الطيور وقال : «أنتم تذكرون أن اسمي هو : كُلِّكُمْ . والعادة هنا أن تقدّم الطعام للناطق بلسان الضيوف أولاً ، وللآخرين بعد ذلك . سيقدّم الطعام لكم بعد انتهائي من الأكل» .

بدأ يأكل والطيور تهمهم بغضب . اعتقد قوم السماء أن عاداتهم تقضي بأن تترك الطيور جميع الطعام لملكها . هكذا أكل ذكر السلحفاة أفضل

الطعام ثم شرب زقين من نبيذ النخيل ، فامتلاً بالطعام والشراب وانتفخ جسمه في داخل درعه .

تجمّعت الطيور لتأكل ما بقي وتنقر العظام التي ألقتها حوله على الأرض . كان بعضها غاضباً إلى درجة أنه عاف الأكل . وفضّل أن يطير عائداً إلى بلده بمعدة خاوية . لكن ، وقبل أن يرحلوا ، استرد كل طائر من ذكر السلحفاة الريشة التي أعاره إياها . هكذا بقي ذكر السلحفاة في درعه الصلب ممتلئاً بالطعام والشراب لكن دون أية أجنحة يطير بها إلى البيت . طلب من الطيور أن تنقل رسالة لزوجته ، إلا أن الجميع رفض ذلك . بيد أن البغواء ، الذي أحسّ بالغضب أكثر من الآخرين ، غير رأيه ووافق على نقل الرسالة .

قال ذكر السلحفاة : «أخبر زوجتي أن تخرج كل الأشياء اللينة في منزلي وتغطي بها ساحات البيت حتى أقفز إليها من السماء دون أن أتعرض لخطر شديد» .

وعده البغواء بنقل الرسالة ، ثم طار راحلاً . إلا أنه أخبر زوجة ذكر السلحفاة ، حينما وصل إلى بيته ، أن تخرج جميع الأشياء الصلبة في البيت . هكذا أخرجت الزوجة مجارف زوجها وسكاكينه ورماحه وبنادقه وحتى مدفعه . تطلع ذكر السلحفاة من السماء إلى الأسفل ورأى زوجته تخرج أشياء ، لكنها كانت بعيدة جداً إلى حد أنه لم يميّز ما أخرجته . وحين بدا كل شيء جاهزاً ، ترك نفسه ينطلق . هوى وهوى وهوى إلى أن بدأ يخشى أنه لن يكفّ عن السقوط أبداً . ثم بصوت مثل قصف مدفعه ، ارتطم بمجمّع سكنه» .

سألت إيزينما : «هل مات؟»

أجابت إيكوفي : «لا ، تكسّر درعه إلى قطع صغيرة . لكن رجل طب عظيمًا كان يعيش في الجوار . فأرسلت زوجته في طلبه ، فجمع هذا كل القطع الصغيرة وألصقها ببعضها . لذلك السبب نرى درع السلحفاة غير أملس» .

قالت إيزينما : «لا توجد أغنية في الحكاية» .

قالت إيكوفي : «لا . سأفكر في حكاية أخرى فيها أغنية . لكن الدور عليك الآن» .

بدأت إيزينما : «كان يا ما كان أن السلحفاة والقط ذهبا ليتصارعا مع الياح - لا ، هذه ليست البداية . كان يا ما كان أن كانت هناك مجاعة كبيرة في بلد الحيوانات . كانت أجسام الجميع هزيلة ما عدا القط ، الذي كان سميناً وجسمه يلتمع كأنه كان قد دُلك . . .»

توقفت عن الحديث ، ففي تلك اللحظة بالذات حطم صوت مرتفع عالي الطبقة صمت الليل الخارجي . كانت تشيلو ، كاهنة أجبالا ، تنبأ . لم يكن هناك جديد في الأمر . فبين فترة وأخرى كانت روح إله تشيلو تتقمصها فتبدأ بالتنبؤ . لكن نبوءاتها وتحياتها كانت موجهة هذه الليلة إلى أكونككو ، لذا أصغى جميع أفراد العائلة إليها . وتوقفت الحكايات الشعبية .

أتى الصوت كسكين حادة تقطع الليل : «أجبالا دو-و-و-و! أجبالا إيكينيو-و-و-و-و . أكونككو! أجبالا إيكيني جيو-و-و-و! أجبالا شولو إيفو آدا يا إيزينما و-و-و!»

عند ذكر اسم إيزينما ، انتفض رأس إيكوي في بعنف مثل حيوان اشتتم رائحة الموت في الهواء . قفز قلبها متوجعاً في داخلها .

في هذه الأثناء ، وصلت الكاهنة إلى منزل أوكونكوو وبدأت تتحدث معه خارج كوخه . ظلت تكرر المرة تلو المرة أن أجبالا يريد رؤية ابنته إيزينما . ورجاها أوكونكوو أن تعود في الصباح لأن إيزينما كانت نائمة الآن . لكن تشيلو تجاهلت كل ما كان يحاول قوله وواصلت الصراخ بأن أجبالا يريد رؤية ابنته . كان صوتها واضحاً كالمعدن ، فسمعت نساء وأطفال أوكونكوو في أكواخهن كل ما قالت . كان أوكونكوو لا يزال يتوسل إليها قائلاً إن الفتاة ظلت مريضة منذ فترة وأنها نائمة . فأدخلتها إيكوي في بسرعة إلى غرفة نومهما ووضعتها على سريرهما المرتفع المصنوع من الخيزران .

صرخت الكاهنة فجأة . حذّرتة : «إحذريا أوكونكوو ! إحذر من تبادل الكلام مع أجبالا . هل يتكلم الإنسان حين يتكلم الإله؟ إحذر !»

اجتازت كوخ أوكونكوو وذهبت مباشرة إلى كوخ إيكوي . لحق بها أوكونكوو .

نادت : «إيكوي ، أجبالا يحييك . أين ابنتي إيزينما؟ أجبالا يريد أن يراها» .

خرجت إيكوي من كوخها حاملة مصباح زيت النخيل بيدها اليسرى . كانت ريح خفيفة تهب ، لذلك كوّرت يدها اليمنى لتحمي اللهب . ظهرت أم نووي من كوخها ، حاملة أيضاً مصباح زيت . وقف

الأطفال في العتمة خارج أكوأخهم يراقبون الحدث العجيب . خرجت زوجة أوكونكوو الصغرى أيضاً وانضمت إلى الآخرين .

سألت إيكوفني : «أين يريد أجبالا رؤيتها؟»

أجابت الكاهنة : «في أي مكان آخر غير منزله في التلال والكهوف؟»

قالت إيكوفني بحزم : «سأذهب معكما أيضاً» .

لعنت الكاهنة : «توفيا - آ!» ، وصوتها يفرق كنباح الرعد الغاضب في الفصل الجاف . «كيف تجرؤين يا امرأة على الذهاب إلى أجبالا الجبار بمحض إرادتك؟ إحدري يا امرأة لئلا يصعقك وهو غاضب . أحضري لي ابنتي» .

دخلت إيكوفني إلى كوخها وخرجت ثانية مع إيزينما .

قالت الكاهنة : «تعال يا بنيتي ، سأحملك على ظهري . فالطفل على ظهر أمه لا يعرف أن الطريق طويل» .

بدأت إيزينما تبكي . فقد اعتادت على أن تدعوها تشيلو «يا بنيتي» . لكن ما رأيته الآن ، في الضوء الأصفر الخافت ، تشيلو مختلفة .

قالت الكاهنة : «لا تبكي يا بنيتي ، وإلا غضب أجبالا منك» .

قالت إيكوفني : «لا تبكي ، ستعيذك إلى هنا بسرعة . وسأعطيك بعض السمك لكي تأكلي» . دخلت إلى الكوخ مرة أخرى وأنزلت السلة المسودة التي تحتفظ فيها بسمكها المجفف والمواد الأخرى المستخدمة في طبخ الحساء . قسمت قطعة إلى نصفين وأعطتها إلى إيزينما التي التصقت بها .

قالت إيكوفني : « لا تخافي » ، وربت على رأسها المحلوق في عدة مواضع ليتخذ الشعر المتبقي شكلاً منتظماً . وخرجت ثانية . ركعت الكاهنة على إحدى ركبتيه وتسَلَّت إيزينما ظهرها ، وكفَّها مطبقة على قطعة السمك وعيناها متألقتان بالدموع .

بدأت تشيلو تنشد التساييح إلى إلاهها من جديد : « أجبالا دو - و - و - و ! أجبالا إيكينيو - و - و - و . . . » واستدارت إلى الخلف بعنف ومرّت عبر كوخ أوكونكوو ، حانية ظهرها بشدة عند الإفريز . كانت إيزينما تبكي بصوت عالٍ الآن ، منادية أمها . واختفى الصوتان في الظلام الدامس .

هبط وهن غريب مفاجيء على إيكوفني وهي تقف محدّقة في اتجاه الصوتين مثل دجاجة إختطفّت حدأة كتكوتها الوحيد وحملته بعيداً . تلاشى صوت إيزينما بسرعة وترامى إليها فقط صوت تشيلو وهو يبتعد أكثر فأكثر في المدى .

سأل أوكونكوو وهو يعود إلى كوخه : « لماذا تقفين هنا كأنها اختطفّت ؟ »

قالت أم نووي : « ستعيدها سريعاً » .

لكن إيكوفني لم تسمع هذه المواساة . وقفت ساكنة برهة ، ثم فجأة ، حزمت أمرها . أسرعت مجتازة كوخ أوكونكوو وانطلقت إلى الخارج .

سأل : « إلى أين أنت ذاهبة ؟ »

أجابت : « سألحق بتشيلو » ، واختفت في الظلام . سلّك أوكونكوو حلقة ، وأخرج قنينة السعوط من كيس جلد الماعز الموضوع إلى جانبه .

راح صوت الكاهنة يختفي تدريجياً في المدى . فسارعت إيكوفي إلى
درب المشاة الرئيسي ، واستدارت يساراً باتجاه الصوت . كانت عيناها
عاجزتين في الظلام . لكنها شقّت طريقها بسهولة فوق درب المشاة
الرمليّ المحاط من الجانبين بالأغصان وأوراق الأشجار الرطبة . شرعت
تعدو ، ممسكةً نديها لتمنعهما من الارتطام بجسمها بصوت ضاجّ .
اصطدمت قدمها اليسرى بجذر بارز فوق سطح الأرض ، فتملكها
الرعب . كان هذا نذير شؤم . أسرعّت أكثر في عدوها . لكن صوت تشيلو
كان لا يزال بعيداً جداً . هل كانت تعدو هي أيضاً؟ كيف أمكنها أن تمضي
بهذه السرعة وإزينا على ظهرها؟ مع أن الليل كان بارداً بطراوة ، إلا أن
إيكوفي بدأت تحسّ بالحرارة من عدوها . اصطدمت باستمرار بالأعشاب
وافرة النماء والنباتات المعرّشة التي سدّت الطريق . تعثرت مرة ووقعت
على الأرض . عندها فقط أدركت ، مجفلة ، أن تشيلو كَفّت عن الإنشاد .
خفق قلبها بعنف ووقفت ساكنة . ثم أتى جيشان تشيلو المتجدد من بضعة
خطوات أمامها فقط . لكن إيكوفي لم تتمكن من رؤيتها . أغمضت عينيها
برهة ، وفتحتهما ثانية وهي تبذل جهداً لكي ترى . لكن هذا كان لامجدياً ،
فلم تستطع أن ترى ما هو أبعد من أنفها .

لم يكن في السماء نجوم لوجود سحابة مطر فيها . كانت تحوم حولها
اليراعات بمصاييحها الخضراء الضئيلة ، فتجعل الليل أشدّ حلقة . وبين
تفجرات تشيلو ، كان الليل يضجّ حياةً بارتعاش حشرات الغابة الثاقب
المنسوج مع الظلمة .

- «أجبالادو-و-و-و! أجبالا إيكينو-و-و-و! .»

تثاقلت إيكوفي في السير خلفها دون أن تقترب منها أو تبتعد عنها .

فكرت أنهما ذاهبتان بالتأكيد إلى الكهف المقدس . بعدما راحت تمشي ببطء ، واتسع وقتها للتفكير . ماذا ستفعل عندما تصلان إلى الكهف؟ لن تجرؤ على الدخول . ستنتظر عند المدخل ، وحيدة تماماً في ذلك المكان المخيف . فكرت في جميع كائنات الليل المرعبة . وتذكرت تلك الليلة ، منذ زمن بعيد ، عندما شاهدت أوجبو - أجالى - أودو ، إحدى الكائنات الشريرة التي أطلقتها في هذا العالم «الأدوية» القوية التي صنعتها القبيلة في الماضي السحيق ضد أعدائها ، ونسيت الآن كيف تسيطر عليها . كانت إيكوفي عائدة من الجدول مع أمها في ليلة مظلمة كهذه حينما شاهدتا وهج الكائن وهو يطير باتجاههما . ألقيتا بجرتيهما إلى الأرض ، ووقدتا إلى جانب الطريق متوقعتين أن ينقض الضوء الشرير عليهما ويقتلهما . تلك كانت المرة الوحيدة التي رأت فيها إيكوفي أوجبو - أجالى - أودو . ومع أن هذا حدث قبل زمن طويل جداً ، إلا أن دمها ظل يجري بارداً في عروقها كلما تذكرت تلك الليلة .

أتى صوت الكاهنة على فترات متباعدة الآن ، لكن عنفوانه لم يتناقص . كان الهواء بارداً ورطباً بالندى . عطست إيزينما . فتمتمت إيكوفي : «الحياة لك» . في نفس الوقت قالت الكاهنة : «الحياة لك يا بنيّتي» . وبعث صوت إيزينما القادم من العتمة الدفء في قلب أمها . وسارت متناقلة ببطء .

فجأة ، صرخت الكاهنة . قالت : «إن شخصاً يسير خلفي ! سواء كنت روحاً أم رجلاً ، فليخلق أجبالاً رأسك بموسى مثلمة ! ولبلو رقبتك إلى أن ترى عقيبك !»

تسمّرت إيكوفي في مكانها . قال لها جزء من عقلها : «يا امرأة ،

إرجعي إلى البيت قبل أن يلحق بك أجبال الأذى» . لكنها لم تستطع ذلك . فوقفت ساكنة إلى أن زادت تشيلو المسافة بينهما وعاودت السير في إثرهما . كانت قد مشت فترة طويلة حتى أنها بدأت تحس بخدر خفيف في أطرافها ورأسها . ثم خطر ببالها أنهما لا يمكن أن تكونا قد اتجهتا نحو الكهف ، لا بد أنهما تجاوزتا منذ وقت طويل ، لا بد أنهما اتجهتا نحو أومواتشي ، أبعد قرية من قرى العشيرة . وراح صوت تشيلو الآن يأتي على فترات متباعدة جداً .

خيل إلى إيكوي في أن الليل أصبح أخفّ حلقة . وانقشع السحاب وظهرت بضع نجوم . لا بد أن القمر يستعد الآن للبروز . فقد انتهى حرّكه . فحين يبرز القمر متأخراً في الليل ، يقول الناس إنه يرفض الطعام ، مثلما يرفض الزوج الحرن طعام زوجته عندما يتشاجران .

- «أجبالا دو-و-و! أومواتشي! أجبالا إيكيني أونوو-و-و!»

كان خط السير تماماً كما فكرت إيكوي في . فقد كانت الكاهنة تحيي الآن قرية أومواتشي . كانت المسافة التي قطعناها لا تصدق . حين ظهرت في القرية المكشوفة قادمتين من درب الغابة الضيق ، كان الظلام قد خفتت حلكته وأصبح بالإمكان رؤية أشكال الأشجار الغامضة . زرت إيكوي في عينيها جاهدة أن ترى ابتتها والكاهنة ، لكنها كلما ظنت أنها رأت شكلهما كلما ذابتا على الفور ككتلة مصهورة في الظلام . وتابعت سيرها بخدر .

ظلّ صوت تشيلو يرتفع باستمرار الآن ، مثلما كان حين انطلقت في بدء سيرها . تملك إيكوي في إحساس بفضاء رحب ، وخمنت أنهما لا بد

وأن تكونا في إيلو القرية ، أو الملعب . أدركت أيضاً ، بما يشبه الرجّة ، أن تشيلو لم تعد تتقدم إلى الأمام . بل كانت تستدير عائدة في الحقيقة . ابتعدت إيكوفي بسرعة عن خط تراجعها . فمرت تشيلو بها ، وبدأتا تعودان على نفس الطريق التي جاءتا منها .

كانت رحلة طويلة ومنهكة القوى ، وأحست إيكوفي نفسها كالسائر في نومه معظم الطريق . كان القمر بالتأكيد يبرز ، ومع أنه لم يظهر في السماء بعد ، إلا أن ضوءه كان قد أذاب العتمة . واستطاعت إيكوفي الآن أن تميّز الكاهنة وحملها ؛ فأبطأت في خطواتها كي تزيد المسافة بينهما ؛ إذ خشيت مما قد يحدث لو استدارت تشيلو فجأة ورأتها .

دعت في صلاتها أن يطلع القمر . لكنها وجدت الآن ضوء القمر الطالع الشاحب أرعب من الظلام . وأصبح العالم مأهولاً بأشكال غامضة خيالية انحلت تحت تحديقها الثابتة وتشكّلت مرة أخرى متخذة هيئات جديدة . في إحدى المراحل ، بلغ الذعر بها مبلغاً كاد يدفعها إلى مناداة تشيلو طلباً للرفقة والمشاركة الإنسانية . فقد رأت هيئة رجل يتسلق نخلة ، رأسه إلى الأرض ورجلاه إلى الأعلى . لكن ، في تلك اللحظة بالذات ، ارتفع صوت تشيلو من جديد منشدة ترانيمها الممسوسة ، فأجفلت إيكوفي إذ لم يكن في صوتها مسحة من الإنسانية . لم تكن هذه هي نفس تشيلو التي تجلس معها في السوق وتبتاع أحياناً فطائر الفول لإيزينما التي تدعوها ابنتها . بل كانت امرأة مختلفة - كاهنة أجبالا ، وحي التلال والكهوف . وواصلت إيكوفي سيرها مجهدة بين خوفين . بدا وقع خطواتها الخدرة كما لو أنه صادر عن شخص آخر يمشي خلفها . وعقد ذراعها فوق ثديها العاريين . وتساقط الندى بكثافة وأصبح الهواء بارداً . لم تعد تستطيع أن

تفكر ، ولا حتى بأهوال الليل . بل مشت الهوينى شبه غافية ، وحواسها تستيقظ فقط عندما تنشد تشيلو .

أخيراً ، انعطفت تشيلو وبدأت المرأتان تتجهان نحو الكهوف . منذ تلك اللحظة ، لم تتوقف تشيلو مطلقاً عن إنشادها . وحيثُ إلهها بعدد وافر من الأسماء - مالك المستقبل ، رسول الأرض ، الإله الذي يهلك الشخص حين تصبح الحياة أعذب ما تكون بالنسبة إليه . استيقظت إيكوفيي أيضاً وتجددت مخاوفها التي أصابها الخدر .

كان القمر الآن قد طلع واستطاعت أن ترى تشيلو وإيزينما بوضوح . إنها لمعجزة أن تحمل امرأة طفلة بذلك الحجم بهذه السهولة ولهذه الفترة الطويلة . لكن إيكوفيي لم تكن تفكر في ذلك . إذ لم تكن تشيلو في تلك الليلة امرأة .

- «أجبالاً دو - و - و - و ! أجبالاً إيكينيو - و - و ! تشي نيجبو - مادو أوبوسي ندوبا ناتويا أوتو داليو - و - و ! . . .»

رأت إيكوفيي التلال تلوح لها في ضوء القمر . لقد شكلت حلقة دائرية مع كسرة في نقطة معينة يؤدي من خلالها درب المشاة إلى مركز الدائرة .

حالما خطت الكاهنة إلى داخل حلقة التلال هذه ، لم تتضاعف قوة صوتها فحسب ، بل ارتد في جميع الاتجاهات أيضاً . لقد كان المكان حقاً مقام إله عظيم . فاختارت إيكوفيي طريقها بعناية وهدوء . بدأت تشك في حكمة قدومها . خطر ببالها : لن يحدث شيء لإيزينما . فكّرت : لن يحدث شيء لها . لو حدث شيء لها ، فهل يمكنها منعه؟ إنها لن تجرؤ

على دخول الكهوف الواقعة تحت الأرض . فكّرت : قدومها لا جدوى منه إطلاقاً .

بينما كانت هذه الخواطر تجول في ذهنها ، لم تدرك كم باتتا قريبتين من فم الكهف . هكذا ، عندما اختفت الكاهنة وإيزينما على ظهرها عبر فتحة بالكاد تتسع لمرور دجاجة ، اندفعت إيكوفي راكضة كما لو أنها تريد إيقافهما . وفيما هي تقف محدّقة في الظلام الدائري الذي ابتلعهما ، تدفقت الدموع من عينيها ، وأقسمت بينها وبين نفسها بأنها إذا سمعت إيزينما تبكي فإنها ستنتقل إلى داخل الكهف لتحميها من جميع الآلهة في العالم . ستموت معها .

بعد أن أقسمت ذلك القسم ، جلست على حافة مرتفع حجري وانتظرت . اختفى خوفها . سمعت صوت الكاهنة ، وقد تبدد منه الرنين المعدني في فراغ الكهف الواسع . دفنت وجهها في حضنها وانتظرت .

لم تدركم مر من الوقت مضى وهي تنتظر . لا بد أنه وقت طويل جداً . كان ظهرها متجهاً نحو الدرب المفضي إلى خارج التلال . لا بد أنها سمعت ضجة خلفها ، فاستدارت بحدّة . وقف رجل حاملاً سيف تحطيط في يده . فأطلقت إيكوفي صرخة وهبت واقفة على قدميها .

قال صوت أوكونكوو : « لا تكوني حمقاء » . وأضاف ساخراً : « ظننتُ أنك ستدخلين إلى المقام مع تشيلو » .

لم تجب إيكوفي . وملأت دموع عرفان بالجميل عينيها . عرفت أن ابنتها في أمان .

قال أوكونكوو : « إذهبي إلى البيت ونامي ، سأنتظر هنا » .

- «سأنتظر أنا أيضاً . كاد الفجر يبرز . وقد صاح أول ديك» .

فيما هما يقفان هناك معاً ، عاد ذهن إيكوي في إلى أيام شبابهما . لقد تزوجت أنيني لأن أوكونكوو كان آنذاك أفقر من أن يتزوج . وبعد سنتين من زواجهما من أنيني ، لم تعد تستطيع الاحتمال وفرت إلى أوكونكوو . كان هذا في الصباح الباكر وكان القمر يلمع . كانت ذاهبة إلى الجدول لجلب ماء . وكان بيت أوكونكووي الطريق إلى الجدول . دخلت وقرعت بابه ، فخرج هو . حتى في تلك الأيام ، لم يكن رجلاً كثير الكلام . فحملها ببساطة إلى سريره وبدأ يتحسس خصرها بحثاً عن طرف قطعة قماشها .
القات .

فصل ١٢

في صباح اليوم التالي خيّم على الجوار بأكمّله جو احتفالي لأن صديق أوكونكوو ، أوبريكا ، سيحتفل بأوري ابنته . فهو اليوم الذي يجلب فيه طالب يدها (بعد أن دفع الجزء الأعظم من مهرها) نبذ النخيل ، لا لوالديها وأقربائها المباشرين فقط ، بل للمجموعة الواسعة والشاملة من الأقارب المدعوة أو مونا أيضاً . ودُعي الجميع - الرجال والنساء والأطفال . لكنه كان في الحقيقة احتفالاً نسائياً ، والشخصيتان الرئيسيتان فيه هما العروس وأمها .

ما إن طلع النهار حتى التهم الجميع الفطور بسرعة وبدأت النساء والأطفال يتجمعون في مجمّع أوبريكا لمساعدة أم العروس في مهمتها الصعبة ، لكن السعيدة ، وهي الطبخ لقرية بكاملها .

كانت عائلة أوكونكوو تعجّ بالحركة مثل أية عائلة أخرى في الجوار . واستعدت أم نوويي وزوجة أوكونكوو الصغرى للانطلاق إلى مجمّع أوبريكا مع جميع أطفالهما . حملت أم نوويي سلّة كوكو - يام ، وفطيرة سمك مملّح ومدخن لتقدمهما إلى زوجة أوبريكا . كما حملت زوجة

أوكونكوو الصغرى أوجيوجو ، سلة موز وكوكو - يام وقدراً صغيراً من زيت النخيل . حمل أطفالهما جرار ماء .

كانت إيكوي في متعبة ونعسانة من التجارب المضنية التي مرت بها في الليلة السابقة . لم يكن مضي وقت طويل جداً على عودتهما . فقد زحفت الكاهنة ، وإيزينما نائمة على ظهرها ، إلى خارج المقام على بطنها كأفعى . بالكاد ألقت نظرة على أوكونكوو وإيكوي أو أظهرت دهشة لوجودهما على باب الكهف . بل شخصت ببصرها مباشرة أمامها ومشت عائدة إلى القرية . تبعها أوكونكوو وزوجته على مسافة لائقة . فقد اعتقدا أن الكاهنة قد تكون ذاهبة إلى بيتها ، لكنها مضت إلى مجمع أوكونكوو ، وتجاوزت أوييه ودخلت كوخ إيكوي ثم غرفة نومها . وضعت إيزينما بعناية على السرير وخرجت دون أن توجه كلمة إلى أحد .

كانت إيزينما لا تزال نائمة عندما كان كل الآخرين في حركة دائبة ، طلبت إيكوي من أم نووي وأوجيوجو أن تشرحا لزوجة أوييريكاً بأنها ستأخر . كانت قد أعدت سلة الكوكو - يام والسّمك ، لكنها لابد أن تنتظر إيزينما حتى تستيقظ .

قالت أم نووي : «أنت أيضاً بحاجة إلى النوم . تبدين متعبة جداً» .

فيما كانتا تتبادلان الحديث ، ظهرت إيزينما من الكوخ ، وهي تفرك عينيها وتمطى بهيكلها النحيل . رأت الأطفال الآخرين يحملون جرار الماء ، فتذكرت أنهم سيذهبون لجلب الماء إلى زوجة أوييريكاً . فعادت إلى الكوخ وأحضرت جرتها .

سألت أمها : «هل نمت كفاية؟»

أجابت : «نعم . لنذهب» .

قالت إيكوي في : «ليس قبل أن تفطري» . ودخلت إلى كوخها لتسخن حساء الخضار الذي طبخته في الليلة الماضية .

قالت أم نووي : «سنذهب . سأخبر زوجة أوييركا بأنك ستأتين فيما بعد» . هكذا مضى الجميع لمساعدة زوجة أوييركا - أم نووي مع أطفالها الأربعة وأجوجو مع طفليها .

فيما كانوا يمرون عبر كوخ أوكونكوو ، سأل : «من سيعدّ لي وجبة بعد الظهر؟»

قالت أجوجو : «سأعود أنا لأعدها» .

كان أوكونكوو يحسّ بالتعب والنعاس أيضاً ، فهو لم ينم مطلقاً طوال الليلة الفائتة ، بالرغم من أن أحداً لم يعرف هذا . لقد شعر بالقلق الشديد ، لكنه لم يظهره . حين لحقت إيكوي في بالكاهنة ، سمح بمرور ما اعتبره فترة معقولة ورجولية ، ثم مضى ومعه سيف التحطيب إلى المقام ، حيث اعتقد أنهما لا بد أن يكونوا موجودين . ولم يخطر بباله أن الكاهنة قد تكون اختارت القيام بجولة في القرى أولاً إلا عندما وصل إلى المقام . فعاد أوكونكوو إلى البيت وانتظر . وحين حسب أنه انتظر كفاية ، عاد مرة أخرى إلى المقام . لكن التلال والكهوف كانت صامتة كالصوت . في رحلته الرابعة فقط ، وجد إيكوي في ، وكان القلق آنذاك قد بلغ به مداه .

كان مجمّع أوييركا يعج بالحركة مثل تل نمل . فنصبت قوائم طبخ

مؤقتة ثلاثية الأرجل في كل فسحة متاحة بتجميع ثلاثة قوالب طوب شوتها الشمس ، ثم أوقدت النار في وسطها . ووضعت قدور الطبخ على القوائم ثم رُفعت عنها ، وسحق القو- فو في مئآت من الهاونات الخشبية . طبخت بعض النساء اليام والقريسة ، وهيات أخريات حساء الخضار . سحق الشباب القو- فو أو كسروا الحطب . وقام الأطفال برحلات لا حصر لها إلى الجدول .

ساعد ثلاثة شباب أويريكا في ذبح العنزتين اللتين ستستخدمان في طبخ الحساء . كانتا عنزتين سميتين جداً ، لكن العنزة الأسمن كانت مقيّدة بحبل طويل إلى وتد قرب سور المجمع . كانت كبيرة بحجم بقرة صغيرة . وقد أرسل أويريكا أحد أقربائه خصيصاً إلى أومويكي لشراء تلك العنزة . كانت هي العنزة التي سيهديها إلى أصهاره حية .

قال الشاب الذي أرسله أويريكا لشراء العنزة العملاقة : «إن سوق أومويكي مكان مدهش ، إنها تعج بالناس بحيث لو ألقيت حبة رمل لما وَجَدت منفذاً لتسقط على الأرض مرة أخرى» .

قال أويريكا : «هذا نتيجة دواء عظيم . لقد أراد سكان أومويكي أن تكبر سوقهم وتبتلع أسواق جيرانهم . لذلك صنعوا دواءً قوياً . وفي كل يوم سوق ، وقبل صيحة الديك الأولى ، يقف هذا الدواء في ساحة السوق بهيئة امرأة عجوز تحمل مروحة . وبهذه المروحة السحرية تشير إلى جميع العشائر المجاورة داعية إياها إلى السوق ؛ فتشير إلى الأمام والخلف ، وإلى اليمين واليسار» .

قال رجل آخر : «هكذا يأتي الجميع : الشرفاء والصوص . يمكنهم سرقة وشاحك عن خصرك في تلك السوق» .

قال أوبيركا : «نعم . لقد حذرت نوانكوو بأن يبقي عينيه وأذنيه مفتوحة جيداً . فقد حدث ذات مرة أن ذهب شخص لبيع عنزه . فقادهما بحبل غليظ ربطه حول معصمه . لكنه لاحظ ، بينما كان ماشياً في السوق ، أن الناس يشيرون إليه كما يشيرون إلى رجل مجنون ، لم يفهم هذا إلا عندما التفت إلى الخلف وشاهد أن ما كان يقوده في نهاية الحبل ليس عنزة ، بل كتلة ثقيلة من الخشب» .

سأل نوانكوو : «هل تعتقد أن لصاً يستطيع أن يقدم على ذلك النوع من العمل بمفرده؟»

قال أوبيركا : «لا . إنهم يستخدمون دواء» .

عندما ذبحوا العزتين ، وصقوا دمهما في طاسة ، رفعوهما فوق نار مكشوفة لإحراق الشعر ، امتزجت رائحة الشعر المحترق برائحة الطبخ . ثم غسلوهما وقطعوهما للنسوة اللواتي يعددن الحساء .

جرى كل نشاط تل النمط هذا بسلاسة إلى أن قطع فجأة . إذ انطلقت صرخة آتية من بعيد : أوجي أودو آتشي ايجيجي -أو- أو ! (التي تستخدم ذنبها لطرد الذباب !) وتركت كل امرأة العمل الذي كانت تقوم به على الفور واندفعن جميعاً في اتجاه الصرخة .

صاحت تشيلو الكاهنة : «لا يمكن أن ندفع جميعاً على هذا النحو ونترك ما نطبخه لتحرقه النار . يجب أن تبقى ثلاث أو أربع نساء هنا» .

قالت امرأة أخرى : «هذا صحيح . سنسمح لثلاث أو أربع نساء بالبقاء» .

وتخلّفت خمس نساء للعناية بقدور الطبخ ، واندفعت كل الأخريات لرؤية البقرة التي أفلتت من عقالها . لما شاهدنها ، طردنها باتجاه مالکها الذي دفع فوراً الغرامة الباهظة التي تفرضها القرية على كل من تفلت بقرته في غلال الجيران . وعندما تقاضت النسوة الغرامة ، تفقدن بعضهن لينظرن إن كانت أي امرأة قد تخلّفت عن القدوم حين انطلقت الصيحة .

سألت إحداهن : «أين مجبوجو؟»

قالت جارة مجبوجو : «إنها لا تزال مريضة في الفراش . هي مريضة بالإيبا» .

قالت امرأة أخرى : «المرأة الوحيدة الأخرى هي أودينكوو . طفلها لم يبلغ يومه الثامن والعشرين بعد» .

عادت النسوة اللواتي لم تطلب زوجة أو ييریکا مساعدتهن في الطبخ إلى بيوتهن ، ورجعت البقية ، دفعة واحدة ، إلى مجمع أو ييریکا .

سألت النساء اللواتي سمح لهن بالتخلّف : «بقرة من هذه؟»

قالت إيزيلاجبو : «إنها بقرة زوجي . وقد فتح أحد الأطفال الصغار بوابة سقيفة البقر» .

في وقت مبكر من بعد الظهر ، وصل أول زقين من نبذ النخيل من أصهار أو ييریکا . وقُدّما ، حسب الأصول ، إلى النساء اللواتي شربن كأساً

أو كأسين ، لمساعدتهن على الطبخ . أرسل قليل من النبيذ أيضاً إلى العروس والفتيات الملازمات لها واللواتي كن يضعن لمسات الموسيقى الأخيرة المرفهة على تسريحة شعرها ويدهنّ بشرتها الناعمة بخشب الكام .

حين بدأت حرارة الشمس تخفّ ، تناول مادوكا ، ابن أوبيركا ، مكنسة طويلة ، وكنس الأرض أمام أوبيّ أبيه . وكما لو أنهم كانوا في انتظار ذلك ، شرع أقارب أوبيركا وأصدقاؤه بالوصول ، وكل منهم يعلّق كيس جلد الماعز على إحدى كتفيه ويحمل حصيرة جلد الماعز أيضاً تحت إبطه . رافق بعضهم أبناءهم الحاملين مقاعد خشبية منقوشة . وكان أوكونكوو واحداً منهم . جلسوا في نصف دائرة وبدأوا يتجاذبون أطراف الحديث حول أمور شتى . فلن يمر وقت طويل قبل أن يحضر طالبويد العروس .

أخرج أوكونكوو قنينة سعوطه وقدمها لاجبوي في إيزينوا ، العجّال إلى جانبه . تناولها إيزينوا ، ودقّ بها على رصفه ركبته ، وفرك كفه اليسرى بجسده ليحففها قبل أن يرش قليلاً من السعوط عليها . كانت أفعاله مدروسة ، وتكلم وهو يقوم بها : «أمل أن يحضر أصهارنا زقافاً كثيرة من النبيذ . ومع أنهم ينتمون إلى قرية معروفة بالبخل ، إلا أنهم يجب أن يعرفوا أن أكويكي عروس جديرة بملك » .

قال أوكونكوو : «لن يتجرؤوا على إحضار أقل من ثلاثين زقاً . وسأخبرهم برأيي إن أحضروا أقل » .

في تلك اللحظة ، ساق مادوكا ، ابن أوبيركا ، العنزة الضخمة من

المجمّع الداخلي ليراها أقارب أبيه . أبدى الجميع إعجابهم بها وقالوا إنه هكذا يجب أن تُصَرَّف الأمور . ثم أعيدت العنزة إلى المجمّع الداخلي .

بعد فترة وجيزة ، بدأ الأصهار بالوصول . فوصل أولاً الشباب والأولاد في صف واحد ، وكل منهم يحمل زقاً من النبيذ . عدّ أقارب أوبيريكا الزقاق بينما كانوا يدخلون . عشرون ، خمسة وعشرون . مرت فترة توقف طويلة ، وتبادل الضيوف النظرات كما لو أنهم أرادوا القول : «لقد قلنا لكم» . ثم أتت زقاق أخرى . ثلاثون ، خمسة وثلاثون ، أربعون ، خمسة وأربعون . فأوماً الضيوف برؤوسهم استحساناً وبدوا كأنهم يقولون : «ها هم يتصرفون الآن كرجال» . بلغ المجموع خمسين زق نبيذ . بعد حملة الزقاق ، قدم إيسي ، طالب يد البنت ، مع شيوخ عائلته . جلسوا مكونين نصف قمر ، مكملين بذلك الحلقة مع مضيفيهم . ووضعت زقاق النبيذ في وسطهم . ثم خرجت العروس مع أمها ونصف دزينة نساء وبنات من المجمّع الداخلي ، ودرن حول الدائرة وصافحن جميع الجالسين . قادت أم العروس المجموعة ، تتبعها العروس ثم النساء الأخريات . وقد ارتدت المتزوجات منهن أبهى أقمشتهن وزيّنت البنات خصورهن بالخرز الأسود والأحمر وكواحلهن بخلاخل النحاس الأصفر .

حين انسحبت النسوة ، قدم أوبيريكا جوز الكولا لأصهاره . كسر أخوه الأكبر الجوزة الأولى . قال وهو يكسرها : «الحياة لنا جميعاً . لتنعقد أواصر الصداقة بين عائلتكم وعائلتنا» .

أجاب الحشد : «إي - ي - ي !»

- «نحن نعطيكم ابنتنا اليوم . ستكون زوجة طيبة لكم وستنجب لكم تسعة أبناء مثل أم بلدتنا» .

- «إي - ي - ي !»

رد أكبر الرجال سنأ في معسكر الزوآر : «سيكون هذا حسناً لكم ، وسيكون هذا حسناً لنا» .

- «إي - ي - ي !»

- «هذه ليست أول مرة يأتي فيها قومي ليتزوجوا من بناتكم ، فقد كانت أمي واحدة منكم» .

- «إي - ي - ي !»

- «ولن تكون هذه هي المرة الأخيرة ، لأنكم تفهموننا ونحن نفهمكم . أنتم عائلة عظيمة» .

- «إي - ي - ي !»

تطلع في اتجاه أوكونكوو : «رجال ناجحون ومحاربون عظماء . ستلد ابنتكم لنا أبناء مثلكم» .

- «إي - ي - ي !»

أكلت الكولا وبدأ شرب نبيذ النخيل . جلست كل مجموعة من أربعة أو خمسة رجال وقد وضع زق نبيذ وسطهم . حين ولّى الجزء الأكبر من المساء ، قدّم الطعام إلى الضيوف . كانت هناك طاسات ضخمة من الفو - فو وقدور من المرق يتصاعد منها البخار . وقدور حساء يام . كانت حقاً وليمة فخمة .

حين حلّ الليل ، ثبتت المشاعل على ركائز خشبية ثلاثية القوائم ورفع الشباب عقيرتهم بالغناء . جلس الشيوخ في حلقة واسعة ودار المغنون عليهم متوقفين عندهم فرداً فرداً مادحين كل واحد منهم . كان لديهم ما يقولونه لكل رجل منهم . فقد كان بعضهم مزارعين عظماء ، وبعضهم خطباء متحدثين باسم العشيرة ، وكان ، وكونكو وأعظم المصارعين والمحاربين الأحياء . حين أنهوا جولاتهم حول الحلقة ، جلسوا في الوسط ، وأتت الفتيات من داخل المجمع للرقص . لم تكن العروس بينهن في البداية . لكن ، حين ظهرت أخيراً تحمل ديكاً في يدها اليمنى ، علا هتاف الجمع تحية لها . أفسحت الراقصات الأخريات الطريق أمامها . وقدمت الديك إلى العازفين وبدأت الرقص . رنت خلاخلها النحاسية مع الرقص والتمتع جسدها المدهون بخشب الكام في الضوء الأصفر الخافت . انتقل الموسيقيون ، وهم يعزفون على آلاتهم الخشبية والطينية والمعدنية ، من أغنية إلى أخرى . غمرت البهجة الجميع . وغنوا أحدث أغنية في القرية .

«إذا أمسكتُ بيدها

تقول : «لا تلمسني !»

وإذا أمسكتُ بقدمها

تقول : «لا تلمسني !»

لكن ، حين أحضن خرزات خصرها

تتظاهر بأنها لا تدري .

كان الجزء الأكبر من الليل قد انقضى حين نهض الضيوف للرحيل ،
آخذين معهم العروس لتمضي سبعة أسابيع عند عائلة زوجها المقبل .
رددوا الأغاني أثناء ذهابهم ، وقاموا في الطريق بزيارات مجاملة قصيرة
للرجال البارزين مثل أوكونكوو ، قبل أن يتركوا القرية أخيراً قاصدين
قريتهم . فقدم إليهم أوكونكوو ديكين هدية .

فصل ١٣

جو- دي- دي- جو- جو- دي- جو . دي- جو- جو- دي- جو . كان
ذاك صوت الإيكوي وهو يخاطب العشيرة . وكان من بين الأشياء
المفروض على كل شخص تعلمها لغة تلك الآلة الخشبية المجوّفة .
دييم! ديلم! ديلم! دوى صوت المدفع بين آن وآخر .

لم يكن الديك الأول قد صاح ، وكانت أومووفيا غارقة في النوم
والصمت عندما بدأ الإيكوي يتكلم ومزّق المدفع الصمت . تقلّب القوم
في أسرتهم المصنوعة من الخيزران وأصغوا بقلق . توفي شخص . بدا
صوت المدفع وكأنه يمزق السماء . دي- جو- جو- دي- جو- دي- دي
- جو- جو . انساب نسيم الليل حاملاً الرسالة . واستقر عويل النساء
الخافت البعيد مثل رسالة من الأسى على الأرض . بين آن وآخر ، وكلمما
وصل رجل إلى مجلس الموت ، كان صوت ندب صارخ يرتفع فوق
العويل . كان القادم يرفع صوته مرة أو مرتين معبراً برجولة عن حزنه ثم
يجلس مع الرجال الآخرين ينصت إلى عويل النساء المتواصل وحديث
الإيكوي الأسطوري . ويدوي هدير المدفع بين حين وآخر . لم يكن عويل
النساء يصل إلى خارج حدود القرية ، لكن الإيكوي أوصل النبأ إلى جميع

القرى التسع ، وحتى إلى ما ورائها . بدأ بتسمية العشيرة : أومووفيا أوبودو ديكي ، «أرض الشجعان» . أومووفيا أوبودو ديكي ! أومووفيا أوبودو ديكي ! كرر ذلك مرة إثر مرة ، وكلما تمهل في ترددها ، ازداد القلق في كل قلب أطلق أنفاسه في تلك الليلة وهو على سرير خيزران . اقترب الإيكوي أكثر فأكثر وسمى القرية : «إيجويدو حجر الرحي الأصفر» ! . كانت قرية أوكونكوو . تردد اسم إيجويدو مراراً وتكراراً ، فانظر الرجال في القرى التسع حابسين أنفاسهم . في النهاية ذكر اسم الرجل ، فتنهد القوم «إيو-و ، إيزودو مات» . سرت رجفة قارسة في ظهر أوكونكوو وهو يتذكر آخر مرة زاره فيها الرجل العجوز . قال : «ذاك الصبي يدعوك أباه . لا تشارك في قتله» .

كان إيزودو رجلاً عظيماً ، فاحتشد جميع أفراد العشيرة في جنازته . قرعت طبول الموت العتيقة ، وأطلقت نيران البنادق والمدفع ، واندفع الرجال في جميع الاتجاهات بهياج ، فقطعوا كل شجرة مروا بها ومزقوا كل حيوان شاهده ، وقفزوا فوق الجدران ورقصوا فوق السطوح . كانت جنازة محارب ، ومن الصباح إلى الليل أتى المحاربون وولوا أفواجاً حسب فئات أعمارهم . وقد ارتدى كلهم التنانير المصنوعة من ليف نخيل الرافية المدخن ودهنت أجسامهم بالطباشير والفحم . ومن حين إلى آخر ، ظهرت من باطن الأرض روح من أرواح الأجداد أو إيجووجوو ، متحدثاً بصوت متهدج غير أرضي وهو مغطى تماماً بليف نخيل الرافية . كان بعض الإيجووجوو عنيفاً جداً ، وقد فرّ الناس مذعورين في وقت سابق من النهار بحثاً عن ملجأ حين ظهر أحدهم حاملاً سكيناً ماضية ، ولم يحل بينه

وبين إلحاق الأذى الجديّ بمن يحيط به من الناس إلّا وجود رجلين كبحا
جماحه بحبل قوي مربوط حول خصره . كان يستدير أحياناً ويطاردهذين
الرجلين ، فيهربان لينجوا بجلديهما ، لكنهما كانا يرجعان دائماً إلى الحبل
الطويل المجرور وراءه . كان يغني ، بصوت مرعب قائلاً إن إيكوينو ،
الروح الشريرة ، دخلت في عينه .

لكن الإيجووجوو الأفظع سيأتي بعد قليل . وهو وحيد دائماً ، وله
شكل تابوت . وحيثما يولّى وجهه ، يعبق الهواء برائحة كريهة ، كما أن
الذباب يتنقل معه . حتى أعظم رجال الطب كانوا يفزعون إلى ملجأ لدى
اقترابه منهم . فقبل سنوات عديدة ، تجاسر ايجووجوو آخر على الصمود
أمامه ، فكانت النتيجة أن سحره في موضعه وثبته هناك مدة يومين . كان
هذا بذراع واحدة ويحمل سطلاً مملوءاً بالماء .

لكن بعض الإيجووجوو كانوا غير مؤذنين أبداً . كان أحدهم عجوزاً
واهن القوى إلى حد أنه راح يتوكأ بتثاقل على عصا . سار بخطى متعثرة
إلى حيث سجي الجثمان ، وحدّق فيه برهة ثم مضى بعيداً - إلى عالم
تحت الأرض .

لا تبعد أرض الأحياء كثيراً عن مملكة الأجداد . ويجري تزاور بينهم ،
خاصة في المهرجانات وحين يموت عجوز أيضاً ، فالعجوز يكون قريباً
جداً من الأجداد . وحياة المرء من الميلاد إلى الوفاة سلسلة من طقوس
انتقالية تدنيه شيئاً فشيئاً من أجداده .

كان أيزودو أكبر المعمرين سنّاً في قريته ، وحين وفاته ، كان في

العشيرة بأكملها ثلاثة شيوخ فقط أكبر منه سنًا ، وأربعة أو خمسة آخرون في نفس فئة عمره . وعندما كان واحد من هؤلاء يظهر وسط الجمهور ليؤدي ، بخطوات غير ثابتة ، رقصة القبيلة الجنائزية ، كان الرجال الأصغر سنًا يفسحون له المجال ويهدأ الضجيج .

كانت جنازة عظيمة ، لائقة بمحارب نبيل . ومع اقتراب المساء ، تزايد الصراخ وإطلاق النار من البنادق ، وتعالى قرع الطبول والتلويح بسيوف التحطيب وصليلها .

نال إيزيودو ثلاثة ألقاب في حياته . وهذا إنجاز نادر . ففي العشيرة أربعة ألقاب فقط ، ولا ينال اللقب الرابع والأرفع رتبة إلا رجل أو رجلان في أي جيل . وحين يحققون هذا ، يصبحون سادة البلاد . ولأن إيزيودو كان من حملة الألقاب ، فلا بد أن يدفن بعد حلول الظلام ووهج جمر يضيء فقط الطقس المقدس .

لكن ، قبل هذا الطقس الهادي والختامي ، تضاعف الصخب عشرة أضعاف . قرعت الطبول بعنف ووثب الرجال في الهواء بجنون . أطلقت النيران في جميع الاتجاهات وتطاير شرر ، وصلصلت سيوف التحطيب متصادمة تحيةً للمحاربين . عجّ الجو بالغبار ورائحة البارود . عندئذ ، أتى الروح وحيد اليد ، حاملاً سطل ماء . أخلى القوم السبيل أمامه من كل الجهات وخمد الضجيج . حتى رائحة البارود ابتلعها الرائحة الكريهة التي عبق بها الجو الآن . رقص بضع خطوات على وقع الطبول الجنائزي ثم ذهب لرؤية الجثمان .

نادى بصوته الحلقيّ : « ايزودو ! لو كنت فقيراً في حياتك الماضية
لطلبت منك أن تكون غنياً عندما تعود ؛ لكنك كنت غنياً . لو كنت جباناً ،
لطلبت منك أن تجلب الشجاعة ؛ لكنك كنت محارباً لا يعرف الخوف .
لو توفيت وأنت شاب ، لطلبت منك أن تحصل على الحياة . لكنك عشت
طويلاً ؛ لذلك سأطلب منك أن تعود تماماً كما جئت من قبل . إذا كان
موتك موتاً طبيعياً ، فاذهب بسلام . لكن إذا كان رجل تسبب فيه ، فلا
تدعه يتمتع بلحظة راحة » . ورقص الروح بضع خطوات أخرى ومضى في
حال سبيله .

استؤنف قرع الطبول والرقص وتصاعدت حرارتهما حتى بلغت حرارة
الحمى . كان الظلام حول الركن ، اقترب موعد الدفن . فأطلقت البنادق
تحتها الأخيرة ومزق المدفع السماء . فجأة ، انطلقت من وسط الغضب
الهادي صرخة ألم وصيحات رعب . بدا كأن سحراً ألقى . فصمت
الجميع . وهناك في وسط الحشد ، تمدد صبي غارقاً في بركة من الدم .
كان ابن المتوفي يبلغ من العمر ستة عشر عاماً ، وقد كان يرقص مع إخوانه
وأشقائه من أبيه رقصة الوداع التقليدية لأبيه حين انفجرت بندقية أوكونكوكو
واخترقت قطعة حديد قلب الغلام .

لم يقع في تاريخ أومووفيا نظير للاضطراب الذي أعقب الحادث .
فالفيات العنيفة مألوفة ، لكن شيئاً كهذا لم يحدث إطلاقاً .

كان السبيل الوحيد المفتوح أمام أوكونكوكو هو الفرار من العشيرة .
فقتل فرد من أفراد العشيرة جريمة ضد ربة الأرض لا بد أن يفرّ مرتكبها من

البلاد . فالجريمة نوعان : ذكر وأنثى . كانت جريمة أوكونكوو أنثى ، لأنها كانت غير متعمدة . وهو يستطيع أن يعود إلى العشيرة بعد سبع سنوات .

في تلك الليلة ، جمع أوكونكوو أئمن ممتلكاته في صرريمكن حملها على الرأس . بكت زوجاته بحرقة ، وبكى أطفالهن معهن دون أن يعرفوا السبب . حضر أوييريكا ونصف دزينة أصدقاء آخرين لمساعدته ومواساته . وقام كل منهم بتسع أو عشر رحلات حاملاً أيام أوكونكوو إلى مخزن أوييريكا لحفظه هناك . وقبل أن يصيح الديك ، كان أوكونكوو وعائلته يفرون إلى بلد أمه . وهي قرية صغيرة تدعى مباننا ، تقع وراء حدود مبانو تماماً .

ما أن طلع النهار حتى اكتسح جمهور كبير من مجمّع إزيودو منزل أوكونكوو ، لابسين زي الحرب ؛ فأحرقوا أكواخه ؛ وهدموا أسواره الحمراء ؛ وقتلوا حيواناته ودمروا مخزن غلاله . كانت تلك هي عدالة ربة الأرض وهم مجرد رسلها . لم يكن في قلوبهم أي حقد على أوكونكوو . وقد كان أعز أصدقائه ، أوييريكا ، بينهم . كانوا فقط يطهّرون الأرض التي دنّسها أوكونكوو بدم ابن من أبناء عشيرته .

كان أوييريكا رجلاً يفكر في الأشياء . عندما نُفذت إرادة ربة الأرض ، جلس أوييريكا في أوييه وتوجع للكارثة التي حلّت بصديقه . لماذا يجب أن يقاسي رجل على هذا النحو المحزن بسبب إساءة ارتكبها دون قصد؟ لكن ، ورغم أنه فكر طويلاً ، إلا أنه لم يتوصل إلى جواب . قاده هذا التفكير إلى تعقيدات أعظم فقط . وتذكّر توأمي زوجته اللذين طرحهما

بعيداً . أي جريمة ارتكباها؟ لقد قضت الأرض بأنهما إساءة للبلد ولا بد أن يهلكا . وإذا لم تنفذ العشيرة عقاباً على إساءة ضد الربة العظيمة ، فسيحل غضبها على البلد كلها وليس على المسيء فقط . وكما يقول الشيوخ : إذا ابتل أصبع بالزيت فانه سيلوث الأصابع الأخرى .

الجزء الثاني

فصل ١٤

استقبل أوكونكوو استقبلاً حسناً من قبل أهل أمه في مباننا . كان الشيخ الذي استقبله أخاً أمه الأصغر ، الذي أصبح الآن أكبر الأحياء سنّاً في تلك العائلة . كان اسمه أوتشيندو ، وكان هو الذي استقبل أم أوكونكوو قبل عشرين وعشر سنوات عندما أحضرت من أوموفيا لتدفن مع أهلها . كان أوكونكوو آنذاك مجرد صبي ولا يزال أوتشيندو يتذكره باكياً يردد الوداع التقليدي : «أمي ، أمي ، أمي راحلة» .

حدث ذلك منذ سنوات عديدة . واليوم لم يحضر أوكونكوو أمه إلى موطنها لتدفن مع أهلها . بل أحضر عائلته المؤلفة من ثلاث زوجات وأطفالهن لاجئاً إلى بلاد أمه . حالما رآه أوتشيندو برفقة جماعته الحزينة والمتعبة ، خمن ما حدث ، فلم يطرح أية أسئلة . في اليوم التالي فقط ، روى له أوكونكوو القصة كاملة . استمع الشيخ بصمت إلى النهاية ثم قال بشيء من الارتياح : «إنها أوتشو أنشى» . ورتب الطقوس والقرايين المناسبة .

منح أوكونكوو قطعة من الأرض لبني عليها مجمعه ، وقطعتين أو ثلاثاً ليزرعها في موسم الزراعة القادم . وبمساعدة أهل أمه ، بنى أوبي لنفسه

وثلاثة أكواخ لزوجاته . ثم نصب إلهه الشخصي ورموز آبائه الراحلين .
ساهم كل من أبناء أوتشيندو الخمسة بثلاثمائة بذرة يام لتمكين ابن عمتهم
من زراعة مزرعة ، فحالما يهطل أول مطر ، ستبدأ الزراعة .

أخيراً ، أتى المطر . كان مطراً فجائياً وغزيراً جداً . فقد ظلت الشمس
على مدى قمرين أو ثلاثة أقمار تزداد قوة إلى أن بدت كأنها تنفث أنفاس نار
على الأرض . واحترق العشب كله منذ فترة طويلة وأصبح بنيّ اللون ،
ولسع الرمل باطن الأقدام كالجمر المشتعل . واكتست الأشجار دائمة
الخضرة بكساء مغبر بنيّ اللون . صمتت الطيور في الغابات ، ورقد العالم
لاهثاً تحت وطأة الحرارة الحارقة المرتعشة . ثم أتى قصف الرعد . كان
قصفاً غاضباً ومعدنياً وظامئاً ، لا يشبه في شيء قرقة سائل الفصل
الممطر . هبت رياح عاتية وملأت الجو بالغبار . وترنحت أشجار النخيل
فيما مشطت الريح أوراقها مكونة قمماً متطايرة كشعر غريب وخيالي .

حين حلّ المطر أخيراً ، هطل على شكل حبات ماء كبيرة متجمدة
يدعوها الناس : «جوز ماء السماوات» . وهي قاسية ومؤلمة على الجسم
حين تسقط ، لكن الصبية تراكضوا هنا وهناك فرحين والتقطوا الجوز البارد
ورموه في أفواههم ليزدوب .

دبّت الحياة بسرعة في الأرض وخفقت الطيور بأجنحتها في الغابات
وغرّدت بمرح . عقب الجو برائحة غامضة موحية بالحياة والخصب
الأخضر . حين بدأ المطر ينهمر برزانة أكثر وبقطرات سائل أصغر حجماً ،
احتمى الأطفال منه ، وأحس الجميع بالسعادة ، متعشّين وشاكرين .

كدح أوكونكوو وعائلته بجد ليزرعوا مزرعة جديدة . لكن وضعه كان كمن يبدأ حياة جديدة دون حيوية وحماس الشباب ، كتعلم استعمال اليد اليسرى في الشيخوخة . فلم يعد العمل يثير في نفسه متعة كالسابق ، وحين لا يكون لديه ما يفعله كان يجلس صامتاً شبه نائم .

كانت حياته محكومة بعاطفة جامحة عظيمة - أن يصبح واحداً من سادة العشيرة . كان ذلك هو ينبوع حياته . وحقق كل شيء إلا هذا . ثم تحطم كل شيء . ونبذ من عشيرته كسمكة ألقيت وهي تلهث على شاطئ رملي جاف . من الواضح أن إلهه الشخصي أو التشي ليس مهيباً لتحقيق أمور عظيمة . والانسان لا يستطيع أن يتجاوز قدر تشيّه . ليس صحيحاً قول الحكماء أن رجلاً إذا قال نعم فإن تشيّه يؤكد هذه النعم . فهذا هو رجل قال تشيّه لا ، رغم أنه هو نفسه قال نعم .

لاحظ الشيخ أوتشيندو بوضوح أن أوكونكوو استسلم لليأس ، فأقلقه هذا قلقاً عظيماً . فعزم على التحدث إليه بعد احتفال الأيسا - إيفي .

كان أصغر أبناء أوتشيندو الخمسة ، أميكوو ، على وشك الزواج مجدداً . فقد دفع مهر العروس ولم يبق سوى الاحتفال الأخير . فقد حمل أميكوو وقومه نبيذ النخيل إلى أهل العروس قبل قمرين من مجيء أوكونكوو إلى مباتنا . هكذا حان وقت الاحتفال بالاعتراف النهائي .

وصلت جميع بنات العائلة إلى هناك ، وقد قطعت بعضهن مسافة طويلة للقدوم من بيوتهن الكائنة في قرى نائية . فقد أتت كبرى بنات أوتشيندو من أوبودو ، على مسافة رحلة نصف نهار تقريباً . وكانت بنات

إخوان أوتشيندو هناك أيضاً . فكان اجتماعاً كاملاً للأمواد ، بالطريقة نفسها التي سيجتمعون حسبها إذا حدثت وفاة في العائلة . اجتمعت اثنتان وعشرون منهن .

جلسن في دائرة كبيرة على الأرض وجلست العروس في الوسط حاملة دجاجة بيدها اليمنى . جلس أوتشيندو إلى جانبها ممسكاً بعصى أجداد العائلة . وقف بقية الرجال خارج الدائرة ، يراقبون . وراقبت زوجاتهم أيضاً . كان الوقت مساء وراحت الشمس تغرب .

طرح ابنة أوتشيندو الكبرى ، نجيدي ، الأسئلة .

بدأت : «تذكري أنك إن لم تقولي الصدق فسوف تقاسين بل وحتى ستموتين أثناء الوضع . كم رجلاً ضاجعك منذ أن أبدى أخي لأول مرة رغبته في الزواج منك؟»

أجابت ببساطة : «لاأحد» .

حثتها النساء الأخريات : «أجيبى بصدق» .

سألت نجيدي : «لاأحد؟»

أجابت : «لاأحد» .

قال أوتشيندو : «أقسمي بعصا آبائي هذه» .

قالت العروس : «أقسم» .

فأخذ أوتشيندو الدجاجة منها ، وذبح حلقها بسكين حادة وترك بضع قطرات من الدم تسقط على عصا أجداده .

منذ ذلك اليوم ، أخذ أميكوو العروس الشابة إلى كوخه وأصبحت

زوجته . لم تعد بنات العائلة مباشرة إلى بيوتهن ، بل أمضين يومين أو ثلاثة أيام مع أهلهن .

في اليوم التالي ، جمع أوتشيندو أبناءه وبناته وابن أخته ، أوكونكوو . أحضر الرجال حصائرهم من جلد الماعز ، وجلسوا فوقها على الأرض ، وجلست النسوة على حصير من سيسال فرش على دكة مرتفعة من الأرض . شدّ أوتشيندو لحيته البيضاء برفق وعض على أسنانه . ثم بدأ يتكلم ، بهدوء وبطء ، مختاراً كلماته بحرص شديد :

بدأ : «أريد أن أتكلّم بالأساس مع أوكونكوو . لكنني أريدكم كلكم أن تلاحظوا ما سأقوله . أنا شيخ عجوز وأنتم كلكم أطفال . أنا أعرف عن شؤون الدنيا أكثر من أي واحد منكم . وإذا كان أحدكم يعتقد أنه يعرف أكثر مني ، فليتكلم بصوت عالٍ . توقف برهة ، لكن أحداً لم يتكلم . لماذا يعيش أوكونكوو معنا اليوم؟ هذه ليست عشيرته . إننا مجرد أقرباء أمه . وهو لا ينتمي إلى هنا . إنه منفي ، محكوم عليه أن يعيش سبع سنوات في أرض غريبة . لذلك فالأسى يحني ظهره . لكن هناك سؤالاً واحداً أريد أن أطرحه عليك . هل تستطيع أن تخبرني يا أوكونكوو : لماذا نطلق على أطفالنا أحد أكثر الأسماء انتشاراً وهو : ننيكا ، أو «الأم هي الأسمى»؟ نحن كلنا نعرف أن الرجل هو رب العائلة وزوجاته يطعن أوامرهم . والطفل ينتمي إلى أبيه وعائلته وليس إلى أمه وعائلتها . والرجل ينتمي إلى أرض آبائه وليس إلى أرض أمه . مع ذلك نقول ننيكا - «الأم هي الأسمى» . لماذا نفعل ذلك؟» .

ساد الصمت . ثم قال أوتشيندو : «ليجوابني أوكونكوو» .

قال أوكونكوو : «لا أعرف الإجابة» .

- «لا تعرف الإجابة؟ هكذا ترى أنك طفل . إن لديك زوجات كثيرات وأطفالاً كثيرين - أكثر مما لدي من أطفال . وأنت رجل عظيم في عشيرتك . لكنك لا تزال طفلاً . استمع إليّ وسأخبرك . لكن هناك سؤالاً آخر سأسألك إياه . لماذا تُحمل المرأة إلى موطنها الأصلي لتدفن مع أهلها حينما تموت؟ إنها لا تدفن مع أهل زوجها . لماذا يحدث ذلك؟ لقد حملت أمك إلى موطنها ودفنت مع قومي . لماذا حدث ذلك؟»
هزّ أوكونكوو رأسه .

قال أوتشيندو : «إنه لا يعرف ذلك أيضاً ، مع ذلك فهو مفعم بالأسى لأنه أتى ليعيش في أرض أمه بضع سنوات» . أطلق ضحكة خالية من البهجة ، والتفت إلى أبنائه وبناته . «ماذا عنكم؟ هل تستطيعون الإجابة على سؤالتي؟»
هزّ الجميع رؤوسهم .

سلّك حلقه وقال : «إذن استمعوا إليّ . صحيح أن الطفل ينتمي إلى أبيه . لكن الأب عندما يضرب طفله ، يبحث الطفل عن العطف في كوخ أمه . الرجل ينتمي إلى أرض آبائه عندما تسير الأمور برخاء وتكون الحياة حلوة . لكن ، عندما يقع الأسى والمرارة فانه يجد ملجأ في أرض أمه . فأمكم هناك لتحميكم . إنها مدفونة هناك . لذلك نقول إن الأم هي الأسمى . هل من الصواب يا أوكونكوو أن تأتي إلى أمك بوجه ثقيل وترفض السلوى؟ إحذر وإلا أغضبت الموتى . إن واجبك هو أن تريح زوجاتك وأطفالك ، وأن تعود بهم إلى أرض آبائك بعد سبع سنوات .

لكن ، إذا تركت الأسى يثقل عليك ويقتلك ، فإنهم سيموتون جميعاً في المنفى . توقف لفترة طويلة . « هؤلاء هم أهلك الآن » . وأشار بيده إلى أبنائه وبناته . « أنت تعتقد أنك المعاني الأكبر في العالم ؟ هل تعرف أن الرجال يُنفون من أوطانهم أحياناً مدى الحياة ؟ هل تعرف أن الرجال يفقدون أحياناً جميع يامهم وحتى أطفالهم ؟ كانت لدي ست زوجات ذات مرة . وليس لدي الآن سوى تلك الفتاة الصغيرة التي لا تعرف يمينها من شمالها . هل تعرف كم طفلاً دفنت - أطفالاً أنجبتهم في شبابي وفتوتي ؟ اثنان وعشرون . لم أشنق نفسي ، وما زلت على قيد الحياة . إذا كنت تعتقد أنك المعاني الأكبر في العالم ، اسأل ابنتي ، أكويني ، كم توأماً ولدت وطرحتهم بعيداً . ألم تسمع الأغنية التي ينشدونها عندما تموت امرأة ؟

« لمن تكون الحياة حلوة ، لمن تكون الحياة حلوة ؟

ليس هناك أحد تكون الحياة له حلوة » .

وليس لدي أكثر من هذا لأقوله لك » .

فصل ١٥

في السنة الثانية من نفي أوكونكوو جاء صديقه أوبيركا لزيارته . أحضر معه شابين ، يحمل كل منهما كيساً ثقيلاً على رأسه . ساعدهما أوكونكوو في إنزال حمليهما . كان واضحاً أن الكيسين مليئان بالودع .

سعد أوكونكوو جداً باستقبال صديقه . وسعدت زوجته وأطفاله أيضاً ، وكذلك أبناء خؤولته وزوجاتهم عندما أرسل في طلبهم وأخبرهم بشخصية ضيفه .

قال أحد أبناء خاله : «يجب أن تأخذه لتحية أبنينا» .

لجواب أوكونكوو : «نعم . سنذهب فوراً» . لكن ، وقبل أن يذهبوا ، همس في أذن زوجته الأولى . فأومأت برأسها ، وسرعان ما طارد الأطفال أحد ديوكهم .

أخبر أوتشيندو أحد أحفاده بأن ثلاثة غرباء قدموا إلى دار أوكونكوو . لذلك كان في انتظار استقبالهم . حين وصلوا إلى أوبيه ، مدّ يده نحوهم ، وبعد أن تصافحوا ، سأل أوكونكوو عنهم .

- «هذا أوبيركا ، صديقي الحميم . لقد حدثتك عنه من قبل» .

قال الشيخ ، ملتفتاً إلى أوبيركا : «نعم . حدثني ابني عنك ، وأنا سعيد لأنك أتيت لزيارتنا . لقد عرفتُ أباك ، إيويكا . كان رجلاً عظيماً . وكان له هنا أصدقاء كثيرون ، وكثيراً ما كان يأتي لزيارتهم . تلك كانت أياماً طيبة عندما كان للرجل أصدقاء في عشائر بعيدة . إن جيلكم لا يعرف ذلك . أنتم تمكثون في بيوتكم ، وتخشون جاركم القاطن إلى جانبكم . حتى بلد أم الرجل أصبحت غريبة عليه في هذه الأيام» . ورمق أوكونكوو . «أنا رجل عجوز وأحب الكلام . ذلك هو كل ما أصلح له الآن» . نهض متوجعاً ، ومضى إلى غرفة داخلية وعاد بجوزة كولا .

سأل وهو يعاود الجلوس على جلد الماعز : «مَنْ هما الشابان اللذان معك؟» . فأخبره أوكونكوو .

قال : «آه . أهلاً يا أبنائي» . وعرض عليهم جوزة الكولا ، وحين رآوها وشكروها ، كسرها ، ثم أكلوا منها .

قال لأوكونكوو مشيراً بأصبعه : «أدخل إلى تلك الغرفة . ستجد هناك زق نبيذ» .

جلب أوكونكوو النبيذ وبدأوا في الشرب . كان عمر النبيذ يوماً واحداً ، وقوياً جداً .

قال أوتشيندو بعد فترة صمت طويلة : «نعم . كان الناس يسافرون أكثر في تلك الأيام . وليس في هذه الأنحاء عشيرة واحدة لا أعرفها جيداً جداً . انيتا ، أوموازو ، إيكويتشا ، إيلوميلو ، أبامي - أنا أعرفها جميعاً» .

سأل أوبيركا : «هل سمعت أن أبامي لم يعد لها وجود؟»

سأل أوتشيندو وأوكونكوو معاً : «كيف ذلك؟»

قال أوبيريكا : «لقد محيت أبامي من الوجود . إنها قصة غريبة ومرعبة . لو لم أر بعض الناجين بعيني رأسي وسمعت قصتهم بأذني ، لما صدقت» . سأل رفيقيه : «ألم يكن هذا يوم سوق إيكي حين فروا إلى أوموفيا؟» فأوما برأسيهما موافقين .

قال أوبيريكا : «قبل ثلاثة أعمار ، في يوم سوق إيكي ، وصلت إلى بلدتنا مجموعة صغيرة من اللاجئين الهاريين . كان معظمهم من أبناء أرضنا الذين دُفنت أمهاتهم معنا . لكن كان هناك أيضاً أشخاص أتوا لمجرد أن لهم أصدقاء في بلدتنا ، وآخرون لم يستطيعوا التفكير في أي مكان آخر يفرون إليه . هكذا فروا إلى أوموفيا بقصتهم المحزنة» . شرب نبيذ النخيل ، وملاً أوكونكوو قرنه ثانية . تابع : «في موسم الزرع الماضي ، ظهر رجل أبيض في عشيرتهم» .

قال أوكونكوو : «أمهق» .

رشف نبيذه : «لم يكن أمهق . بل كان مختلفاً تماماً . كان يمتطي حصاناً حديدياً . هرب أول الأشخاص الذين رأوه ، لكنه توقف وأشار إليهم . في النهاية ، اقترب الرجال الشجعان منه حتى لمسوه . شاور الشيوخ وحيهم فأخبرهم أن الرجل الغريب سيحطم عشيرتهم وينشر الدمار بينهم» . شرب أوبيريكا قليلاً من النبيذ مرة أخرى . «لذلك قتلوا الرجل الأبيض وقيدوا حصانه الحديدي إلى شجرتهم المقدسة ، فقد بدا كأنه كان سيهرب ويستدعي أصدقاء الرجل . نسيت أن أخبركم عن أمر آخر قاله الوحي . قال إن رجالاً بيضاً آخرين كانوا في الطريق إليهم . وأنهم جراد وأن الرجل الأول كان رسولهم المؤقت لاستطلاع المنطقة . وهكذا قتلوه» .

سأل أوتشيندو : «ماذا قال الرجل الأبيض قبل أن يقتلوه؟»

أجاب أحد رفيقيّ أويريكا : «لا شيء» .

قال أويريكا : «ردد كلاماً ، لكنهم لم يفهموه . بدا أنه يتكلم من أنفه» .

قال رفيق أويريكا الآخر : «أخبرني أحدهم بأنه ردد مرات عديدة كلمة تشبه لفظ مباينو . ربما كان ذاهباً إلى مباينو وضلّ طريقه» .

استأنف أويريكا : «على أي حال ، قتلوه وربطوا حصانه الحديدي . كان هذا قبل أن يبدأ موسم الزرع . ولم يحدث شيء لفترة طويلة . هطلت الأمطار وبُذِر الياقوت . وظلّ الحصان الحديديّ مقيّداً إلى شجرة القطن الحريريّ المقدسة . ذات صباح ، قدم ثلاثة رجال بيض تقودهم عصبة من أناس عاديين مثلنا إلى العشيرة . رأوا الحصان الحديديّ ، ورحلوا . كان معظم رجال ونساء أبامي قد ذهبوا إلى مزارعهم . فرأى بضعة أفراد منهم فقط هؤلاء الرجال البيض وأتباعهم . لم يحدث شيء آخر طوال أسابيع أسواق كثيرة . في أبامي سوق كبيرة في يوم من كل يوميّ آفو ، فتجتمع العشيرة بأكملها هناك كما تعرفون . كان ذلك هو يوم الواقعة . فقد أحاط الرجال البيض الثلاثة وعدد كبير جداً من رجال آخرين بالسوق . ولابد أنهم استخدموا دواءً قوياً لاختفاء أنفسهم إلى أن امتلأت السوق . ثم بدأوا بإطلاق النار . قتل الجميع ، ما عدا العجائز والمرضى الذين كانوا في بيوتهم وحفنة من الرجال والنساء اللواتي كان تشيّهن يقظاً وقادهن سالمين إلى خارج السوق» . توقف عن الكلام . «عشيرتهم الآن خالية تماماً . حتى السمك المقدس فرّ من بحيرتهم الغامضة ، واستحال لون البحيرة إلى لون الدم . إن شراً عظيماً حلّ بأرضهم ، تماماً كما حذر الوحي» .

سادت فترة صمت طويلة . صرف أوتشيندو بأسنانه بصوت مسموع .
ثم انفجر قائلاً : « لا تقتل أبداً رجلاً لا يقول شيئاً . رجال آبامي أولئك كانوا
حمقى . ماذا عرفوا عن الرجل ؟ » وصرف بأسنانه ثانية وروى قصة لإيضاح
نقطته . « بعثت الحداة الأم مرة ابتتها لإحضار طعام ، فذهبت وعادت بفرخ
من البط . قالت الحداة الأم لا ابتتها : « أحسنت صنعاً ، لكن أخبريني ، ماذا
قالت أم الفرخ عندما انقضضت واختطفَت طفلها ؟ » أجابت الحداة
الصغيرة : « لم تقل شيئاً ، ابتعدت فقط » . قالت الحداة الأم : « يجب أن
تعيدي الفرخ . فوراء الصمت شيء مشؤوم » . هكذا أعادت الحداة الابنة
فرخ البط وأخذت كتكوت دجاجة بدلاً منه . فسألت الحداة العجوز :
« ماذا فعلت أم هذا الكتكوت ؟ » قالت الحداة الصغيرة : « صرخت
وعريدت وشتمتني » . قالت أمها : « إذن ، نستطيع أن نأكل الكتكوت » . فما
يصدر عن الذي يُكثر الصياح لا يخيف » . إن رجال آبامي أولئك حمقى
حقاً » .

قال أوكونكوو بعد فترة صمت : « كانوا حمقى . لقد حذّروا من أن
الخطر أمامهم . كان يجب أن يتسلحوا ببنادقهم وسيوفهم حتى عندما
ذهبوا إلى السوق » .

قال أوبيريكا : « لقد دفعوا ثمن حماقتهم . لكنني خائف جداً . لقد
سمعنا قصصاً عن رجال بيض صنعوا البنادق الفتاكة والشراب القوي
وأخذوا عبيداً إلى ما وراء البحار ، لكن أحداً لم يصدق أن هذه القصص
حقيقية » .

قال أوتشيندو : « ليست هناك قصة غير حقيقية . العالم لا نهاية له ، وما

هو خير عند شعب هو شر مقيت عند شعوب أخرى . إن بيننا رجالاً مُهقاً .
هل تعتقد أنهم جاؤوا إلى عشيرتنا خطأ ، أو أنهم ضلوا طريقهم إلى بلاد
حيث كل مَنْ يعيش فيها يشبهونهم؟»

أنجزت زوجة أوكونكوو الأولى إعداد الطعام خلال فترة وجيزة
وقدمت للضيوف وجبة كبيرة من اليام المسحون ومرق أوراق الأشجار
المرّة . أحضر ابن أوكونكوو ، نووي ، زق نبيد حلو مبزول من نخيل
الرافية .

قال أويريكا لنووي : «أنتَ رجل كبير الآن . صديقك أنيني طلب مني
أن أبلغك تحياته» .

سأل نووي : «هل هو بخير؟»

قال أويريكا : «كلنا بخير» .

أحضرت إيزنما طاسة من الماء ليغسلوا أيديهم به . بعد ذلك شرعوا
يأكلون ويشربون النبذ .

سأل أوكونكوو : «متى انطلقتم من البيت؟»

قال أويريكا : «نونا الانطلاق من بيتي قبل صباح الديك . لكن نويكي
لم يخرج إلّا بعد أن طلع النهار تماماً . يجب ألا يتفق المرء على موعد مبكر
مع رجل تزوج لتوه زوجة جديدة» . وضحك الجميع .

سأل أوكونكوو : «وهل تزوج نويكي؟»

قال أويريكا : «تزوج ابنة أوكا ديجبو الثانية» .

قال أوكونكوو : «ذلك حسن جداً . أنا لآلومك لعدم سماعك صياح الديك» .

عندما انتهوا من الأكل ، أشار أوبيريكا إلى الكيسين الثقيلين .

قال : «هذا المال من يامك . لقد بعثُ حبات الياام الكبيرة فور رحيلك . فيما بعد ، بعث قسماً من بذور الياام ووزعت بعضها على مزارعين محاصصين . سأفعل ذلك كل سنة إلى أن تعود . لكنني أظن أنك قد تحتاج إلى المال الآن ، لذلك أحضرته . مَنْ يُعرف ماذا يمكن أن يحدث غداً؟ قد يأتي رجال خضر إلى عشيرتنا ويقتلوننا رميةً بالرصاص» .

قال أوكونكوو : «لن يسمح الإله بذلك . لا أدري كيف أشكر» .

قال أوبيريكا : «أستطيع إخبارك ، أقتل أحد أبنائك من أجلي» .

قال أوكونكوو : «لن يكون ذلك كافياً» .

قال أوبيريكا : «إذن اقتل نفسك» .

قال أوكونكوو مبتسماً : «اعذرني . لن أردد الشكر لك أكثر مما رددت» .

فصل ١٦

عندما زار أوبيريكا صديقه مرة أخرى في المنفى بعد سنتين كانت الظروف أقل سعادة . فقد وصل المبشرون إلى أومووفيا . بنوا كنيستهم هناك ، وكسبوا حفنة من المهتدين وراحوا يرسلون مبشرين إلى المدن والقرى المجاورة . كان ذلك مصدر أسى كبير لزعماء العشيرة ، لكن كثيراً منهم اعتقدوا أن الإيمان الغريب وإله الرجل الأبيض لن يدوما . لم يكن بين المهتدين أي رجل مسموع الكلمة في اجتماع القوم . كما لم يكن بينهم أي رجل يحمل لقباً . كان معظمهم من نمط الناس المدعوين إيفوليفو ، رجال لا قيمة لهم وخاوين . كانت صورة الإيفوليفو في لغة العشيرة تدل على رجل باع سيفه وتقلد الدرع وانطلق إلى المعركة . وقد دعت تشيلو ، كاهنة أجبالا ، المهتدين ببراز العشيرة ، وقالت إن الإيمان الجديد كلب مسعور جاء لالتهام هذا البراز .

ما دفع أوبيريكا لزيارة أوكونكوو هو الظهور المفاجيء لابن الأخير ، نووي ، بين المبشرين في أومووفيا .

سأله أوبيريكا حين سمح له المبشرون ، بعد صعوبات كثيرة ، بالتحدث إلى الفتى : «ماذا تفعل هنا» .

أجاب نووي : «أنا واحد منهم» .

قال أوبيريكا : «كيف حال أبيك؟» لم يعرف شيئاً آخر يقوله .

قال نووي بتعاسة : «لا أعرف . إنه ليس أبي» .

هكذا ذهب أوبيريكا إلى مباندا ليرى صديقه . فوجد أن أوكوند راغب عن الحديث عن نووي . من أم نووي فقط ، سمع نفاً من القصة .

أحدث وصول المبشرين اضطراباً كبيراً في قرية مباندا . كانوا ستة مبشرين ، واحد منهم فقط رجل أبيض . خرج كل رجل وامرأة لرؤية الرجل الأبيض . فقد تزايدت الروايات حول هؤلاء الرجال المبهين منذ أن قتل واحد منهم في آبامي وربط حصانه الحديدي إلى شجرة القطن الحريري المقدسة . هكذا حضر الجميع لرؤية الرجل الأبيض . كان ذلك هو الوقت من السنة حين يمكن الجميع في منازلهم . إذ كان الحصاد قد انتهى .

حين احتشدوا كلهم . بدأ الرجل الأبيض يتحدث إليهم . تحدث عن طريق مترجم من الإيبو ، لكن لهجته كانت مختلفة وثقيلة الوقع على آذان أبناء مباندا . ضحك كثيرون على لهجته والطريقة التي استعمل بها الكلمات على نحو غريب . فبدلاً من أن يقول «نفسى» قال دائماً «عجيزة» . لكنه كان رجلاً مهيب الحضور واستمع أبناء العشيرة إليه . قال إنه كان واحداً منهم ، كما يرون من لونه ولغته . والسود الأربعة الآخرون هم إخوانهم ، مع أن أحدهم لا يتكلم لغة الإيبو . والرجل الأبيض أيضاً أخوهم لأنهم جميعاً أبناء الرب . أخبرهم عن هذا الرب الجديد ، خالق كل العالم وجميع الرجال والنساء . أخبرهم بأنهم يعبدون آلهة زائفة ، آلهة

من الخشب والحجارة . سرت همهمة عميقة بين الجمهور حين قال هذا . أخبرهم بأن الرب الحقيقي يعيش في الأعالي وأن جميع الناس حين يموتون يمثلون أمام الرب للحساب . فالأشرار وكل الوثنيين الذين ينحنون في عماهم للخشب والحجارة يلقون في نار تشتعل مثل زيت النخيل . أما الرجال الأخيار الذين عبدوا الرب الحقيقي ، فسيحيون إلى الأبد في مملكته السعيدة . قال : «أرسلنا هذا الرب العظيم لنطلب منكم التخلي عن طرقكم الشريرة وآلهتكم الزائفة والتوجه إليه لعلكم تنجون عندما تموتون» .

قال شخص باستخفاف : «عجيزتك تفهم لغتنا» ، وضحك الجمهور . سأل الرجل الأبيض مترجمه : «ماذا قال» . لكن ، وقبل أن يتمكن من الإجابة ، سأل شخص آخر سؤالاً : «أين حصان الرجل الأبيض؟» تشاور مبشرو إيبو فيما بينهم وقرروا أن الشخص ربما عنى دراجة هوائية . أخبروا الرجل الأبيض ، فابتسم هذا بتسامح .

قال : «أخبرهم بأنني سأحضر أحصنة حديدية كثيرة عندما نستقر بينهم . وسيركب بعضهم الحصان الحديدي بأنفسهم» . ترجم جواب الرجل الأبيض ، لكن عدداً قليلاً جداً منهم سمعوه . فقد كانوا يتحدثون فيما بينهم بانفعال لأن الرجل الأبيض قال إنه سيعيش بينهم . فلم يخطر ذلك ببالهم .

في تلك اللحظة قال شيخ أن لديه سؤالاً . سأل : «مَنْ هو إلهكم هذا . ربة الأرض ، إله السماء ، أماديورا الصاعقة ، أو ماذا؟»

تحدث المترجم مع الرجل الأبيض وردّ على السؤال فوراً : «جميع

الآلهة التي سميتها ليست آلهة أبداً . إنها آلهة خداع تأمركم بقتل رفاقكم وإهلاك أطفال أبرياء . هناك إله واحد حقيقي فقط وله ملك الأرض والسماء وأنت وأنا ونحن جميعاً» .

سأل آخر : «إذا تركنا آلهتنا واتبعنا إلهك ، مَنْ سيحمينا من غضب آلهتنا المهملة وأجدادنا؟»

أجاب الرجل الأبيض : «آلهتكم ليست حيّة ولا تستطيع أن توقع بكم أي أذى . إنها قطع من خشب وحجارة» .

حين تُرجم هذا الكلام إلى رجال مبانتا ، انفجروا مقهقهين بسخرية . قالوا فيما بينهم : لا بد أن هؤلاء الرجال مجانين . كيف يقولون إن آني واماديورا غير مؤذنين؟ وإديملي وإيجووجوو أيضاً؟ وبدأ بعضهم بالابتعاد .

عندئذ ، انفجر المبشرون بالانشاد . كانت واحدة من تلك الاناشيد التبشيرية المرححة والبهيجة القادرة على العزف على أوتار ساكنة ومغبرة في قلب إنسان من قبيلة إيبو . شرح المترجم كل بيت من أبيات الانشودة للجمهور ، فوقف بعضهم الآن مفتونين . كانت قصة أخوة عاشوا في الظلام والخوف ، جاهلين حب الرب . وحكت عن غنمة هناك فوق التلال ، بعيدة عن أبواب الرب وعناية الراعي الحنون .

بعد الإنشاد ، تحدث المترجم عن ابن الرب الذي اسمه جيسو كريشي . قال أوكونكوو ، الذي مكث فقط على أمل أن ينتهي الأمر بترد الرجال خارج القرية أو جلدهم : «أخبرتنا بلسانك أن هناك إلهاً واحداً فقط . والآن نتحدث عن ابنه . لا بد وأن له زوجة إذن» . ووافق الجمهور .

قال المترجم ، بالتواء إلى حد ما : «لم أقل إن له زوجة» .

قال العابث : «عجيزتكم قالت إن له ابناً . إذن لابد وأن تكون له زوجة
ولابد أن لهم كلهم أردافاً» .

تجاهله المبشر وواصل كلامه متحدثاً عن الثالث المقدس . في نهاية
هذا ، اقتنع أوكونكوو تماماً أن الرجل مجنون . فهز كتفيه ومضى ليبرز
نيبذ بعد الظهر .

لكن هناك فتى شاباً أسر الحديثُ لبّه . كان اسمه نوويي ، ابن
أوكونكوو البكر . لم يكن منطق الثالث المقدس المجنون هو الذي أسر
لبّه . إنه لم يفهمه . بل كان شعر الدين الجديد ، شيئاً محسوساً في نخاع
العظم . فقد بدا أن الأنشودة عن الأخوة القابعين في الظلام والخوف
تجيب على سؤال غامض وملح سكن روحه الغضة - السؤال عن التوأمين
الباكيين في الأجمة والسؤال عن إيكيميغونا الذي قتل . فأحس بارتياح في
داخله فيما كانت الأغنية تتدفق إلى روحه القاحلة المحترقة . كانت
كلمات الأنشودة مثل قطرات مطر متجمد تذوب في الصفحة الجافة
للأرض اللاهثة الجافة . وانتابت عقل نوويي الغر حيرة شديدة .

فصل ١٧

قضى المبشرون ليلتهم الأربع أو الخمس الأولى في ساحة السوق ،
وذهبوا في الصباح إلى القرية للتبشير بالإنجيل . سألوا عن ملك القرية ،
لكن القرويين أخبروهم بأنه لا يوجد ملك . قالوا لهم : «لدينا رجال
يحملون ألقاباً رفيعة ورؤساء الكهنة والسيوخ» .

لم يكن من السهل جمع حملة الألقاب الرفيعة والسيوخ معاً بعد إثارة
اليوم الأول . لكن المبشرين ألحوا ، فاستقبلهم سادة مباننا في النهاية .
فطلب أولئك قطعة أرض يبنون عليها كنيستهم .

كانت لكل عشيرة وقرية «غابة شر» . وقد دفن فيها كل المتوفين من
الأمراض الشريرة حقاً ، مثل الجدام والجدرى . كما كانت أرض المكب
التي تلقى فيها طواغيت Fetishes رجال الطب العظام بعد موتهم .
لذلك ، كانت «غابة الشر» معمورة بقوى شريرة وقوى ظلام . كانت غابة
كهذه هي التي منحها حكام مباننا للمبشرين . فهم لم يريدوهم حقاً في
عشيرتهم ، لذلك عرضوا عليهم ذلك العرض الذي لا يمكن لأحد سليم
العقل أن يقبل به .

قال أوتشيندو لأقرانه حينما تشاوروا فيما بينهم : «يريدون قطعة أرض لينبؤا عليها مقامهم . سنعطيهم قطعة أرض» . صمت قليلاً ، فسرت همهمة دهشة واستهجان . «لنعطيهم جزءاً من غابة الشر . إنهم يفاخرون بالانتصار على الموت . لنعطيهم ساحة معركة حقيقية لكي يظهرها فيها انتصارهم» . فضحكوا ووافقوا ، وأرسلوا في طلب المبشرين الذين طلبوا منهم أن يتركوهم لفترة من الوقت ريثما «يتهامسون معاً» . وقد عرضوا عليهم قدر ما يعينهم أخذه من غابة الشر . ولدهشتهم الشديدة شكرهم المبشرون وانفجروا منشدین .

قال بعض الشيوخ : «إنهم لا يفهمون» . لكنهم سيفهمون عندما يذهبون إلى نصيبهم من الأرض غداً صباحاً» . ثم تفرقوا .

في صباح اليوم التالي ، بدأ الرجال المخبولون بتنظيف جزء من الغابة وبناء بيوتهم . توقع سكان مباتتا لهم جميعاً الموت في غضون أربعة أيام . مرّ اليوم الأول والثاني والثالث والرابع ، لم يمض أي منهم . فذهل الكل . ثم أصبح معروفاً أن طاغوت الرجل الأبيض قوةٌ لا تصدق . وقيل إنه يضع نظارة على عينيه لكي يتمكن من أن يرى الأرواح الشريرة ويتكلم معها . ولم تمضِ فترة طويلة حتى فاز بأول ثلاثة مهتدين .

مع أن الإيمان الجديد اجتذب إليه نووي منذ اليوم الأول نفسه ، إلا أنه أبقى هذا سراً . لم يجرؤ على الاقتراب من المبشرين خوفاً من أبيه . لكن نووي ظلّ يقف في ساحة السوق المكشوفة أو ملعب القرية كلما أتوا للتبشير هناك . وقد بدأ يحفظ بعض القصص البسيطة التي قصوها .

قال السيد كياجا المترجم ، الذي أصبح الآن مسؤولاً عن الرعية الوليدة : «لقد بنينا الآن كنيسة» . فقد عاد الرجل الأبيض إلى أومووفيا ، حيث بنى مقر قيادته ، ومنها كان يقوم بزيارات منتظمة لرعية كياجا في مباننا .

قال السيد كياجا : «لقد بنينا الآن كنيسة ونريدكم أن تأتوا جميعاً في اليوم السابع من الأسبوع لعبادة الرب الحقيقي» .

في يوم الأحد التالي ، مرّ نووي أمام البيت الصغير المبني من الطين الأحمر والمسقوف بالقش ، وعاود المرور دون أن يستجمع ما يكفي من الشجاعة ليدخل . سمع صوت الإنشاد ، ومع أنه صدر عن حفنة من الرجال ، إلا أنه كان عالياً ومفعماً بالثقة . انتصبت كنيستهم وسط فسحة دائرية فبدت كقم غابة الشر المفتوح . هل كانت تنتظر لتطبق بأسنانها عليهم؟ بعد أن مرّ نووي جيئةً وذهاباً أمام الكنيسة ، عاد إلى بيته .

عُرف جيداً بين سكان مباننا أن آلهتهم وأجدادهم يحتملون أحياناً الإساءة طويلاً ، وأنهم قد يتعمدون إفساح المجال أمام إنسان للاستمرار في تحديهم . لكنهم ، حتى في مثل هذه الحالات ، حددوا سبعة أسابيع أسواق أو ثمانية وعشرين يوماً . بعد ذلك الحد ، لن يحتمل أي إنسان ما سيجري . لذلك تعاظمت الإثارة في القرية مع اقتراب الأسبوع السابع منذ أن بنى المبشرون الوقحون كنيستهم في غابة الشر . كان القرويون واثقين من المصير المحتوم الذي ينتظر هؤلاء الأشخاص إلى حد أن شخصاً أو اثنين من المؤمنين الجدد فكروا أن من الحكمة تعليق ولائهم بالإيمان الجديد .

أخيراً ، حلّ اليوم المفروض أن يشهد وفاة جميع المبشرين . لكنهم استمروا في الحياة ، وبنوا بيتاً جديداً من الطين الأحمر والقشّ لمعلّمهم ، السيد كياجا . ففازوا في ذلك الأسبوع بحفنة أخرى من المهتدين . كان بينهم ، للمرة الأولى ، امرأة . كان اسمها ننيكا ، زوجة أمادي الذي كان فلاحاً ناضجاً . كانت ثقيلة جداً بحملها .

كانت ننيكا قد حبلت أربع مرات وأنجبت أطفالاً . لكنها في كل مرة ولدت توأمين ، فطرحا في الغابة على الفور . وكان زوجها وعائلته قد أصبحوا لادعي النقد لامرأة كهذه ، ولم ينزعجوا كثيراً عندما اكتشفوا أنها فرّت للالتحاق بالمسيحيين . فأراحهم تخلصهم منها .

ذات صباح ، كان ابن خال أوكونكوو ، أميكوو ، ماراً قرب الكنيسة في طريق عودته من قرية مجاورة حين رأى نووي بين المسيحيين . دهش دهشة عظيمة ، وحال وصوله إلى قريته ، اتجه مباشرة إلى كوخ أوكونكوو وأخبره بما رآه . فشرعت النسوة بالحديث بإنفعال ، لكن أوكونكوو ظلّ جالساً دون تأثر .

كان الوقت ساعة متأخرة من بعد الظهر حين عاد نووي . دخل إلى الأوبي وحيا أباه ، لكن هذا لم يرد عليه . استدار نووي ليتجه نحو المجمع الداخلي عندئذ ، فوثب أوكونكوو فجأة ، وقد تملكه الغضب ، وأمسك بابنه من رقبته .

تلعثم : «أين كنت؟»

جاهد نووي ليحرّر نفسه من القبضة الخانقة .

زأر أو كونكوو : «أجبنني قبل أن أقتلك» . تناول عصا غليظة موضوعة على السور الواطىء وضربه بها بوحشية مرتين أو ثلاث مرات .

زأر مرة أخرى : «أجبنني!» وقف نوويي محدقاً فيه ، ولم يتفوه بكلمة . كانت النسوة تصرخ من الخارج ، وقد خفن أن يدخلن .

قال صوت في المجمع الخارجي : «أترك ذلك الفتى فوراً!» كان صوت خال أو كونكوو ، أوتشيندو . «هل جنت؟»

لم يجب أو كونكوو . لكنه أفلت نوويي الذي سار مغادراً البيت ولم يعد إليه إطلاقاً .

عاد إلى الكنيسة وأخبر السيد كياجا بأنه قرر الذهاب إلى أوموفيا حيث أنشأ المبشر الأبيض مدرسة لتعليم الفتیان المسيحيين القراءة والكتابة .

كان سرور السيد كياجا عظيماً . وترنم : «طوبى للذي يهجر أباه وأمه من أجلي . إن الذين يسمعون كلماتي هم أبي وأمي» .

لم يفهم نوويي ما قيل تماماً . لكنه كان سعيداً لهجره أبيه . سيعود فيما بعد إلى أمه وأخوته وأخواته ويهديهم إلى الإيمان الجديد .

بينما كان أو كونكوو جالساً في كوخه في تلك الليلة ، محدقاً في النار ، فكر في المسألة . فثار غضب فجائي في داخله وأحسّ برغبة قوية في تناول سيف التحطيب ، والذهاب إلى الكنيسة ومحو العصاةة الخسيصة الكافرة بأكملها . لكنه حدث نفسه ، بعد تفكير عميق ، أن نوويي لا يستحق القتال من أجله . صاح في قلبه : لماذا يلعن هو أو كونكوو ، من بين جميع

الناس ، بمثل هذا الابن ؟ رأى بوضوح في هذا الأمر اصبع إلهه الشخصي أو التشي . وإلا فكيف يمكن أن يفسر المصيبة الكبيرة التي أصابته والنفي ، وسلوك ابنه المشين الآن ؟ الآن ، وقد اتسع وقته للتفكير في هذا ، لاحت له جريمة ابنه بفداحتها الصارخة . فهَجَّر الإنسان لآلهة أبيه والتجول مع الكثير من رجال مختئين يقوقون كدجاج عجائز هو بلوغ أسفل سافلين . لنفترض أنه بعد موته قرر كل أطفاله الذكور السير على خطى نوويي والتخلي عن أجدادهم ؟ أحسَّ أوكونكوو برعشة باردة تسري في عروقه مما يخبئه المستقبل الرهيب ، مثل احتمال الفناء . رأى نفسه وآباءه محتشدين حول مقام أجدادهم ينتظرون عبثاً العبادة والقرايين ولا يجدون شيئاً سوى رماد الأيام الماضية ، بينما أطفاله في هذه الأثناء يصلّون لإله الرجل الأبيض . لو حدث مثل هذا الأمر فسيقدم هو ، أوكونكوو ، على محوهم عن وجه البسيطة .

دُعي أوكونكوو على نطاق شعبي بـ«اللهب الهادر» ، وفيما كان يتطلع إلى النار ، تذكر الاسم . كان هو ناراً لاهبة . كيف أمكن إذن أن ينجب ابناً مثل نوويي ، منحللاً ومختناً ؟ ربما لم يكن ابنه . لا ! لا يمكن أن يكون ابنه . لقد خدعته زوجته . سيلقنها درساً ! لكن نوويي يشبه جده ، أونوكا ، الذي كان أباً أوكونكوو . فطرد الفكرة من ذهنه . كان أوكونكوو ، يدعى بنار لاهبة . كيف أمكن إذن أن ينجب امرأة بدلاً من ابن ؟ عندما كان في مثل سن نوويي ، كان قد أصبح مشهوراً في جميع أنحاء أوموفيا لمصارعته وعدم خوفه .

تنهد بعمق ، وتنهدت قطعة الحطب المحترقة كأنها تبدي تعاطفها
معه . تفتحت عيناً أو كونكوو على الفور وأدرك المسألة برمتها بوضوح .
إن النار الحية تنجب رماداً عاجزاً بارداً . فتنهد مرة أخرى ، بعمق .

فصل ١٨

واجهت الكنيسة الناشئة في مباننا عدة أزمات في مرحلة مبكرة من حياتها . في البداية ، ظنت العشيرة بأنها لن تعيش . لكنها واصلت العيش واشتد ساعدها تدريجياً . قلقت العشيرة ، لكن ليس إلى حد مفرط . فإذا قررت عصابة من الإيفوليفو أن تعيش في غابة الشرّ ، فهذا شأنها . وغابة الشر ، عندما يفكر المرء في الموضوع ، هي المأوى المناسب لأشخاص غير مرغوب فيهم كهؤلاء . صحيح أنهم ينقذون التوائم من الأجمة ، لكنهم لم يحضروهم مطلقاً إلى القرية . فالتوائم ، من وجهة نظر القرويين ، ما زالوا حيث ألقي بهم . ومن المؤكد أن ربة الأرض لن تعاقب القرويين الأبرياء على خطايا المبشرين .

إلا أن المبشرين حاولوا ذات مرة أن يتجاوزوا حدودهم . فقد ذهب ثلاثة مهتدين إلى القرية وتفاخروا علناً بأن جميع الآلهة ميتة وعاجزة وأنهم مستعدون لتحديها بإحراق جميع مقاماتها .

قال أحد الكهنة : «إذهبوا واحرقوا فروج أمهاتكم» .

أمسك القرويون بهم وضربوهم حتى سالت دماؤهم . لم يحدث شيء بعد ذلك بين الكنيسة والعشيرة لمدة طويلة .

لكن قصصاً بدأت تشيع مرردة أن الرجل الأبيض لم يحضر ديناً فحسب ، بل أحضر حكومة أيضاً . قيل إنهم بنوا مبنى للقضاء في أو مووفا ليحموا أتباع دينهم . وقيل حتى إنهم شنقوا رجلاً قتل مبشراً .

مع أن قصصاً كهذه ترددت كثيراً ، إلا أنها ظلت تبدو في مباننا كالأساطير ، ولم تؤثر على العلاقة بين الكنيسة الجديدة والعشيرة . لم يكن قتل مبشر وارداً هنا ، فالسيد كياجا ، على الرغم من جنونه ، كان غير مؤذبتاً . وبالنسبة لمهتديه ، لا أحد يستطيع قتلهم دون أن يضطر للفرار من العشيرة ، فعلى الرغم من قلة شأنهم ، إلا أنهم ما زالوا ينتمون للعشيرة . هكذا لم يعر أحد اهتماماً جدياً للقصص التي تدور حول حكومة الرجل الأبيض أو عواقب قتل المسيحيين . وإذا تسببوا في متاعب أكثر مما فعلوا ، فبالإمكان بكل بساطة طردهم من العشيرة .

كانت الكنيسة الصغيرة في تلك اللحظة أيضاً منغمسة بعمق في مشاكلها الخاصة إلى حد حال دون إزعاج العشيرة . وقد بدأ الأمر كله بمسألة قبول المنبوزين .

بعد أن رأى هؤلاء المنبوزون ، أو أوسو ، الدين الجديد يرحب بالتوائم والآثام المشابهة ، اعتقدوا أن من الممكن أيضاً احتضانهم . هكذا دخل اثنان منهم ذات أحد إلى الكنيسة . فأحدث دخولهما اضطراباً فوراً ، لكن تأثير الدين الجديد على المهتدين كان عظيماً إلى درجة أنهم لم يغادروا الكنيسة حينما دخلها المنبوزان . اكتفى أولئك الذين وجدوا أنفسهم أقرب الجميع إلى هذين المنبوزين بالانتقال إلى مقعد آخر فقط . كان هذا التصرف معجزة . لكن هذا دام فقط حتى نهاية القداس . فقد رفع جميع أتباع الكنيسة عقيرتهم بالاحتجاج وكادوا أن يطردوا هذين الاثنين إلى

الخارج ، لكن السيد كياجا أوقفهم وبدأ يشرح .

قال : «أمام الرب ، ليس هناك عبد أو حرّ . نحن جميعاً أطفال الرب ، ويجب أن نستقبل أخويننا هذين» .

قال أحد المهتدين : «أنت لا تفهم الأمر . ماذا سيقول الوثنيون حين يسمعون أننا نستقبل أوسو بين صفوفنا؟ سيضحكون» .

قال السيد كياجا : «دعهم يضحكون . سيضحك الرب منهم في يوم الحساب . لماذا تثور الأمم وتتخيل الشعوب شيئاً باطلاً؟ إن ذلك الذي يجلس في السماوات هو الذي سيضحك . إن الرب سيهزأ بهم» .

استمر المهتدي : «أنت لا تفهم . أنت معلمنا ، وتستطيع أن تعلمنا أشياء عن الإيمان الجديد . لكن هذه مسألة نعرفها نحن» . وأخبره ماذا يعني الأوسو .

إنه شخص منذور لإله ، شيء وُضع جانباً - تابو إلى الأبد ، هو وأطفاله بعده . إنه لا يستطيع أن يتزوج امرأة حرة كما لا تستطيع امرأة حرة أن تتزوجه . إنه منبوذ فعلاً ، يعيش في منطقة خاصة من القرية ، قريباً من المقام العظيم . حيثما يذهب يحمل معه طائفته المحرّمة - شعر طويل متشابك قدر . الموسى تابو بالنسبة إليه . ولا يستطيع أوسو حضور اجتماع الأحرار ، والأحرار بدورهم لا يستطيعون الاحتفاء تحت سقفه . لا يستطيع الحصول على أي من ألقاب العشيرة الأربعة ، وحين يموت يدفنه أقرانه من البشر في غابة الشر . كيف يمكن لشخص كهذا أن يكون تابعاً للمسيح؟

قال كياجا : «إنه يحتاج إلى المسيح أكثر منك ومني» .

قال المهتدي : «إذن سأعود إلى عشيرتي» . وعاد إليها . اتخذ السيد

كياجا موقفاً حازماً ، وكان حزمه هو الذي أنقذ الكنيسة الناشئة . فاستمد المهتدون المترددون الإلهام والثقة من إيمانه الراسخ . وأمر السيد كياجا المنبوذين بقص شعريهما الطويلين المتشابكين . في البداية ، خشي هذان المنبوذان أن يموتا .

قال السيد كياجا : «إذا لم تتخلصا من علامة إيمانكما الوثنيّ ، فلن أقبلكما في الكنيسة . إنكما تخشيان أن تموتا . لماذا تخشيان ذلك؟ ما هو اختلافكما عن الرجال الآخرين الذين يقصون شعورهم؟ نفس الرب خلقكما وخلقهم . لكنهم نبذوكما كمجذومين . هذا ضد إرادة الرب الذي وعد كل مَنْ يؤمن باسمه المقدّس بالحياة الأبدية . الوثنيون يقولون إنكما ستموتان إن فعلتما هذا أو ذاك ، وأنتما خائفان . قالوا أيضاً أنني سأموت إذا بنيت كنيسة على هذه الأرض . هل مت؟ قالوا أنني سأموت إذا رعت التوائم . وها أنا ما أزال حياً . إن الوثنيين لا ينطقون إلا بالباطل . كلمة الرب وحدها هي الصادقة» .

حلّق المنبوذان شعريهما ، وسرعان ما أصبحا أشد المهتدين تمسكاً بالإيمان الجديد . وما زاد على هذا أن جميع الأوسو في مباتتا تقريباً حذوا حذوهما . وكان أحدهم في الحقيقة مَنْ وضع ، بحماسة ، الكنيسة في صراع مع العشيرة بعد سنة بقتله ثعبان النهر المقدس ، فيض إله الماء .

كان الثعبان الملكي مبعلاً أكثر من جميع الحيوانات في مباتتا والعشائر المجاورة . كان يُخاطب بـ«أبانا» ، ويسمح له أن يذهب حيثما شاء ، حتى إلى فراش الناس . فيأكل الجرذان في المنازل ويلتهم أحياناً بيض الدجاج . وإذا قتل رجل العشيرة ثعباناً ملكياً دون قصد ، يقدم القرابين تكفيراً ويشيعه باحتفال جنائزي باهظ التكاليف شبيه بطقس دفن رجل

عظيم . لم تكن هناك عقوبة موضوعة للرجل الذي يقتل الثعبان الملكي عمداً . إذ لم يتخيل أحد أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث .

ربما لم يحدث هذا أبداً . وقد نظرت العشيرة إلى الأمر في البداية على هذا النحو . لم يشاهد أحد رجلاً يقتل ثعبان النهر . القصة برمتها نشأت في أوساط المسيحيين أنفسهم .

لكن ، وبالرغم من ذلك ، اجتمع حكام وشيوخ مبانتا ليقرروا ما سيفعلونه . تحدث كثير منهم مطوّلاً ويعنف . رقت روح الحرب فوقهم . فقال أوكونكوو ، الذي كان قد بدأ يلعب دوراً في قضايا بلد أمه ، لن يسود السلام ما لم تطرد العصابة الشريرة إلى خارج القرية بالسياط .

لكن كثيرين آخرين رأوا الوضع بصورة مختلفة ، وكانت مشورتهم هي التي سادت في النهاية .

قال أحدهم : « ليس من عادتنا أن نقاتل بدلاً عن آلهتنا . علينا ألا نشرع في هذا الآن . إذا قتل رجل ثعبان نهر مقدس سرّاً في كوخه ، فالمسألة بينه وبين الإله . فنحن لم نره . وإذا وضعنا أنفسنا بين الإله وضحيتة فقد نتلقى اللطمات الموجهة إلى المسيء . عندما يجذّف رجل ، ماذا نفعل ؟ هل نذهب ونغلق فمه ؟ لا . إننا نضع أصابعنا في آذاننا لنكفّ عن سماعه . وهذا عمل حكيم » .

قال أوكونكوو : « دعونا لا نناقش الأمر كالجبّاء . إذا دخل رجل إلى كوخه وتغوّط على الأرض ، ماذا أفعل ؟ هل أغمض عينيّ . لا ! بل أتناول عصا وأكسر رأسه . هذا ما يفعله رجل . إن هؤلاء الناس يصبون الأقدار يومياً فوق رؤوسنا ، وأوكيكي يقول إننا يجب أن نتظاهر بأننا لا نرى » .

أطلق أوكونكوو صوتاً مليئاً بالاشمئزاز . فكر :هذه قبيلة نساء . مثل هذا ما كان يحدث مطلقاً في أرض الآباء ، أوموفيا .

قال رجل آخر : «صدق أوكونكوو في قوله . يجب أن نفعل شيئاً . دعونا نبذ هؤلاء الرجال . بذلك لانحاسب على آثامهم» .

أدلى كل مَنْ حضر الاجتماع برأيه ، وتقرر في النهاية نبذ المسيحيين . فصرف أوكونكوو بأسنانه بقرف .

في تلك الليلة طاف مناد في طول مبانتا وعرضها وأعلن أن أتباع الدين الجديد يطردون من الآن فصاعداً من حياة وامتيازات العشيرة .

وكان عدد المسيحيين قد تعاطم الآن وأصبحوا يَكُونون مجتمعاً صغيراً من رجال ، ونساء وأطفال ، مطمئنين وواثقين من أنفسهم . راح السيد براون ، المبشر الأبيض ، يقوم بزيارات منتظمة لهم . قال : «حين أفكر في أن البذرة الأولى زُرعت بينكم منذ ثمانية عشر شهراً فقط ، أدهش لعمل الرب» .

كان اليوم هو الأربعاء في الأسبوع المقدّس ، فطلب السيد كياجا من النساء إحضار طين أحمر وطباشير بيضاء وماء لفرك الكنيسة لعيد الفصح ، فقسّمت النساء أنفسهن إلى ثلاث فرق لهذه الغاية . انطلقن في الصباح الباكر ، بعضهن يحملن جرار ماء اتجهن بها إلى الجدول ، ومجموعة أخرى يحملن مجارف وسلالاً اتجهن بها إلى حفرة الطين الأحمر في القرية ، وتوجهت أخريات إلى مقلع الطباشير .

كان السيد كياجا يصلي في الكنيسة حين سمع النسوة يتحدثن

بانفعال . اختتم صلته وخرج ليرى حول ماذا يدور كل هذا . لقد عادت النساء إلى الكنيسة بجرار فارغة . قلن إن عدداً من الشباب طاردوهن وطردوهن بعيداً عن الجدول بالسياط . بعد فترة وجيزة ، عادت النسوة اللواتي ذهبن لجلب الطين الأحمر بسلامة فارغة ، وقد تعرض بعضهن للجلد بقسوة . كما عادت أيضاً النسوة اللواتي ذهبن لجلب الطباشير ليروين قصة مشابهة .

سأل السيد كياجا الذي عرته حيرة شديدة : «ماذا يعني كل هذا؟»

قالت إحدى النسوة : «اعتبرتنا القرية خارجين على القانون . أعلن رجلُ الجرس هذا في الليلة الماضية . لكن ، ليس من عُرفنا حرمان أي شخص من الجدول أو المقلع» .

قالت امرأة أخرى : «إنهم يريدون تدميرنا . لن يسمحوا لنا بالذهاب إلى السوق . قالوا ذلك» .

كان السيد كياجا على وشك أن يرسل في طلب رجاله المهتمدين من القرية حين شاهدتهم قادمين من تلقاء أنفسهم . لقد سمعوا جميعاً رجل الجرس طبعاً ، لكنهم لم يسمعوا مطلقاً في حياتهم بحرمان النساء من الوصول إلى الجدول .

قالت النساء : «هياً معنا . سنذهب معكن لملاقة هؤلاء الجبناء» . حمل بعضهم عصياً غليظة وحمل بعضهم الآخر حتى سيوف تحطيب .

لكن السيد كياجا كبح جماحهم . فقد أراد أن يعرف أولاً لماذا اعتبروهم خارجين على القانون .

قال رجل : «يقولون إن أوكولي قتل ثعبان النهر المقدس» .

قال آخر : «هذا كذب . أخبرني أوكولي نفسه أن هذا ليس صحيحاً» .
لم يكن أوكولي حاضراً ليحيب . فقد وقع صريع المرض في الليلة
الماضية . وقبل أن يطلع النهار عليه ، مات . أظهر موته أن الآلهة لا تزال
قادرة على خوض معاركها . فلم تر العشيرة عندئذ سبباً لمضايقة
المسيحيين .

فصل ١٩

راحت آخر أمطار السنة الغزيرة تهطل . كان الوقت مناسباً لدوس الطين الأحمر المستخدم في بناء الجدران . ولا يجري عمل هذا قبل ذلك ، فالأمطار غزيرة جداً وستجرف كومة الطين المداس بالأقدام ، كما لا يمكن عمل هذا بعد ذلك ، فالحصاد سيحين موعده قريباً ، ثم سيحلّ الفصل الجاف .

سيكون هذا حصاد أوكونكوو الأخير في مباننا . فالسنوات السبع الضائعة سدى والمرهقة شارفت متشاقلة على الانتهاء أخيراً . ومع أن أوكونكوو نجح في بلد أمه ، إلا أنه يعرف أنه كان سينجح أكثر في أومووفيا ، أرض آبائه حيث الرجال شجعان ومحاربون أشداء . في هذه السنين السبع ، كان سيعلو إلى أرفع مستوى . لذلك أسف على كل يوم من أيام نفيه . كان أقارب أمه طيبين جداً معه ، وهو ممنون لهم ؛ لكن ذلك لن يغير الحقائق . وقد دعا أول طفلة ولدت له في المنفى نيككا - «الأم هي الأسمى» ، بدافع من الأدب نحو أقارب أمه . لكن ، وبعد سنتين وحين أنجب ابناً ذكراً ، دعاه نووفيا - «مولود في التيه» .

حالما بدأ أوكونكوو سنته الأخيرة في المنفى ، أرسل نقوداً إلى أوبيركا

ليبنى له كوخين في مجمعه القديم ليسكن فيهما هو وعائلته ريثما يبنى مزيداً من الأكواخ وسور مجمعه الخارجي . وهو لا يستطيع أن يطلب من شخص آخر أن يبنى له أوبيه ، أو أسوار مجمعه . فهذه يبنها الرجل بنفسه أو يرثها عن أبيه .

عندما بدأت آخر أمطار السنة الغزيرة بالهطول ، أرسل أوبيركا خبراً بأن الكوخين بُنِيا ، فبدأ أوكونكوو يستعد للعودة ، بعد الأمطار . كان بوده لو أنه عاد أبكر وبنى مجمعه في تلك السنة قبل أن تتوقف الأمطار ، لكنه بفعله هذا كان سيقطع جزءاً من العقوبة الكاملة البالغة سبع سنوات . وذلك ما لا يمكن أن يتحقق . هكذا انتظر بنفاد صبر الفصل الجاف .

جاء الفصل متمهلاً . فخفت الأمطار تدريجياً إلى أن أصبحت تتساقط بزخات مائلة . صارت الشمس تشرق من خلال المطر أحياناً وهبّ نسيم خفيف . كان نوعاً من مطر مرح وهفهاف . بدأ يظهر قوس قزح ، وقوسا قزح معاً أحياناً ، كأم وابنتها ، إحداهما شابة وجميلة والأخرى ظلّ قديم وباهت . كان قوس القزح يدعى ثعبان السماء الملكي .

دعا أوكونكوو زوجاته الثلاث وطلب منهن أن يعددن ما يلزم لإقامة وليمة فخمة . قال : «يجب أن أشكر أهل أُمي قبل أن أرحل» .

كان لدي إيكوفي بعض القريسة الباقي من مزرعتها من السنة الماضية . لم يكن عند أي من الزوجتين الأخريين شيء منه . لم يكن هذا لأنهما كسولتان ، بل لأن لديهما أطفالاً كثيرين لإطعامهم . لذلك كان من المفهوم أن إيكوفي ستقدم القريسة للوليمة وستقدم أم نووي وأوجوجو

بقية المؤمن مثل السمك المدخن وزيت النخيل وفلفل الحساء . وأعلن
أوكونكوو أنه سيتولى أمر اللحم واليام .

نهضت إيكوفي مبكرة في صباح اليوم التالي وذهبت إلى مزرعتها مع
ابنتها إيزينما وابنة أوجوجو ، أوياجيلي ، لجني درنات القريسة . حملت
كل منهما سلة قصب طويلة ، وسيف تحطيب كبير لقطع ساق القريسة
الطري ، ومعزقة للحفر واستخراج الدرنة . ولحسن الحظ ، كان مطر
خفيف قد هطل أثناء الليل ولم تعد التربة قاسية جداً .

قالت إيكوفي : « لن نستغرق وقتاً طويلاً في جني كل ما نريد » .

قالت إيزينما : « لكن الأوراق ستكون مبلولة » . كانت سلتها متوازنة
على رأسها ، وذراعاها معقودتان على صدرها . فهي تحس بالبرد . « أنا
أكره تساقط الماء البارد على ظهري . كان يجب أن ننتظر إلى أن تطلع
الشمس وتجف أوراق الشجر » .

دعتها أوياجيلي : « ملح » ، لأنها قالت إنها تكره الماء . « هل تخافين أن
تذوبي ؟ »

كان جني القريسة سهلاً ، كما قالت إيكوفي . هزّت إيزينما كل شجرة
بشدة بعضاً طويلاً قبل أن تنحني وتقطع الساق وتحفر الأرض لتستخرج
الدرنة . في بعض الأحيان ، لم يكن الحفر ضرورياً . بل كن يسحب
الجذع فقط ، فترفع التربة ، وتنقطع الجذور في الأسفل ، فتسحب الدرنة
من الأرض .

حين جمعن كومة كبيرة من القريسة ، حملنها على دفعتين إلى
الجدول ، حيث كان لكل امرأة حوض ضحل لتخمير قريستها .

قالت أوبياجيلي : «ستكون جاهزة خلال أربعة أيام أو حتى ثلاثة . فهي درنات حديثة» .

قالت إيكوي في : «إنها ليست درنات حديثة جداً . لقد زرعتها منذ ستين تقريباً . التربة فقيرة ولهذا السبب تكون الدرنات صغيرة إلى هذا الحد .

لم يحدث أبداً أن فعل أوكونكوو شيئاً دون أن يكمله حتى النهاية . فعندما احتجت زوجته إيكوي في بأن عزتتين تكفيان للوليمة ، أخبرها أن هذا ليس من شأنها .

- «أدعو إلى وليمة لأن لدي ثروة كافية . فأنا لا أستطيع أن أعيش على ضفة نهر وأغسل يدي باللعاب . لقد كان أهل أمي طيبين معي ويجب أن أظهر امتناني لهم» .

هكذا دُبحت ثلاث عزات وعدد من الدجاج . فكانت أشبه بوليمة عرس . فقد قدّمت عصيدة فو - فو ويام ، وحساء إيجوسي وحساء ورق شجر مرّ وزقاق كثيرة من نبيذ النخيل .

دعي إلى الوليمة جميع الأومونا ، جميع نسل أوكولو ، الذي عاش قبل حوالي مائتي سنة . كان أكبر القوم سنّاً في هذه العائلة كثيرة العدد خال أوكونكوو ، أوتشيندو . فقدّمت له جوزة الكولا ليكسرهما ، فصلى لأجداده . طلب منهم الصحة والأطفال : «نحن لا نطلب ثروة لأن من لديه الصحة والأطفال سينال ثروة أيضاً . نحن لا نصلي لمزيد من المال بل لمزيد من الأهل . إننا أفضل من الحيوانات لأن لنا أهلاً . الحيوان يحكّ جنبه بشجرة ، بينما يطلب الرجل من قريبه أن يحكّ له جنبه» . وصلى

خاصةً من أجل أوكونكوو وعائلته . ثم كسر جوزة الكولا وألقى فلقه منها على الأرض للأجداد .

فيما كانت قطع جوزات الكولا المكسورة توزع على المدعوين ، بدأت زوجات أوكونكوو وبناته وأولئك اللاتي أتين للمساعدة في الطبخ يحضرن الطعام . أحضر أبناؤه زقاق نبيد النخيل . كانت هناك كميات كبيرة من الأكل والشرب بحيث أن كثيراً من الأقارب صفّروا مندهشين . حين بسط الطعام ، نهض أوكونكوو ليلقي كلمة .

قال : «أرجوكم أن تقبلوا هذه الكولا الصغيرة . إنها ليست تسديداً لما قدمتموه إليّ في هذه السنوات السبع . فالطفل لا يستطيع أن يسدّد ثمن حليب أمه . وقد دعوتكم فقط لأن من المستحسن أن يجتمع الأهل » .

قدّمت عصيدة اليام أولاً لأنها أخفّ من الفو - فو ولأن اليام كان يقدّم دائماً أولاً . ثم قدّم الفو - فو . أكله بعض الأهل مع حساء الإيجوسي وأكله بعضهم الآخر مع حساء ورق الأشجار . ثم قطع اللحم بحيث ينال كل واحد من الأومونا نصيباً منه . نهض كل رجل بحسب سنه وأخذ نصيبه . حتى الأقارب القليلين الذين لم يتمكنوا من الحضور ، أرسل نصيبهم إليهم كل حسب دوره .

فيما هم يحتسون نبيد النخيل ، نهض أحد أكبر الافراد سنّاً في الأومونا ليشكر أوكونكوو : «لوقلت إننا لم نتوقع وليمة كبيرة كهذه لكنت كمن يوحى بأننا لا نعرف كم هو كريم ابننا ، أوكونكوو . نحن نعرفه ، وقد توقعنا وليمة كبيرة . لكن الواقع أسفر عن وليمة أكبر حتى مما توقعنا . شكراً لك . وأدعو الآلهة أن تعوض عليك ما أنفقته عشرة أضعاف . إنه

لمن الخير أن يرى الإنسان ، في هذه الأيام التي يعتبر فيها الصغار أنفسهم أحكم من الكبار ، رجلاً يقوم بالواجب على الطريقة الرائعة القديمة . فالرجل الذي يدعو أهله إلى وليمة لا يفعل ذلك لانقاذهم من الجوع . فلديهم كلهم طعام في بيوتهم . وحين نجتمع في القرية المضاء بضوء القمر ، لانفعل هذا من أجل القمر . فكل شخص يستطيع أن يراه من مجمّعه . إننا نجتمع لأن من الخير أن يجتمع الأهل . قد تتساءلون لماذا أقول كل هذا . أقول هذا لأنني أخاف على الجيل الجديد ، أخاف عليكم أنتم يا قوم . لوّح بذراعه مشيراً إلى حيث كان يجلس معظم الشباب ، «أما أنا ، فلم يبقَ أمامي سوى وقت قصير لكي أعيش ، وكذلك أوتشيندو وأوناتشوكوو وإيميفو . أنا أخاف عليكم أنتم الشباب ، لأنكم لا تدركون كم هو قوي رباط القرابة . إنكم لا تعرفون ماذا يعني أن تتكلموا بصوت واحد . ما هي النتيجة ؟ لقد حلّ دين مقيت بين ظهرانيكم . الرجل الآن يهجر أباه وإخوته . ويلعن آلهة آبائه وأجداده ، ككلب الصياد الذي يصيبه السعار فجأة ، فيستدير منقضاً على صاحبه . أنا أخاف عليكم ، أخاف على العشيرة » ، والتفت ثانية إلى أوكونكوو وقال : «شكرًا لك لدعوتنا لنجتمع معاً» .

الجزء الثالث

فصل ٢٠

سبع سنوات بعيداً عن العشيرة مدة طويلة . فمكان رجل لا يظل دائماً محفوظاً ، في انتظاره . فما أن يرحل رجل حتى ينهض رجل آخر ، ويشغل مكانه . العشيرة مثل سحلية ، إذا فقدت ذنبها ، ينمو لها ذنب آخر .

أدرك أوكونكوو هذا . عرف أنه فقد مكانه بين الأرواح المقنّعة التسع التي تتولى إدارة القضاء في العشيرة . أضاع الفرصة لقيادة عشيرته المفعمة بروح القتال ضد الدين الجديد الذي اكتسب أرضاً هناك ، كما نما إلى علمه . أضاع السنوات التي كان بوسعه أن ينال خلالها أرفع الألقاب في العشيرة . لكن بعض هذه الخسائر لم يكن من المستحيل تعويضها . كان مصمماً على أن تلتف عودته انتباه قومه . سيعود وهو في وضع مزدهر ، ويسترد السنوات السبع الضائعة .

حتى في سنته الأولى وهو في المنفى ، بدأ يخطط لعودته . سيكون أول ما سيفعله هو إعادة بناء مجمّعه على مستوى أبهى . سيبنى مخزناً للغلال أكبر من مخزنه الذي كان يملكه في السابق وكوخين لزوجتين جديدتين . سيظهر ثراءه عن طريق إدخال أبنائه في جمعية الأوزو . فالرجال العظام في العشيرة فقط هم القادرون على فعل هذا . رأى بوضوح الإجلال الكبير

الذي سيحاط به ، ورأى نفسه متقلداً أسمى لقب في البلد .

بينما راحت سنوات المنفى تنقضي سنة إثر الأخرى ، بداله أن تشيّه قرر أن يعوّضه عن المصيبة السابقة . فقد نما يامه بوفرة ، ليس في أرض أمه فحسب ، بل في أومووفيا أيضاً ، حيث استثمره صديقه سنة وراء أخرى مع محاصصين .

ثم وقعت مأساة ابنه البكر . خيل إليه في البداية أنها ستكون أكبر من أن تحتمله روحه ، لكن روحه كانت مرنة ، فتغلب في النهاية على أساه . فلديه خمسة أبناء آخرين وسيربيهم وفقاً لحياة العشيرة . دعا أبناء الخمسة إليه ، فأتوا وجلسوا في أوبيّه . كان عمر أصغرهم أربع سنوات .

«لقد رأيتم جميعاً الإثم الشنيع الذي ارتكبه أخوكم . هو الآن لم يعد ابني ولا أخاكم . سيكون ابني رجلاً يرفع رأسه عالياً وسط قومي . إذا كان أي منكم يفضل أن يكون امرأة ، فليتبّع خطى نووي الآن وأنا حيّ ، حتى ألعنه . إذا انقلبتم ضدي بعد موتي ، فسأزوركم وأكسر رقابكم .

كان أوكونكوو محظوظاً جداً مع بناته . لم يكفّ أبداً عن الأسف لأن إيزينما كانت فتاة . فمن بين جميع أطفاله ، كانت الوحيدة التي تفهم تقلّبات مزاجه . فنما رباط من التعاطف بينهما على مر السنين .

كبرت إيزينما أثناء نفي والدها وأصبحت واحدة من أجمل الفتيات في مبانّا . دعيت بلّورة الجمال ، مثلما دعيت والدتها في صباها . فالفتاة العليلة التي سببت الكثير جداً من وجع القلب لأُمها ، تحولّت بين عشية وضحاها تقريباً إلى صبية مفعمة بالصحة والمرح . صحيح أن لحظات من

الاكتئاب النفسي كانت تنتابها فتنهش أثناءها الكلّ ككلب مسعور . إلا أن هذه التقلبات كانت تحلّ بها فجأة ودون سبب واضح . لكن تلك اللحظات كانت نادرة وقصيرة الأمد . لم تكن أثناءها تطيق أحداً سوى أبيها .

تقدم شباب ورجال موسرون في أواسط العمر كثيرون في مباننا لخطبتها . لكنها رفضتهم جميعاً ، فقد دعاها أبوها إليه ذات مساء وقال لها : «هناك كثير من الناس الطيبين والموسرين هنا ، لكنني سأكون سعيداً إذا تزوجت في أوموفيا عندما نعود إلى بيتنا» .

ذلك كان كل ما قاله . لكن إيزينما أدركت بوضوح كل الفكر والمعنى المستترين وراء الكلمات القليلة . فوافقت .

قال أوكونكوو : «إن أختك غير الشقيقة ، أوبياجيلي ، لن تفهمني . لكنك تستطيعين أن تشرحي لها» .

مع أنهما كانتا في نفس السن تقريباً ، إلا أن تأثيراً قوياً كان لإيزينما على أختها غير الشقيقة . فشرحت إيزينما لها لماذا يجب ألا تتزوجا الآن ، فوافقت هي أيضاً . هكذا رفضت الاثنتان كل عروض الزواج في مباننا .

فكر أوكونكوو في نفسه : «أتمنى لو أنها غلام» . إنها تفهم الأمور فهماً صحيحاً تماماً . مَنْ غيرها من بين أطفاله يستطيع أن يقرأ أفكاره على هذا النحو الجيد؟ إن عودته إلى أوموفيا مع ابنتين جميلتين يافعتين ستجذب اهتمام الكثيرين . سيكون صهره المقبلان رجلين من أصحاب النفوذ في العشيرة . ولن يجروا الفقراء والمغمورين على التقدم لخطبتهما .

تغيرت أوموفيا حقاً في السنوات السبع التي قضاها أوكونكوو في

المنفى . فقد أتت الكنيسة وأضلت كثيرين . لم ينضم إليها وضيعوا النسب والمنبوذون فحسب ، بل رجال ذوو حيثية أيضاً . وكان أحد هؤلاء أجبويفي أوجونا ، الذي يتقلد لقبين ، والذي قطع كالمجنون سوار لقبه المحيط بكاحله ورماه بعيداً كي ينضم إلى المسيحيين . كان المبشر الأبيض فخوراً جداً به ، وكان من بين أول الرجال في أوموفيا الذين تلقوا أسرار تناول العشاء الرباني ، أو الوليمة المقدسة كما كانت تدعى في لغة الإيبو . فكر أجبويفي أوجونا في الوليمة بمفاهيم الأكل والشرب ، لكن في نطاق أقدس من ولائم القرية . لذلك وضع قرنه المستخدم للشرب في كيسه المصنوع من جلد الماعز من أجل المناسبة .

لكن ، إضافة إلى الكنيسة ، جلب الرجال البيض معهم حكومة أيضاً . فبنوا محكمة حيث يصدر مفوض شرطة المنطقة أحكاماً على قضايا بجهل . كان له سعاة محكمة يجلبون الناس ليمثلوا أمامه للمحاكمة . وقد انحدر كثير من هؤلاء السعاة من أومورو الواقعة على ضفة النهر العظيم ، حيث وصل الرجال البيض أول الأمر قبل سنوات عديدة خلت وأقاموا مركز دينهم وتجارتهم وحكومتهم . كان سعاة المحكمة هؤلاء مكروهين كراهية شديدة في أوموفيا لأنهم غرباء ومتعجرفون ومستبدون . وقد دُعوا كوتما ، واكتسبوا ، بسبب سراويلهم القصيرة الرمادية اللون اسماً آخر : «عجيزة الرماد» . كانوا يحرسون السجن ، الذي كان مليئاً بأناس خالفوا قوانين الرجل الأبيض . كان بعض هؤلاء السجناء قد ألقوا بتوائمهم ، وبعضهم كان قد ضايق المسيحيين . فتعرضوا هناك للضرب على يد الكوتما ، وأرغموا على العمل كل صباح في تنظيف مجمع الحكومة وجلب حطب مفوض الشرطة الأبيض وسعاة المحكمة . وكان بعض

هؤلاء السجناء رجالاً من حملة الألقاب الذين لا بد أن يكونوا أرفع من أعمال وضيعة كهذه . وقد أحزنتهم المهانة وندبوا على مزارعهم المهملة . فعندما كانوا يقطعون العشب في الصباح ، كان الشباب بينهم يغنون بايقاع متوافق مع ضربات سيوف التحطيب :

«كوتما ذو عجيذة الرماد ،

يليق به أن يكون عبداً

والرجل الأبيض فاقد العقل ،

يليق به أن يكون عبداً» .

لا يحب سعاة المحكمة أن يدعوهم أحد «عجيذة الرماد» ، لذلك كانوا ينهالون بالضرب على الرجال . لكن الأغنية انتشرت في أوموفيا .

انحنى رأس أوكونكوو أسى عندما أخبره أوبيريكما بكل هذه الأمور .

قال أوكونكوو وهويكاد يخاطب نفسه : «لعلي غبت مدة طويلة جداً . لكنني لا أستطيع أن أفهم هذه الأمور التي تحدثني عنها . ما ذلك الذي حدث لقومنا؟ لماذا فقدوا القدرة على القتال؟»

سأل أوبيريكما : «ألم تسمع كيف محى الرجل الأبيض آبامي عن وجه الأرض؟»

قال أوكونكوو : «سمعت . لكنني سمعت أيضاً أن سكان آبامي كانوا ضعفاء وحمقى . لماذا لم يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم؟ ألم يكن في حوزتهم بنادق وسيوف؟ سنكون جبناء لو قارنا أنفسنا برجال آبامي . فأباؤهم لم

يتجروا مطلقاً على الوقوف أمام أجدادنا . يجب أن نقاتل هؤلاء الناس ونطردهم من البلاد» .

قال أوبيريكا بحزن : «فات الأوان الآن . فرجالنا أنفسهم وأبنائنا انضموا إلى صفوف الغريب . انضموا إلى دينه وهم يساعدونه على المحافظة على حكومته . لو حاولنا طرد الرجال البيض من أومووفيا ، لوجدنا الأمر سهلاً . فاثنان منهم فقط يوجدان هنا . لكن ، ماذا بشأن قومنا الذين يتبعون سبيلهم ومُنحت لهم سلطة؟ سيذهبون إلى أومورو ويحضرون الجنود ، وستكون حالنا كحال آبامي» . توقف عن الكلام لفترة طويلة ثم قال «لقد أخبرتك في زيارتي الأخيرة لمباننا كيف شتقوا أنيتو» .

سأل أوكونكو : «ماذا حدث لقطعة الأرض المتنازع عليها» .

- «قررت محكمة الرجل الأبيض أنها تخص عائلة نناما ، التي دفعت أموالاً كثيرة لسعاة الرجل الأبيض و مترجمه» .

- «هل يعرف الرجل الأبيض تقاليدنا حول الأرض؟»

- «كيف يمكنه هذا وهو حتى لا يتكلم لغتنا؟ لكنه يقول إن تقاليدنا سيئة ، وإخواننا الذين تبنا دينه يقولون أيضاً أن تقاليدنا سيئة . كيف تعتقد أننا نستطيع أن نحارب وإخواننا بالذات انقلبوا ضدنا؟ الرجل الأبيض ذكي جداً . جاء بهدوء وسلام بدينه . فضحكنا على حماقته وسمحنا له بالبقاء . والآن ، استمال إخواننا ، ولم تعد عشيرتنا قادرة على التصرف كرجل واحد . لقد وضع سكيناً على الأشياء التي تشدّ أواصرنا فتداعينا» .

سأل أوكونكو : «كيف قبضوا على أنيتو ليشنقوه؟»

- «عندما قتل أودوتشي في المشاجرة حول الأرض ، هرب إلى أنيتا

لينجو من غضب الأرض . حدث ذلك بعد حوالي ثمانية أيام من المشاجرة ، لأن أودوتشي لم يمت على الفور متأثراً بجراحه . بل مات في اليوم السابع . لكن الكل عرفوا أنه كان سيموت ، فجمع أنيتو ممتلكاته استعداداً للفرار . لكن المسيحيين أخبروا الرجل الأبيض بوقوع الحادثة ، فأرسل هذا الكوتما للقبض على أنيتو . سجن مع جميع قادة عائلته . وفي النهاية ، مات أودوتشي ونقل أنيتو إلى أومورو وشنق . أطلق سراح الباقين ، لكنهم حتى الآن لا يستطيعون التعبير عن معاناتهم» .

جلس الرجلان صامتين لفترة طويلة بعد هذا .

فصل ٢١

كان هناك رجال ونساء كثيرون في أوموفيا لم تتملكهم نفس المشاعر القوية التي انتابت أوكونكوو ضد الشريعة الجديدة . لقد جلب الرجل الأبيض ديناً مجنوناً حقاً ، لكنه بنى أيضاً متجرّاً ، ولأول مرة ، أصبح زيت النخيل والبذور أشياء غالية الثمن ، وتدفقت أموال كثيرة إلى أوموفيا .

حتى فيما يتعلق بأمر الدين ، تزايد الإحساس بأن من المحتمل أن يكون فيه شيء ما ، شيء مماثل تماثلاً غامضاً لنظام داخل إطار الجنون الغامر .

هذا الإحساس المتنامي يعود إلى السيد براون ، المبشر الأبيض ، الذي كان حازماً جداً في كبح رعيته عن استشارة غضب العشيرة . كان هناك عضو من الصعب جداً ضبطه بصفة خاصة . كان اسمه إينوتش ، وكان أبوه كاهن عبادة الثعبان . وقد انتشرت قصة رددت أن إينوتش قتل ثعبان النهر المقدس وأكله ، وأن أباه صبّ عليه لعنته .

وعظ السيد براون ضد تطرف حماس كهذا . فقد أخبر رعيته النشيطة بأن كل شيء ممكن ، لكن ليست كل الوسائل ملائمة . لذلك تمتع السيد براون باحترام الكل حتى العشيرة ، حيث أنه كان يظاً برفق على إيمانها . كما اكتسب صداقة بعض رجال العشيرة العظام ، وفي إحدى زيارته

المتكررة للقري المجاورة ، أهدي ناب فيل منقوش ، كان رمز النبل وسمو المقام . كان أحد الرجال العظام في تلك القرية يدعى آكونا ، وقد أوفد أحد أبنائه إلى مدرسة السيد براون ليتعلم معرفة الرجل الأبيض .

كان السيد براون ، كلما زار تلك القرية ، يمضي ساعات طويلة مع آكونا في أويّه ويحدثه عن طريق مترجم عن الدين . ولم ينجح أي منهما في هداية الآخر ، لكنهما اكتسبا معرفة أوسع بمعتقداتهما المختلفة .

قال آكونا أثناء إحدى زيارات السيد براون : «تقول إن هناك إلهاً واحداً أسمى خلق السماء والأرض . نحن أيضاً نؤمن به وتدعوه تشوكوو . لقد خلق العالم كله والآلهة الأخرى» .

قال السيد براون : «لا توجد آلهة أخرى . تشوكوو هو الإله الواحد وكل الآلهة الأخرى زائفة . أنت تنحت قطعة من خشب - مثل تلك» (وأشار إلى عوارض السقف التي تدلى منها إيكينجا آكونا المنحوت) ، «وتدعوه إلهاً . لكنه لا يظل قطعة خشب» .

قال آكونا : «نعم . إنه فعلاً قطعة خشب . والشجرة التي أنت منها قطعة الخشب خلقها تشوكوو ، كما صنع كل الآلهة الصغرى حقاً . لكنه صنعها لتكون رُسله حتى نتقرب منه عن طريقها . إنه مثلك . وأنت رئيس كنيستك» .

احتج السيد براون : «لا . إن رئيس كنستي هو الرب نفسه» .

قال آكونا : «أعرف هذا . لكن لا بد من وجود رئيس في هذا العالم بين الناس . لا بد وأن يكون شخص مثلك رئيساً هنا» .

- «إن رئيس كنستي بهذا المعنى مقيم في إنجلترا» .

- «هذا تماماً ما أقوله . رئيس كنيستك يقيم في بلدك . لقد بعث بك إلى هنا رسولاً له . وأنت أيضاً عينت رسلك وخدمك . أو لآخذ مثلاً آخر ، مفوض شرطة المنطقة . أرسله ملكك» .

قال المترجم بمبادرة منه : «لديهم ملكة» .

- «ملكك تبعث رسولها ، مفوض شرطة المنطقة . وهو يجد أنه لا يستطيع القيام بالعمل وحده ، لذلك يعين كوتما لمساعدته . ونفس الشيء ينطبق على الإله ، أو تشوكوو . إنه يعين الآلهة الصغرى لتساعده لأن العمل أكبر جداً من أن يتولاه شخص واحد» .

قال السيد براون : «يجب ألا تفكر فيه كشخص . لأنك حين تفكر فيه على هذا النحو ، تتوهم أنه لابد وأن يكون بحاجة إلى مساعدين . وأسوأ ما في الأمر أنكم تتوجهون بعباداتكم كلها إلى الآلهة الزائفة التي خلقتموها» .

- «ذلك ليس هكذا . إننا نقدّم القرابين للآلهة الصغيرة ، لكن ، عندما نفشل ولا نجد مَنْ نلجأ إليه ، نتوجه إلى تشوكوو . ومن الصواب أن نفعل هذا . إننا نتقرب من رجل عظيم عن طريق خدّمه . لكن ، عندما يفشل خدّمه في مساعدتنا ، نذهب إلى مصدر الرجاء الأخير . نحن نبذو كأنما نولي الآلهة الصغرى اهتماماً أكبر ، لكن الأمر ليس كذلك . إننا نقلقهم أكثر لأننا نخشى أن نقلق سيدهم . لقد عرف آبائنا أن تشوكوو هو السيد الأسمى ، لذلك أطلق كثير من الرجال على أطفالهم اسم تشوكوكوا - «تشوكوو هو الأسمى» .

قال السيد برون : «لقد قلت شيئاً مثيراً للاهتمام . أنتم تخافون من

تشوكوو . أما تشوكوو في ديني فهو أب محب ولا حاجة إلى أن يخشاه أولئك الذين ينفذون إرادته» .

قال آكونا : «لكننا يجب أن نخشاه عندما لا ننفذ إرادته . ومن يستطيع أن يعرف إرادته؟ إنها أعظم من أن نعرف» .

بهذه الوسيلة تعلّم السيد براون كثيراً عن دين العشيرة وتوصل إلى نتيجة أن هجوماً جبهوياً عليها لن يكتب له النجاح . لذلك بنى مدرسة ومستشفى صغيراً في أوموفيا . طاف على السكان عائلة عائلة راجياً إياهم أن يرسلوا أطفالهم إلى مدرسته . لكنهم أرسلوا في البداية عبيدهم فقط ، أو أطفالهم الكسالى أحياناً . توسل السيد براون وجادل وتنّبأ . قال إن قادة البلاد في المستقبل سيكونون رجالاً ونساء تعلموا القراءة والكتابة . وإذا تقاعست أوموفيا عن إرسال أطفالها إلى المدرسة ، فسيأتي الغرباء من أماكن أخرى ويحكمونهم . وهم يرون الآن ذلك يحدث في المحكمة المحلية ، حيث يحيط بمفوض شرطة المنطقة غرباء يتحدثون لغته . ومعظم هؤلاء الغرباء قدموا من بلدة أومورو البعيدة الواقعة على ضفة النهر العظيم حيث ذهب الرجل الأبيض في البداية .

في النهاية ، بدأت حجج السيد براون تحدث تأثيراً . فقدم مزيد من الأشخاص للتعليم في مدرسته ، وشجّعهم بإهدائهم قمصاناً داخلية ومناشف . لم يكونوا كلهم صغاراً في السن ، أولئك الذين أتوا ليتعلموا . فبعضهم كان في الثلاثين من عمره أو أكبر . فهم يعملون في مزارعهم في الصباح ، ويذهبون إلى المدرسة بعد الظهر . لم تمض فترة طويلة قبل أن يبدأ الناس القول إن دواء الرجل الأبيض سريع المفعول . حققت مدرسة السيد براون نتائج سريعة . فبضعة أشهر فيها كانت كافية لتولي المرء

منصب ساعي محكمة أو حتى كاتباً فيها . وأصبح أولئك الذين أمضوا فترة أطول مدرسين ، ومن أوموفيا انطلق العاملون إلى كرامة الرب . فقد أنشئت كنائس جديدة في القرى المجاورة ومعها مدارس قليلة . ومن البداية تماماً ، خطأ الدين والتعليم يدأ بيد .

تعاظمت قوة إرسالية السيد براون بصورة مطردة ، واكتسبت ، بسبب ارتباطها بالإدارة الجديدة ، منزلة اجتماعية جديدة . لكن صحة السيد براون نفسه كانت تتداعى . في البداية ، تجاهل الأعراض التحذيرية . إلا أنه في النهاية اضطر إلى ترك رعيته ، حزناً ومنهاراً .

رحل السيد براون عن أوموفيا إلى موطنه في أول موسم أمطار بعد عودة أكونكوكو إليها . وحالما علم بعودة أكونكوكو قبل خمسة أشهر ، قام المبشر بزيارته على الفور . كان قد أرسل لتوه ابن أكونكوكو ، نووي ، الذي بات الآن يدعى إسحاق ، إلى الكلية الجديدة لتدريب المعلمين في أومورو . وأمل أن يسعد أكونكوكو لسماع هذا . لكن أكونكوكو طرده مع التهديد بأنه إذا عاد إلى مجتمعه مرة أخرى ، فسوف يحمله ويلقي به خارجاً .

لم تكن عودة أكونكوكو إلى موطنه حدثاً بارزاً كما تمنى . صحيح أن ابنتيه الجميلتين أثارتا اهتماماً كبيراً بين الخطاب وسرعان ما بدأت مفاوضات من أجل الزواج منهما بعد وصوله مباشرة ، لكن ، فيما عدا ذلك ، لم يبد أن أوموفيا اهتمت بصفة خاصة بعودة المحارب . فقد طرأ تحول عميق على العشيرة أثناء سنوات نفيه حتى أصبح من الصعب التعرف عليها . فالدين والحكومة والمتاجر الجديدة تعلو قيمتها كثيراً جداً

في أعين وعقول الناس . كان لا يزال هناك كثيرون ينظرون إلى هذه المؤسسات الجديدة باعتبارها شراً ، لكن ، حتى هؤلاء تكلموا قليلاً عن أي شيء آخر غير هذه المؤسسات وفكروا قليلاً فيها ، وبقينا أنهم لم يتكلموا عن عودة أوكونكوو ولا فكروا فيها .

كانت عودته في السنة الخطأ أيضاً . فلو تمكن أوكونكوو من إدخال ابنه الاثنين في جمعية الأوزو فوراً كما خطط لذلك ، لأثار ضجة . لكن شعائر الانتماء كانت تقام مرة كل ثلاث سنوات في أوموفيا ، وكان عليه أن ينتظر حوالي الستين حتى يحل موعد دورة الاحتفالات التالية .

أحسّ أوكونكوو بحزن عميق . ولم يكن مجرد حزن شخصي . بل انتابه الأسى على العشيرة التي شاهدها تتمزق وتتداعى ، كما حزن على محاربي أوموفيا ، الذين أصبحوا ، على نحو لابس فيه ، لئني العريكة كالنساء .

الفصل ٢٢

خَلَفَ السيد براون القسيس جيمس سميث ، وكان نمطاً مختلفاً من الرجال . وقد أَدانَ علناً سياسة السيد براون التصالحية والتوفيقية . إنه يرى الأشياء بالأسود والأبيض . الأسود شر . ويرى العالم ساحة قتال يشتبك فيها أبناء النور في معركة حياة أو موت مع أبناء الظلام . وتحدث في مواعظه عن الخراف والماعز والقمح والزوان . فهو يؤمن بذبح أنبياء بعل .

انزعج السيد سميث انزعاجاً شديداً من الجهل الذي أبداه كثيرون من أبناء رعيته حتى في أمور مثل الثالوث المقدس والقرايين المقدسة . فأظهر هذا فقط بأنهم بذور بُذرت في تربة صخرية . فالسيد براون لم يفكر في شيء سوى الأعداد . كان عليه أن يعلم أن مملكة الرب لا تقوم على الجماهير الغفيرة . فالسيد المسيح نفسه شدد على أهمية القلة . ضيق هو هذا الطريق وقليل هو العدد . وأن تملأ معبد الرب المقدس بجمهور وثنيّ يصرخ مطالباً بعلامات كان حماقة لها عواقب دائمة . والسيد المسيح استخدم السوط مرة واحدة فقط في حياته - لطرده الجمهور من كنيسته .

في غضون بضعة أسابيع من وصوله إلى أومووفيا ، علّق السيد سميث عضوية امرأة شابة في الكنيسة لأنها صبّت نبذاً جديداً في قناني قديمة .

كما سمحت هذه المرأة لزوجها الوثني بتشويه جسد طفلها الميت . وكان قد أعلن عن الطفل بأنه أوجبانيجي ، يعذب أمه بالموت ثم يعود ويدخل رحمها لكي يولد من جديد . وكرر هذا الطفل دورته الشريرة أربع مرات . لذا سُوءه لتثبيط همته في العودة .

استشاط السيد سميث غضباً حين سمع هذا . رفض تصديق القصة التي أكد له حتى بعض المؤمنين الراسخين في إيمانهم ، قصة الأطفال الشريرين حقاً ، والذين لا يردعهم التشويه ، بل يعودون وعليهم جميع الندوب . ردّ عليهم بأن مثل هذه القصص ينشرها الشيطان في العالم ليضلّ الناس . وأن أولئك الذين يصدقون مثل هذه القصص ليسوا جديرين بمائدة الرب .

هناك مَثَل في أومووفيا يقول إن الطبول تقرع لرجل على نحو ما يرقص هذا الرجل . وقد رقص السيد سميث خطوة عنيقة ، لذا جنت الطبول . فازدهر تماماً تحت رعايته أولئك المهتدون مفرطو الحماس الذين أمضّهم كبح السيد براون لجماحهم . كان أحدهم إينوتش ، ابن كاهن الثعبان الذي روي عنه أنه قتل ثعبان النهر المقدس وأكله . بدا إخلاص إينوتش للدين الجديد أعظم من إخلاص السيد براون له حتى أن القرويين دعوه بـ : الغريب الذي ناح بصوت أعلى من صوت المفجوع .

كان إينوتش قصيراً ناحل الجسم ، يبدو دائماً في عجلة من أمره . وكانت قدماه قصيرتين وعريضتين ، وحين يقف أو يسير ينضم عقباه معاً وتنفرج قدماه إلى الخارج كأنهما تخاصمتا وتريد كل منهما الذهاب في اتجاه مختلف . على هذا النحو كانت الطاقة المفرطة المعبأة في جسد إينوتش الضئيل حتى أنها كانت دائماً تنفجر في خصومات ومشاجرات .

في أيام الأحد ، يتخيّل دائماً أن الموعظة تلقى على أعدائه . وإذا صادف جلوس أحد منهم إلى جانبه فإنه كان يلتفت إليه بين الحين والآخر ويرمقه بنظرة ذات مغزى ، كأنه يقول : «لقد أخبرتك بذلك» . كان إينوتش هو الذي فجّر النزاع الكبير بين الكنيسة والعشيرة الذي تزايد تدريجياً منذ رحيل السيد براون .

حدث هذا أثناء الاحتفال السنوي المقام على شرف ربة الأرض . ففي مثل تلك الأوقات ، يظهر أجداد العشيرة ، الذين أودعوا في الأرض ، على هيئة إيجووجوو من خلال ثقب النمل الضئيلة .

إحدى أفدح الجرائم التي يمكن أن يرتكبها الإنسان هي كشف القناع عن وجه إيجووجوو علناً ، أو قول أو فعل شيء يمكن أن يحطّ من جلاله المخالد في نظر الجاهل بالأسرار . وهذا ما فعله إينوتش .

فقد صادف وقوع طقس عبادة ربة الأرض السنوي يوم أحد ، وكانت الأرواح المقتّعة قد خرجت . لذلك لم تستطع النسوة اللواتي كن في الكنيسة العودة إلى بيوتهن . فقد خرج بعض رجالهن ليرجوا الإيجووجوو الانسحاب لفترة قصيرة ريثما تمر النساء . ووافق الإيجووجوو الممثلون للأرواح على ذلك ، وكانوا قد بدأوا بالتراجع عندما تفاخر إينوتش بصوت عال بأنهم لن يجروّوا على مسّ أي مسيحي . عندئذ ، عادوا جميعاً ووجه أحدهم له ضربة قوية بعصا الخيزران التي كان يحملها دائماً . فهجم إينوتش عليه ونزع قناعه . أحاط الإيجووجوو الآخرون فوراً بالزميل الذي دُّس ، ليحولوا بينه وبين تحديق النساء والأطفال الدنسة ، وقادوه بعيداً . لقد قتل إينوتش روحاً من أرواح الأجداد ، فعمّ الاضطراب أو مووفيا .

في تلك الليلة ، تجول أم الأرواح في طول العشيرة وعرضها ، باكياً على ابنه القتيل . كانت ليلة رهيبة . فحتى أكبر المعمرين سناً في أوموفيا لم يسمع في حياته صوتاً غريباً ومخيفاً إلى هذا الحد ، كما لن يُسمع مثله أبداً مرة أخرى . بدا الأمر كما لو أن روح القبيلة نفسها تعول بسبب شر عظيم مقبل - موتها هي بالذات .

في اليوم التالي ، احتشد كل إيجووجوو أوموفيا المقنعون في ساحة السوق . وفدوا من جميع أحياء العشيرة وحتى من القرى المجاورة . أتى أوتاكاجو المرعب من إيمو ، ووصل إيكوينسو ، يدلي بيده ديكاً أبيض ، من أولي . كان حشداً مخيفاً . وبتت الأصوات المرعبة الصادرة عن أرواح لا يحصيها العد ، والأجراس المجلجلة خلف عدد منها ، وقعقة سيوف التحطيط الضخمة وهي تركض جيئة وذهاباً محمية بعضها بعضاً ، بتت الرعدة في جميع القلوب . ولأول مرة في مدى ذاكرة الأحياء ، سُمع حوار الثور المقدس في وضح النهار .

اتجهت الزمرة الغاضبة من ساحة السوق إلى منزل إينوتش . ورافقها بعض شيوخ العشيرة ، متقلدين حمايات رقى وتعاويز قوية . كان هؤلاء رجالاً من ذوي الباع الطويل في الأوجوو ، أو الدواء . أما الرجال والنساء العاديات ، فقد أصغوا من داخل سلامة أكواخهم .

كان المسيحيون قد اجتمعوا في بيت الكاهن سميث في الليلة الماضية . بينما راحوا يتداولون الموضوع فيما بينهم ، ظلّوا يسمعون أم الأرواح يندب ابنه . وأثر الصوت القارس على السيد سميث ، فبدا لأول مرة خائفاً .

سأل : «ما الذي يخططون له؟» . لم يعرف أحد ، لأن أمراً كهذا لم يحدث من قبل أبداً . كان بود السيد سميث أن يرسل في طلب مفوض شرطة المنطقة وسعاة المحكمة ، لكنهم كانوا قد ذهبوا في جولة في اليوم السابق .

قال السيد سميث : «هناك أمر واحد واضح . نحن لانستطيع مقاومتهم جسدياً . فقوتنا تكمن في الرب» . ركعوا معاً وصلوا للرب من أجل الخلاص .

صاح السيد سميث : «أيها الرب ، أنقذ قومك» .
أجاب الرجال : «وبارك ميراثك» .

وقرروا إخفاء إينوتش في بيت الكاهن لمدة يوم أو يومين . وأصيب إينوتش بخيبة أمل كبيرة عندما سمع هذا ، لأنه أمل في حرب مقدسة وشيكة ، وكان هناك عدد قليل آخر من المسيحيين فكروا على غرارهِ . لكن الحكمة تغلبت في معسكر المؤمنين ، وهكذا أنقذت أرواح كثيرة .

تحركت زمرة الإيجووجوو كزوبعة عنيفة إلى مجمّع إينوتش وأحالاته بسيوف التحطيب والنار إلى كومة من الدمار . ومن هناك تحركت صوب الكنيسة ، منتشية بالتدمير .

كان السيد سميث في كنيسته عندما سمع ضجيج الأرواح المقنعة تقترب . خطا بهدوء إلى الباب المتحكم بطريق الوصول إلى مجمّع الكنيسة ، ووقف هناك . إلا أنه عندما ظهر الثلاثة أو الأربعة إيجووجوو الأوّل في مجمّع الكنيسة ، كاد أن يفر هارباً . لكنه تغلّب على هذا الدافع ،

ونزل الدرجتين اللتين كانتا تقودان إلى الكنيسة ، بدلاً من أن يهرب ، وسار باتجاه الأرواح المقتربة .

اندفعوا إلى الأمام ، فانهار أمامهم جزء كبير من السور المصنوع من الخيزران المحيط بمباني الكنيسة . رنت الأجراس متنافرة النغمات ، وصلصلت سيوف التحطيب وتصادمت وعبق الجو بالغبار والأصوات الغربية . سمع السيد سميث وقع خطى خلفه . فاستدار ورأى أوكيكي ، مترجمة . لم تكن علاقة أوكيكي بسيدة على أفضل أحوالها حيث أنه أذان بشدة تصرف إينوتش أثناء اجتماع قادة الكنيسة في الليل . وقد وصل أوكيكي إلى حد القول إنه لا ينبغي إخفاء إينوتش في بيت القسيس ، لأن ذلك سيجلب غضب العشيرة على القسيس . فوبخه السيد سميث بلغة قاسية جداً ، ولم يسأله النصيحة في ذلك الصباح . لكنه الآن ، عندما جاء ووقف إلى جانبه في مواجهة الأرواح الغامضة ، نظر إليه وابتسم . كانت ابتسامة باهتة ، لكنها مليئة بالامتنان .

توقف اندفاع الإيجووجوو لبرهة وجيزة بسبب رباطة جأش الرجلين غير المتوقعة . لكنه كان توقفاً وقتياً ، كالصمت المشحون بالتوتر بين إفجارات هزيم الرعد . كان الاندفاع الثاني أعظم من الأول . فابتلع الرجلين . ثم ارتفع صوت لا يمكن أن تخطئه الأذن فوق الهرج ، وساد صمت فوري . وأخلت فسحة حول الرجلين ، وبدأ أجوفيا الكلام .

كان أجوفيا زعيم الإيجووجوو في أومووفيا . كان الرئيس والناطق بلسان أرواح الأجداد التسع الذين أقاموا العدل في أومووفيا . كان صوته مميزاً وبالتالي تمكن فوراً من تهدئة الأرواح الهائجة . ثم خاطب السيد سميث ، وفيما كان يتكلم تصاعدت سحائب من الدخان من رأسه .

قالت : «يا جسد الرجل الأبيض ، أنا أحبيك» ، وتكلم بلغة الخالدين حينما يخاطبون الناس .

سأل : «يا جسد الرجل الأبيض ، هل تعرفني؟»
تطلع السيد سميث إلى مترجمه ، لكن أوكيكي ، الذي ينحدر من أومورو البعيدة ، بدا في حيرة من أمره أيضاً .

ضحك أجوفاً بصوته الحلقيّ . كانت ضحكته شبيهة بضحك المعدن الصديء . قال : «إنهم غرباء وهم جهلة . لكن ، ليمر هذا على خير» . استدار إلى رفاقه وحيّاهم ، داعياً إياهم آباء أومووفيا . غرس رمحه المصلصل في الأرض ، فاهتز بحياة معدنية . ثم استدار مرة أخرى إلى المبشر ومترجمه .

قال للمترجم : «أخبر الرجل الأبيض أننا لن نؤذيه . قل له أن يعود إلى بيته ويتركنا وشأننا . لقد أحببنا أخاه الذي كان معنا قبله . كان أحق ، لكننا أحببناه ، ومن أجله لن نؤذي أخاه . لكن هذا المقام الذي بناه يجب أن يدمر . لن نسمح ببقائه وسطنا بعد الآن . لقد تسبب في آثام لم نسمع بها من قبل ، وأتينا لوضع حد له» . التفت إلى رفاقه : «يا آباء أومووفيا ، أنا أحبيكم» ، فأجابه الأرواح بصوت حلقيّ واحد . واستدار ثانية إلى المبشر .

- «تستطيع أن تبقى بينما إذا أحببت نمط حياتنا . كما تستطيع أن تعبد إلهك الخاص . فمن الحسن أن يعبد الإنسان آلهة وأرواح آباءه . عد إلى بيتك حتى لا يصيبك أذى . إن غضبنا عظيم ، لكننا كبحننا جماحه حتى نستطيع التحدث إليك» .

قال السيد سميث لمت ترجمه : «أخبرهم أن يتعدوا عن هذا المكان .
فهذا بيت الرب ولن أعيش لأراه يدنس» .

ترجم أوكيكي قوله للأرواح وقادة أوموفيا بحكمة : «الرجل الأبيض
يقول إنه سعيد لأنكم أتيتم إليه بمظالمكم ، كأصدقاء . سيكون سعيداً لو
تركتكم المسألة بين يديه» .

- «لا نستطيع أن نترك المسألة بين يديه لأنه لا يفهم عاداتنا ، كما أننا لا
نفهم عاداته . نحن نقول إنه أحمق لأنه لا يعرف أساليبنا ، ربما يقول إننا
حمقى لأننا لا نعرف أساليبه . فليرحل» .

تسمّر السيد سميث في مكانه . لكنه لم يتمكن من إنقاذ كنيسته .
فحالما رحل الإيجووجو ، كانت الكنيسة التي بناها السيد براون من
الطين الأحمر قد تحولت إلى كومة من التراب والرماد . فهدأت روح
العشيرة عند هذا الحد .

فصل ٢٣

لأول مرة منذ سنوات عديدة ، شعر أوكونكوو بإحساس شبيه بالسعادة . فالأوقات التي تغيرت بصورة مستعصية على التفسير أثناء نفيه بدت الآن وكأنها تعود ثانية . وبدأ أن العشيرة التي خانت ثقته تصلح الأمور .

خاطب أبناء عشيرته بقسوة عندما اجتمعوا في ساحة السوق ليقرروا ما عليهم فعله . وقد استمعوا إليه باحترام . كان هذا مثل الأيام القديمة المجيدة ، عندما كان المحارب محارباً . ومع أنهم لم يوافقوا على قتل المبشر أو طرد المسيحيين ، إلا أنهم وافقوا على فعل شيء أساسي . وفعلوه . فأحس أوكونكوو بالسعادة مرة أخرى .

خلال يومين من تدمير الكنيسة ، لم يحدث شيء . ظل كل رجل في أومووفيا يتجول مسلحاً ببندقية أو سيف تحطيب . إنهم لن يؤخذوا على حين غرة ، مثل رجال أبامي .

ثم عاد مفوض شرطة المنطقة من جولته . وذهب السيد سميث إليه فوراً ، ودار بينهما نقاش طويل . لم يلاحظ رجال أومووفيا هذا ، وإذا كانوا

قد لاحظوه ، فلم يعيروه أي أهمية . فالمبشر كثيراً ما كان يزور أخاه الرجل الأبيض . وليس في ذلك أي غرابة .

بعد ثلاثة أيام ، أرسل مفوض شرطة المنطقة رسوله معسول اللسان إلى زعماء أومووفيا داعياً إياهم إلى مقابلته في مقر قيادته . لم يكن ذلك غريباً أيضاً . فكثيراً ما دعاهم إلى الثروة ، كما كان يحلوه أن يسميها . كان أوكونكوو بين القادة الستة الذين وجهت إليهم الدعوة .

حذر أوكونكوو الآخرين في أن يكونوا متقلدين كامل سلاحهم . قال : « رجل أومووفيا لا يرفض دعوة . قد يرفض القيام بما يُطلب منه ، لكنه لا يرفض أن يُطلب منه هذا . بيد أن الأوقات تغيّرت ، ويجب أن نكون مستعدين تماماً » .

هكذا ذهب الرجال الستة لمقابلة مفوض شرطة المنطقة ، مسلحين بسيفهم . لم يحملوا بنادق ، لأن ذلك سيكون غير لائق . فاقتيدوا إلى مبنى المحكمة حيث كان مفوض الشرطة جالساً . استقبلهم بلطف . فنزعوا أكياسهم الجلدية وسيفهم المغمدة من قرايبها ، ووضعوها على الأرض ، وجلسوا .

بدأ مفوض الشرطة : « طلبت منكم القدوم بسبب ما حدث أثناء غيابي . أخبرت بوضع أمور ، لكنني لا أستطيع أن أصدقها حتى أسمع من جانبكم . دعونا نتحدث عن هذا كأصدقاء ، ونجد طريقة لضمان عدم تكرار ما حدث » .

نهض أوجيوفني إيكويمي وبدأ برواية القصة .

قال مفوض الشرطة : « انتظر قليلاً » . أريد إحضار رجالي حتى يستمعوا

إلى مظالمكم ويتلقوا تحذيراً . كثيرون منهم ينتمون إلى مناطق بعيدة ، ومع أنهم يتكلمون لغتكم ، إلا أنهم يجهلون عاداتكم . جيمس ! اذهب وأحضر الرجال » . غادر المترجم قاعة المحكمة وعاد بسرعة مع اثني عشر رجلاً . جلسوا مع رجال أومووفيا ، وبدأ أوجبوفني إيكويمبي يروي كيف أن اينوتش قتل إيجووجوو .

ثم حدث ما حدث بسرعة فائقة حتى أن الرجال الستة لم يلحظوا أنه يحدث . نشب عراك قصير فقط ، أقصر حتى من أن يفسح المجال أمام سحب سيف من غمده . وقُيد الرجال الستة بالأصفاد واقتيدوا إلى غرفة الحرس .

قال مفوض شرطة المنطقة لهم فيما بعد : « لن نلحق بكم أي أذى ، إذا وافقتم فقط على التعاون معنا . لقد جئنا بإدارة مسالمة لكم ولقومكم من أجل إسعادكم . إذا أساء أحد معاملتكم فسنأتي لإنقاذكم . لكننا لن نسمح لكم بإساءة معاملة الآخرين . لدينا محكمة حيث ننظر في القضايا ونقيم العدل تماماً كما يحدث في بلدي في ظل ملكة عظيمة . أحضرتكم إلى هنا لأنكم تجمعتُم لمضايقة الآخرين ، وإحراق بيوت الناس ومكان عبادتهم . ذلك يجب ألا يحدث في الأراضي التابعة لسيادة ملكتنا ، أقوى حاكم في العالم . لقد قررتُ أن تدفعوا غرامة مقدارها مائتي كيس من الودَّع . وسيفرج عنكم فور موافقتكم على ذلك وتعهّدكم بجمع الغرامة من قومكم . ما رأيكم في ذلك ؟ »

ظل الرجال الستة مقطبين وصامتين ، فتركهم مفوض الشرطة لفترة من الوقت . طلب من سعاة المحكمة ، وهو يترك غرفة الحرس ، أن يعاملوا

الرجال باحترام لأنهم سادة أومووفيا . قالوا : «نعم يا سيدي» ، وأدوا التحية .

حالما غادر مفوض شرطة المنطقة الغرفة ، تناول رئيس السعاة ، الذي كان أيضاً حلاق السجناء ، موساه وحلق شعر جميع الرجال . كانوا لا يزالون مصفدين بالاغلال ، فجلسوا واجمين فقط .

سأل سعاة المحكمة ساخرين : «مَنْ هو الزعيم بينكم؟ نحن نرى أن كل شحاذ في أومووفيا يتقلد سوار اللقب . هل يساوي هذا السوار عشرة ودّعات؟»

لم يتناول الرجال الستة طعاماً طيلة ذلك اليوم والذي تلاه . لم يُقدّم إليهم حتى ماء ليشربوه ، ولم يسمح لهم بالخروج للتبول أو الذهاب إلى الغابة لقضاء الحاجة . في الليل ظل السعاة يدخلون عليهم ليتهكموا عليهم ويخطبوا رؤوسهم المحلوقة بعضها ببعض .

حتى عندما تركوا وحدهم ، لم يجد الرجال ما يقولونه لبعضهم . في اليوم الثالث فقط ، عندما لم يعودوا يحتملون الجوع والإهانات ، بدأوا يتحدثون عن الإذعان .

زمجر أوكونكوو : «كان يجب أن نقتل الرجل الأبيض لو استمتعتم إليّ» .

قال آخر له : «كان يمكن أن نكون الآن في أومورو بانتظار الشنق» .

سأل ساع اندفع بسرعة داخلاً الغرفة : «مَنْ يريد أن يقتل الرجل الأبيض؟» لم ينبس أحد .

حمل عصا قوية : «لم تكتفوا بجريمتكم ، بل تريدون أن تقتلوا الرجل الأبيض فوق هذا» . ضرب بها الرجال على رؤوسهم وظهورهم عدة ضربات . واختنق أوكونكوو بالكراهية .

حالما حُبس الرجال الستة ، انطلق سعاة المحكمة إلى أوموفيا لإخطار الناس أن قادتهم لن يفرج عنهم إلا بعد دفع غرامة مقدارها مائتان وخمسون كيساً من الودَّع .

قال رئيسهم : «ما لم تدفعوا الغرامة فوراً ، سنأخذ قادتكم إلى الرجل الأبيض الكبير في أومورو ، ونشتقهم» .

انتشرت هذه القصة بسرعة في جميع أنحاء القرى ، واضيفت إليها مبالغات كثيرة أثناء انتشارها . قال البعض إن الرجال نُقلوا فعلاً إلى أومورو وسيشنقون في اليوم التالي . قال البعض إن عائلاتهم سيشنقون أيضاً . قال آخرون إن الجنود في الطريق إلى أوموفيا لإطلاق الرصاص على سكانها كما فعلوا في آبامي .

كان الوقت اكتمال القمر . لكن صوت الأطفال لم يسمع في تلك الليلة . وظلّ إيلو القرية ، حيث يجتمعون دائماً للهو في ضوء القمر ، خالياً . لم تتقابل نساء إيجويدو في مخبئهن السري لتعلم رقصة جديدة لعرضها أمام القرية في وقت لاحق . ولزم الشباب الذين كانوا دائماً ينطلقون إلى الخارج في الليالي المقمرة أكواخهم في تلك الليلة . لم تسمع أصواتهم الرجولية في دروب القرية وهم ماضون لزيارة أصدقائهم أو ملاقات حبيباتهم . فقد كانت أوموفيا مثل حيوان مذعور منتصب الأذنين ، يشتمّ الهواء الصامت المنذر بالخطر ، ولا يعرف في أي اتجاه يجري .

قطع الصمت منادي القرية وهو يقرع الأوجيني جهوري الصوت . كان يدعو كل رجل في أومووفيا ، من فئة عمر الأكاكانما فصاعداً ، إلى اجتماع في سوق القرية بعد وجبة الصباح . وتجوّل المنادي في طول القرية وعرضها . لم يترك أياً من الدروب الرئيسية دون أن يطرقه .

كان مجمّع أوكونكوو شبيهاً بالبيت المهجور . كأن ماءً بارداً صب عليه . ظلّ كل أفراد عائلته هناك ، لكنهم كلهم راحوا يتكلمون همساً . كانت إيزينما قد قطعت زيارة الثمانية وعشرين يوماً لعائلة زوجها المقبل ، فعادت إلى البيت عندما سمعت أن أباهما سُجن ، وسيشئق . حالما وصلت إلى البيت ، ذهبت إلى أويريكا لتسأله عما ينوي رجال أومووفيا فعله إزاء هذا . لكن أويريكا لم يكن في بيته منذ الصباح . فظنت زوجاته أنه ذهب إلى اجتماع سري . واقتنعت إيزينما أن شيئاً سوف يفعل .

في الصباح ، وبعد توجيه منادي القرية الدعوة للاجتماع ، اجتمع رجال أومووفيا في ساحة السوق وقرروا جمع مائتين وخمسين كيساً من الودّع دون إبطاء لتهدئة غضب الرجل الأبيض . لم يعرفوا أن خمسين كيساً ستذهب إلى سعاة المحكمة الذين زادوا الغرامة لذلك الغرض .

فصل ٢٤

أطلق سراح أوكونكوو ورفاقه المسجونين فور دفع الغرامة . تحدث إليهم مفوض شرطة المنطقة مرة أخرى عن الملكة العظيمة . وعن السلام والحكومة الطيبة . لكن الرجال لم يصغوا . بل جلسوا فقط ونظروا إليه وإلى مترجمه . في النهاية ، رُدَّت إليهم أكياسهم وسيوفهم المغمدة وأمروا بالانصراف إلى بيوتهم . فنهضوا وغادروا مبنى المحكمة . لم يخاطبوا أحداً كما لم يتبادلوا حديثاً فيما بينهم .

كان مبنى المحكمة ، كالكنيسة ، مبنياً على مسافة قريبة خارج القرية . كان الدرب الواصل بينهما مزدحماً جداً لأنه كان يقود إلى الجدول ، وراء المحكمة . كان مكشوفاً ومترباً . وكانت الدروب مفتوحة ومتربة في الفصل الجاف . لكن الشجيرات كانت تنمو أثناء هطول الأمطار بكثافة على جانبي الدرب وتطبق عليه . أما الطقس الآن فكان جافاً .

فيما كانوا متجهين إلى القرية ، قابل الرجال الستة نساء وأطفالاً ذاهبين إلى الجدول بجرارهم . لكن ملامح الرجال كانت ثقيلة ومخيفة إلى حد أن النساء والأطفال لم يقولوا «ننو» أو «أهلاً» لهم ، بل ابتعدوا عن طريقهم ليفسحوا لهم طريقاً للمرور . في القرية ، انضمت إليهم مجموعات صغيرة

من الرجال حتى أصبحوا يشكّلون جماعة كبيرة . فمشوا صامتين . حالما وصل كل رجل من الرجال الستة إلى مجمّعه ، دخل إليه برفقة جزء من الجمهور . وساد القرية هرج صامت مكبوت .

هيات إيزينما بعض الطعام لأبيها فور انتشار النبأ بأن الرجال الستة سيطلق سراحهم . فحملته إليه في أوبيّه . أكل وهو شارد الذهن . لم يكن يحسّ بشهية للطعام ، لكنه أكل منه ليرضيها . وتجمع أقاربه الذكور وأصدقائه في أوبيّه ، وحثّه أوبيريكا على الأكل . لم ينبس أحد من الآخرين . لكنهم لاحظوا الخطوط الطويلة على ظهر أوكونكوو حيث مزّق سوط السجّان اللحم .

طاف منادي القرية مرة أخرى في الليل . قرع قرصه الحديدي الدائري وأعلن أن اجتماعاً آخر سيعقد في الصباح . عرف الجميع أن أوموفيا عزمت أخيراً على إبداء رأيها فيما يحدث من أمور .

لم ينم أوكونكوو إلا لماماً في تلك الليلة . فقد امتزجت المرارة في قلبه الآن بنوع من الانفعال شبه الطفولي . قبل أن يأوى إلى فراشه ، تفقد لباس الحرب الذي لم يمسه منذ عودته من المنفى . هز تنويرته المصنوعة من ليف نخيل الرافية المدخن وتفحص خوذته ذات الريشة الطويلة ودرعه . فكّر : كلها في حالة مرضية .

فيما كان مستلقياً على سريره المصنوع من الخيزران ، فكّر في المعاملة التي لقيها في محكمة الرجل الأبيض ، فأقسم على الانتقام . إذا اتخذت أوموفيا قراراً بالحرب ، سيكون كل شيء على ما يرام . لكن ، إذا اختار أهلها أن يكونوا جنباء ، فسيخرج وينتقم لنفسه . فكّر في الحروب في

الماضي . ففكر : أنبلها كانت الحرب ضد إيسيسكي . كان أودوكو في تلك الأيام ما زال حياً . وقد أنشد أودوكو أغنية الحرب بطريقة لا يستطيع أحد أن يجاريه فيها . لم يكن محارباً ، لكن صوته كان يحول كل رجل إلى أسد .

• تنهد أوكونكوو وهو يتذكر تلك الأيام : «لم يعد يوجد الآن رجال نبلاء . لن تنسى إيسيسكي أبداً كيف ذبحناهم في تلك الحرب . قتلنا اثني عشر رجلاً منهم وقتلوا رجلين منا فقط . وقبل نهاية أسبوع السوق الرابع ، كانوا يطلبون السلام . تلك أيام كان الرجال فيها رجالاً حقاً» .

بينما كانت تراوده هذه الأفكار ، سمع صوت القرص الحديدي من بعيد . أرهف السمع ، وسمع صوت المنادي . لكنه كان خافئاً جداً . تقلّب في سريره وألمه ظهره . وصرف بأسنانه . راح المنادي يقترب تدريجياً إلى أن مرّ قريباً من مجمّع أوكونكوو .

فكر أوكونكوو بمرارة : «إن أعظم عقبة في أوموفيا هي ذلك الجبان : إيجونواني . إن لسانه الحلو يستطيع تحويل النار إلى رماد بارد . وحين يتكلم ، يحرك رجالنا نحو العجز . لو أنهم تجاهلوا نصائحهم المخنثة قبل خمس سنوات ، لما وصلنا إلى هذه الحال» . صرف بأسنانه . «غداً سيخبرهم بأن آباءنا لم يخوضوا مطلقاً «حرب لوم» . إذا استمعوا إليه سأتركهم وأخطط للانتقامي» .

خفت صوت المنادي مرة أخرى ، فامتص البعد حدة طنين قرصه المعدني الأجرى . تقلّب أوكونكوو على كلا جنبه واستمد نوعاً من متعة من الألم الذي أثاره ظهره . «ليتكلم إيجونواني ما يشاء عن «حرب لوم» غداً ، عندئذ سأريه ظهري ورأسي» . وصرف بأسنانه .

بدأت ساحة السوق تمتلئء حالما أشرقت الشمس . كان أوبيرىكا منتظراً في أوبيه عندما مرّ عليه أوكونكوو ودعاه للخروج . علّق كيسه الجلدي وقراب سيفه على كتفه وخرج . كان كوخ أوبيرىكا قرب الطريق ، فرأى كل رجل مرّ وهو يتجه إلى ساحة السوق . وقد تبادل التحيات مع كثيرين ممن مرّوا في ذلك الصباح .

عندما وصل أوكونكوو وأوبيرىكا إلى مكان الاجتماع ، كان هناك جمع غفير جداً من الناس إلى درجة أن الإنسان لو ألقي حبة رمل فوقهم ، لما وجدت طريقها إلى الأرض . توالى وصول الكثيرين من كل حيّ في القرى التسع . وقد أدفأت قلب أوكونكوو رؤية قوة أعداد كهذه . لكنه كان يبحث عن رجل بالذات ، الرجل الذي يرهب ويحتقر لسانه كثيراً .

سأل أوبيرىكا : «هل تراه؟»

- «من؟»

قال : «إيجونواني» ، وظلت عيناه تجوبان زوايا ساحة السوق الهائلة من ركن إلى آخر . جلس معظم الرجال على جلد ماعز على الأرض ، وجلس القليل منهم على مقاعد خشبية أحضروها معهم .

قال أوبيرىكا وهو يلقي نظرة على الحشد : «لا . نعم ، ها هو ، تحت شجرة القطن الحريري . هل أنت خائف من أن يقنعنا بالأنقاتل؟»

- «خائف؟ لا يهمني ما يفعله بكم . فأنا أحتقره هو وجميع من يستمعون إليه . سأقاتل وحيداً إن شئت» .

تحدثا بأعلى صوتيهما لأن الجميع كانوا يتكلمون ، وكانت أصواتهم أشبه بضجة سوق كبيرة .

فكر أوكونكوو : «سأنتظر إلى أن ينتهي من حديثه . عندئذ ، سأتكلم» .
قال أوبيريكا بعد برهة : «لكن ، كيف تعرف أنه سيتكلم ضد الحرب ؟»
قال أوكونكوو : «لأنني أعرف أنه جبان» . لم يسمع أوبيريكا بقية ما قاله
لأن شخصاً لمس كتفه من الخلف في تلك اللحظة ، فاستدار ليصافحه
ويتبادل التحيات مع خمسة أو ستة أصدقاء آخرين . لم يستدر أوكونكوو
رغم أنه عرف الأصوات . فلم يكن في مزاج ملائم لتبادل التحيات . لكن
أحد الرجال لمس كتفه وسأله عن حال أهل مجمعه .
قال بلا اهتمام : «هم بخير» .

كان أول رجل يخاطب أوموفيا في ذلك الصباح وهو أوكيكا ، أحد
الرجال الستة الذين سجنوا . كان أوكيكا رجلاً عظيماً وخطيباً مفوهاً . لكنه
لم يكن يتمتع بذلك الصوت المدوي الذي لا بد أن يستخدمه أول
المتكلمين لإحلال الصمت في اجتماع العشيرة . كان صوت أونيكما من
هذا النوع ، لذلك طلب منه أن يحيي أوموفيا قبل أن يبدأ أوكيكا بالكلام .
جأر ، رافعاً ذراعه اليسرى ودافعاً الهواء بيده المفتوحة : «أوموفيا
كوينو!»

هدرت أوموفيا : «ياا!»

جأر مرة أخرى : «أوموفيا كوينو!» ، ومرة ثالثة ورابعة ، مواجهاً اتجاهها
مختلفاً في كل مرة . أجاب الحشد : «ياا!»
ساد صمت فوري كما لو أن ماء بارداً صب فوق لهب هادر .

وثب أوكيكا واقفاً على قدميه وحيا رجال العشيرة أربع مرات . ثم بدأ القول : «أنتم جميعاً تعلمون لماذا نحن هنا ، بينما كان يجب أن نعكف على بناء مخازن غلالنا أو إصلاح أكواخنا ، بينما كان يجب أن ننشغل بترتيب أمور مجتمعاتنا . لقد اعتاد أبي أن يقول لي : «كلما رأيتَ ضفدعاً يقفز في وضح النهار ، فاعلم أن هناك من يسعى إلى قتله» . عندما رأيتم جميعاً تتدفقون إلى هذا الاجتماع من جميع أحياء عشيرتنا في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح ، علمت أن هناك من يسعى إلى قتلنا» . توقف لفترة قصيرة وعاود الكلام : «جميع آلهتنا تبكي . إيديملي يبكي . إيجووجو ويبكي ، أجبالا يبكي ، وبقية الآلهة الآخرين . وآباؤنا المتوفون يكون بسبب الانتهاك المخزي لمقدساتهم والآثام الشنيعة التي رأيناها بأم أعيننا» . توقف ثانية ليثبت صوته المرتعش . «هذا حشد عظيم . ولا تستطيع أية عشيرة أن تفاخر بأعداد أكبر أو شجاعة أعظم . لكن ، هل نحن كلنا هنا؟ أنا أسألكم : هل جميع أبناء أوموفيا معنا هنا؟» وأجاحت الحشد همهمة عميقة .

قال : «لا ، إنهم ليسوا كلهم هنا . لقد مزقوا العشيرة وسلكوا طرقاً مختلفة . نحن الذين نجتمع هنا هذا الصباح ظللنا أوفياء لآبائنا ، لكن إخواننا هجرونا وانضموا إلى رجل غريب في تدنيس أرض الآباء . وإذا حاربنا هذا الغريب فسنصيب إخواننا وقد نسفك دم ابن من أبناء عشيرتنا . لكننا يجب أن نفعل هذا . فلم يحلم آباؤنا أبداً بشيء كهذا ، وهم لم يقتلوا أبداً إخوانهم . لكن رجلاً أبيض واحداً لم يظهر أبداً بينهم . لذلك يجب أن نفعل ما لم يكن آباؤنا سيفعلونه أبداً . فقد سؤل الطائر إينيكي لماذا هو دائماً مشرّع الجناحين ، فأجاب : «لقد تعلّم الناس إطلاق النار دون أن

يخطئوا الهدف ، فتعلمت الطيران دون أن أجثم على غصن» . يجب أن نقتلع هذا الشر من جذوره . اذا انحاز إخواننا إلى جانب الشر ، فيجب اقتلاعهم هم أيضاً من الجذور . يجب أن نفعل هذا الآن . يجب أن ننضح هذا الماء الآن بعد أن وصل إلى كواحلنا فقط . . .» .

عند هذه النقطة ، انتاب الجمهور هرج فجائي وشخصت أبصار الجميع إلى اتجاه واحد . كان هناك منعطف حاد في الطريق المتوجه من ساحة السوق إلى محكمة الرجل الأبيض ، ثم إلى الجدول وراءها . لذلك لم يلاحظ أحد اقتراب سعاة المحكمة الخمسة إلا عندما داروا حول المنعطف ، على بعد خطوات معدودة من طرف الحشد . وكان أوكونكوو جالساً في طرف الحشد .

وثب واقفاً على قدميه حالما رأى القادمين . فواجه رئيس السعاة ، وهو يرتجف حقداً ، عاجزاً عن النطق بأية كلمة . كان الرجل غير خائف ووقف ثابتاً في أرضه ، وقد اصطف رجاله الأربعة خلفه .

في تلك اللحظة القصيرة ، بدا أن العالم يقف ساكناً ، ينتظر . ساد صمت مطبق . اندمج رجال أوموفيا في خلفية الأشجار والنباتات المعرّشة العملاقة الخرساء ، وانتظروا .

حطم رئيس السعاة السكون . أمره : «دعني أمراً!»

«ماذا تريد هنا؟»

«أمر الرجل الأبيض الذي تعرفون مدى قوته جيداً بفرض هذا الاجتماع» .

بومضة ، استل أوكونكوو سيفه . ففرص الساعي ليتحاشى الضربة .

كان هذا بلا جدوى . هوى سيف أوكونكوو مرتين ، فوق رأس الرجل بجانب جسده المكسو بيزته الرسمية .

قفزت الخلفية المترقبة وقد دبّت فيها حياة صاخبة مرة أخرى وانفض الاجتماع . وقف أوكونكوو شاخصاً ببصره إلى الرجل الميت . عرف أن أومووفيا لن تحارب . عرف هذا لأنهم تركوا السعاة الآخرين يهربون . لقد اندفعوا بفوضى بدلاً من أن يُقدموا . مَيّز الخوف في ذلك الاضطراب . وسمع أصواتاً تتساءل : «لماذا فعل هذا؟»

مسح سيفه بالرمل وابتعد .

فصل ٢٥

عندما وصل مفوض شرطة المنطقة إلى مجمع أوكونكوو على رأس قوة مسلحة من الجند وسعاة المحكمة ، وجد جمهرة صغيرة من الرجال جالسة باعياء في الأوبي . أمرهم بالخروج ، فأطاعوا دون أن تصدر عنهم أية همهمة .

سأل عن طريق المترجم : « مَنْ منكم يدعي أوكونكوو؟ »

أجاب أوبيريكا : « هو ليس هنا »

- « أين هو؟ »

- « إنه ليس هنا ! »

غضب المفوض واحمر وجهه . حذرهم من أنهم إذا لم يسلموا أوكونكوو فسيسجنهم جميعاً . تمتم الرجال فيما بينهم ، ثم تكلم أوبيريكا ثانية .

- « سنأخذكم إلى مكان وجوده ، فقد يساعدنا رجالكم » .

لم يفهم المفوض ما قصده أوبيريكا حين قال : « فقد يساعدنا

رجالكم». فكّر: إن أكثر عادة تثير الغضب عند هؤلاء الناس هي حبهم للكلمات الزائدة عن اللزوم.

قاد أوبيريكا وخمسة أو ستة رجال آخرون الجمع. تبعهم المفوض ورجاله وأسلحتهم جاهزة للاستعمال. حذّر المفوض أوبيريكا من أنه إذا أقدم هو ورجاله على أية خدعة فستطلق النار عليهم. وهكذا ساروا.

كانت تقع خلف مجمّع أوكونكوو أجمة صغيرة. والمنفذ الوحيد إلى هذه الأجمة من مجمّع أوكونكوو هو ثقب صغير مستدير في السور الطيني الأحمر، ثقب يدخل ويخرج منه الدجاج في بحثه الدائب عن الطعام. لم يكن الثقب يسمح بمرور رجل من خلاله. إلى تلك الأجمة، قاد أوبيريكا المفوض ورجاله. فداروا حول المجمّع، وهم يكادون يلتصقون بالسور. كان الصوت الوحيد الصادر عنهم هو وقع أقدامهم وهي تسحق أوراق الشجر الجافة.

وصلوا إلى الشجرة التي كان جسد أوكونكوو يتدلى منها، فتوقفوا مشدوهين.

قال أوبيريكا: «قد يستطيع رجالكم مساعدتنا في إنزاله ودفنه. لقد أرسلنا في طلب غرباء من قرية أخرى ليتولوا القيام بالعمل عوضاً عنا، لكنهم قد يستغرقون وقتاً طويلاً».

تغير مفوض شرطة المنطقة على الفور. وحلّ مكان الإداري الحازم دارس العادات البدائية.

سأل: «لماذا لا تنزلونه بأنفسكم؟»

قال أحد الرجال: «هذا ضد أعرافنا. إن قتلَ الرجل لنفسه إثم عظيم».

إنه إساءة لربة الأرض ، ومن يرتكب هذا الإثم لا يدفنه أبناء عشيرته .
فجثمانه شر ، والغرباء فقط يستطيعون أن يلمسوه . لذلك نطلب من
رجالكم إنزاله ، لأنكم غرباء » .

سأل المفوض : « هل ستدفنونه مثل أي رجل آخر ؟ »

- « نحن لا نستطيع أن ندفنه . الغرباء فقط يستطيعون هذا . سندفع
لرجالكم ليفعلوا هذا . وحين يدفن ، سنقوم بواجبنا نحوه . ستقدم القرابين
لتطهير الأرض المذنسة » .

فجأة ، التفت أوبيركا ، الذي كان يحدّق بشبات في جسم صديقه
المتدلي ، إلى مفوض شرطة المنطقة وقال بشراسة : « ذلك الرجل كان
واحداً من أعظم الرجال في أومووفيا . لقد دفعتموه إلى قتل نفسه ،
وسيدفن الآن ككلب . . . » . لم يستطع مواصلة الكلام . فقد ارتعش صوته
وخنق كلماته .

صرخ أحد الساعة بلا ضرورة على الإطلاق : « إخرس ! »

أمر المفوض رئيس ساعاته : « أنزل الجسد وأحضره مع جميع هؤلاء
الناس إلى المحكمة » .

قال الساعي : « نعم سيدي » .

ورفع يده بالتحية العسكرية .

مضى مفوض شرطة المنطقة ، آخذاً معه ثلاثة أو أربعة جنود . وخلال
السنوات الكثيرة التي كدح فيها من أجل إحلال الحضارة في أنحاء مختلفة
من أفريقيا ، تعلّم عدداً من التصرفات . أحد هذه التصرفات هو ألا يشغل

مفوض شرطة منطقة نفسه مطلقاً بتفاصيل تافهة كقطع حبل رجل مشنوق متدل من شجرة . فمثل هذا الاهتمام يمكن أن يعطي السكان المحليين فكرة سيئة عنه . وفي الكتاب الذي خطط لكتابته ، سيشدد على هذه النقطة . فيما كان عائداً إلى المحكمة ، فكّر في ذلك الكتاب . فكل يوم يمدّه بمادة جديدة . وقصة هذا الرجل الذي قتل ساعياً وشنق نفسه ستشكل مادة مثيرة للقراءة . ويوسع الإنسان أن يكتب فصلاً كاملاً تقريباً عنه . قد لا يكون فصلاً كاملاً ، بل فقرة معقولة على أي حال ؛ فهناك مواد كثيرة أخرى سيدرجها في الكتاب ، وعلى الإنسان أن يكون صارماً في حذف التفاصيل . وقد سبق واختار عنوان الكتاب ، بعد تفكير عميق وهو : تهدة القبائل البدائية في حوض النيجر السفلي .

مرد لكلمات قبيلة إيبو وتعابيرها

- أجادي - نوايي agadi - nwayi : امرأة عجوز .
أجبالا agbala : امرأة : تستعمل أيضاً عن رجل لا يتمتع بأي لقب .
تش chi : إله شخصي .
إيفوليفو efulefu : رجل لا شأن له .
إيجووجو egwugwu : مُقَنَّع يجسّد إحدى أرواح أجداد القرية .
إيكوي ekwe : آلة موسيقية ، نوع من طبل مصنوع من الخشب .
إنيكى - نتي - أوبا eneki - nti - oba : نوع طائر .
إيزي - أجادي - نوايي eze - agadi - nwayi : سن امرأة عجوز .
إيبا iba : حمى .
إيلو ilo : قطعة أرض خضراء في القرية حيث تعقد اجتماعات للرياضة والنقاش الخ .
إينيانجا inyanganga : التظاهر ، التفاخر .
إيسا - إيفي isa - ifi : إحتفال : إذا انفصلت زوجة عن زوجها لبعض الوقت ثم يُعاد الارتباط معه ، فإن هذا الإحتفال يعقد ليؤكد أنها لم تكن خائنة له خلال وقت انفصالهما .
إيبي - أووا iyi - uwa : نوع خاص من حجر يكون الوصلة بين أوجبانجي ogbanji وروح العالم . وإذا اكتشف إيبي - أووا ودُمر فلن يموت الطفل .
جيجيدا jigida : خيط خرز للخصر .
كوتما kotma : ساعي محكمة : والكلمة ليست عن لغة الإيبو ، بل هي تشويه

للكلمة الانجليزية المركبة court - messenger .
 كوينو kwenu : صرخة استحسان وتحية .
 نديشي ndichie : شيوخ .
 نا آبي nna ayi : أبونا .
 ننو nno : أهلاً .
 نسو - آني nso - ani : إساءة دينية من نوع يمقتها الكل .
 نزال nzal : طائر صغير جداً .
 أوبي obi : كوخ رئيس العائلة الكبيرة .
 أبودو ديكى obodo dike : أرض الشجعان .
 أوتشو ochu : جريمة قتل أو مذبحه .
 أوبانجي obanje : متغير : طفل يموت مراراً ويعود إلى أمه ويولد من جديد . إنه لمن المستحيل أن ينهي طفل أوبانجي دون أن يموت ، إلا إذا
 عثر أولاً على إبي - أووا وذمر .
 أوجيني †ogene : آلة موسيقية ، نوع من جرس قرصي .
 أوجي أودو أتشو - إيجيجي - أو - o - ijiji - oji odu achu : بقرة (أي البقرة التي
 تستعمل ذيلها لطرده الذباب) .
 أوسو osu : منبذ ، كُرس إلى إله وكان الأسو تابو taboo ، ولم يسمح له
 بالاختلاط مع الأحرار بأية طريقة من الطرق .
 أوي Oye : اسم أحد أيام السوق الأربعة .
 أوزو ozo : أحد أسماء الألقاب أو الرتب .
 توفيا tufia : لعنة أو شتيمة .
 أودو udu : آلة موسيقية ، نوع من طبل يصنع من الفخار .
 أولي uli : صبغة تستعملها النساء لرسم أشكال على البشرة .
 أوموادا umuada : تجمع عائلي للبنات ، حيث تعود القريبات الأثاث إلى قريتهن
 الأصلية .
 أومونا umunna : مجموعة واسعة من أقرباء : (الصبغة الذكورية لكلمة أوموادا
 umuada) .
 أوري uri : جزء من احتفال الخطبة حين يُدفع المهر .

أسئلة:

الأسئلة التالية من وضع المترجم .

الجزء الأول :

فصل ١

- ١ . ما سبب شهرة أوكونكوو في شبابه قبل عشرين سنة من وقائع هذه الرواية؟
- ٢ . صف بإيجاز الصراع الذي دار بين أوكونكوو والهـر أمالينز وأسلوب كل منهما في المصارعة .
- ٣ . صف المظهر الخارجي لشخصية أوكونكوو .
- ٤ . ما هي صفات شخصية أونوكا ، أبي أوكونكوو؟ أذكر حدثاً في الرواية يصوّر دهاء أونوكا في التخلص من دائنية .

فصل ٢

- ٢ . أذكر بعض المعتقدات المتعلقة بالأرواح الشريرة والحيوانات في قرية أوموفيا .
- ٢ . ما سبب غضب قرية أوموفيا على قرية مباينو؟ كيف حلّت المشكلة بين القريتين؟

- ٣ . مَنْ الذي اختارته قرية أوموفيا مبعوثاً إلى قرية مبانو؟ لماذا؟ ما تأثير هذا على القرية الأخيرة؟
- ٤ . هل ترى أن أوكونكوو رجل ناجح في قريته؟ كم عدد زوجاته؟ كيف يعاملهن؟ كم عدد أكوأخه؟
- ٥ . كيف كان يعامل ابنه الأكبر نوويي؟ ما تأثير هذا على التكوين النفسي لهذا الابن؟

فصل ٣

- ١ . أجبالا ، ما هو ، ما تأثيره في القرية؟ ما هو عمل كاهنة أجبالا هذا؟
- ٢ . ما هو طريق النجاح في العمل : تقديم القرابين أم العمل الجاد؟
- ٣ . ما هو التشي؟
- ٤ . غابة الشر ، لماذا سميت بهذا الاسم؟ لأي غرض تستعمل؟

فصل ٤

- ١ . صف موقفاً يبين قسوة أوكونكوو على ابنه الأكبر نوويي .
- ٢ . صف كيف أنسجم الرهينة إيكيميوفونا مع أفراد أسرة أوكونكوو ، خصوصاً الابن الأكبر ، نوويي .
- ٣ . يتقيد البدائيون بأسبوع بمتنعون فيه عن الإساءة إلى الغير من أفراد أسرهم وزوجاتهم خوفاً من انتقام آلهة الأرض ، ويسمى هذا بأسبوع السلام ، ما هي كفارة مَنْ يخالف هذا؟

فصل ٥

- ١ . متى يحل عيد اليام الجديد؟ هل الاحتفال بهذا العيد يتعلق بإلهة الأرض والخصب؟
- ٢ . صف الاحتفال بهذا العيد .

فصل ٦

١ . صف مباراة مصارعة بمناسبة عيد اليام الجديد .

فصل ٧

- ١ . إرو قصة إيكيميغونا .
- ٢ . الجراد ، ماذا يشكل للقرية ؟ ماذا يستفيدون منه ؟ كيف يقاومونه ؟
- ٣ . أذكر كيفية قتل إيكيميغونا .
- ٤ . صف حال أوكونكوو بعد قتله لإيكيميغونا .
- ٥ . ما هو مصير التوائم في أوموفيا ؟

فصل ٨

- ١ . ما الذي يدور في بيت أوبريكا ؟
- ٢ . هل شارك أوبريكا ، صديق أوكونكوو ، في قتل إيكيميغونا ؟ لماذا ؟
- ٣ . صف طريقة التقدم بطلب يد فتاة من أبيها . كيف يُحدد المهر ؟

فصل ٩

- ١ . لماذا الخوف على إيزينما حين تمرض ؟ تتبع مراحل الولادات عند أمها .
- ٢ . كيف أظهر المؤلف مدى أهمية إيزينما لأمها وأبيها ؟
- ٣ . دائرة الولادة والموت الشريرة . إشرح هذا .
- ٤ . ما معنى كلمة أوجباني ؟

فصل ١٠

- ١ . أذكر بإيجاز محاكمة من محاكمات القبيلة لفض الخلافات بين الأفراد والمجموعات . مَنْ هم القائمون على هذه المحاكمات .

فصل ١١

- ١ . بثّ المؤلف بين وقائع روايته هذه حكايات شعبية هي أقرب إلى الأساطير . أذكر بإيجاز حكاية أو حكايتين من هذه الحكايات .
- ٢ . ذُكر فيما بعد أن الحكايات تقسم إلى حكايات أنثوية وحكايات ذكرية ، أذكر خصائص كل نوع من هذه الحكايات مع اقتباس ما يتعلق بهذا من النص الروائي .

فصل ١٢

- ١ . صف إيجاز حفل زواج ابنة أوبيركا .

فصل ١٣

- ١ . مَنْ هم الإيجوجوو؟
- ٢ . كيف وقعت مأساة أوكونكوو وقتل الغلام أثناء الاحتفال ؛ هل يجري عندنا مثل هذه المآسي في الأعراس والاحتفالات؟ علّق .
- ٣ . ماذا كان عقاب أوكونكوو على هذه الفعلية النكراء؟

الجزء الثاني

فصل ١٤

- ١ . صف جنازة محارب عظيم .
- ٢ . كيف استقبل أوكونكوو من قبل أهل أمه في منفاه؟
- ٣ . كيف تأقلم مع البيئة الجديدة؟

فصل ١٥

- ١ . يبدأ الآن ظهور الرجل الأبيض ، أذكر كيف حدث هذا .

- ٢ . حلّ الرجل الأبيض في آبامي ؛ فحلّ شرّ عظيم في تلك القرية ، هل توافق على هذا؟
- ٣ . ما رد فعل أوكونكوو على ما سمعه عن قرية آبامي ؛ هل هذا الرد ينسجم وطبيعة أوكونكوو؟

فصل ١٦

- ١ . يتكرر في هذا الفصل الحديث عن الرجل الأبيض بعد معجزة آبامي وإرهاب قبيلة الإيبو ، حيث تجري أحداث هذه الرواية ، وسيطرة الرجل الأبيض عليها . حمل الرجل الأبيض دينه المسيحي لينشره بين الوثنيين ، فاستعمل الترغيب تارة والترهيب تارات عديدة ، إشرح هذا بالرجوع إلى النص الروائي .
- ٢ . لماذا يبدو دخول نووي ، ابن أوكونكوو الأكبر ، في الدين الجديد مقنعاً . ما هي المبررات التي تراها مبثوثة بين ثنايا وقائع هذه الرواية التي أدت إلى دخوله في الدين الجديد .

فصل ١٧

- ١ . قدّمت قرية مبانّا غابة الشر لتصبح موقعاً لكنيسة المبشرين وهم يعتقدون بأن مصير هذه الكنيسة في ذلك المكان المنحوس سيؤدي إلى دمار الكنيسة ومن سيقومون فيها شعائرهم . ماذا حدث ؛ هل هزّ هذا معتقدات هؤلاء البدائيين؟ هل ساعد في إقناع البعض لدخول الدين الجديد؟

فصل ١٨

- ١ . كان لابد للدين الجديد أن يضع حداً لعادات قديمة بالية ومضرة بالناس البسطاء حتى يتحول الناس البدائيون عن دينهم الوثني إلى هذا الدين الجديد . قدّم أمثلة عن هذا من النص الروائي .

٢ . بماذا وصف أوكوكوو أهل مبانيا لرضخوهم لسلطة وقوة ودين الرجل الأبيض؟

فصل ١٩

- ١ . صف التحضير لعودة أوكونكوو إلى أوموفيا ، قريته . صف عودته إليها .
- ٢ . كيف ودّع أوكونكوو قرية أمه؟
- ٣ . ما الجديد الذي رآه في قريته حين عاد إليها من المنفى؟ هل أعجبته هذه الحال؟

الجزء الثالث

فصل ٢٠

- ١ . كم سنة قضاها إوكونكوو في المنفى؟
- ٣ . ما الذي طلبه أوكونكوو من ابنتيه في المنفى؟ هل انصاعتا لوجهة نظره؟
- ٤ . ما الذي جلبه الرجل الأبيض إلى البلاد إضافة إلى الكنيسة؟ ما الذي بناه الرجل الأبيض إضافة إلى هذا؟
- ٥ . مفوض الشرطة ، سعاة المحكمة ، أذكر دور كل منهم في السلطة الاستعمارية .
- ٦ . كيف عبّر الرجل الأسود عن حقه على سعاة المحكمة السود؟

فصل ٢١

- ١ . ماذا ترى في نقاش السيد براون وأكونا؟ هل ترى أن رأي دين الوثنيين البدائي قريب من الدين المسيحي مع اختلاف الأسماء؟

٣ . أدخل الرجل الأبيض المدرسة ودور العلاج ، هل أثر هذا على إقناع الناس بالدين الجديد؟ لماذا؟

فصل ٢٢

١ . ما الفرق بين سياسة السيد بروان والقسيس سميث الذي حلّ محله؟ هل قصدت سلطات الاحتلال هذا التغيير بعد أن سيطرت على البلاد؟

فصل ٢٣

١ . إيجوجوو أثار أحقاد الناس على الدين الجديد؟ إشرح .
٢ . كيف استطاع المفوض خداع كبار رجال أوموفيا الست . أذكر ما جرى لهم مع المفوض وسعاة المحكمة .
٣ . بثّ السعاة الرعب في نفوس أبناء القرية . ألا ترى أن الاستعمار يحكم المستعمرات من قبل أبنائها في كل مكان؟

فصل ٢٤

١ . الغرامة المدفوعة . كم هي وكيف وُزعت ؟
٢ . هل هدأ غضب أوكونكوو بعد سجنه وإهانته وإطلاق سراحه النخ؟
٣ . كيف أظهر المؤلف أن روح القتال في القرية قد ماتت؟ خطب أحد الخطباء خطبة حماسية دفاعاً عن الآباء والأجداد ، ماذا كان رد فعل الجماهير؟
٤ . من الذي قتله أوكونكوو أثناء الاجتماع؟ هل لهذا تبرير معقول في ثنايا العمل الأدبي؟ ما نتائج هذا العمل؟

فصل ٢٥

١ . قال أوييريكا : «سنأخذكم إلى مكان وجوده ، فقد يساعدنا

رجالكم». هل فهم المفوض هذا أم اعتبره كلاماً زائداً؟ متى فهم المعنى وكيف؟

٣ . ماذا قال أوبريكا في تأبين صديقه المنتحر؟

٤ . فيما كان (المفوض) عائداً إلى المحكمة ، فكّر في ذلك الكتاب (الذي خطط لكتابته) . فكل يوم يمده بمادة جديدة . وقصة هذا الرجل الذي قتل ساعياً وشنق نفسه ستشكل مادة مثيرة للقراءة . وبوسع الإنسان أن يكتب فصلاً كاملاً تقريباً عنه . قد لا يكون فصلاً كاملاً ، بل فقرة معقولة على أي حال ؛ فهناك مواد كثيرة أخرى سيدرجها في الكتاب ، وعلى الإنسان أن يكون صارماً في حذف التفاصيل . وقد سبق واختار عنوان الكتاب . . إلخ

في كتب التاريخ يقتصر المؤرخ أو الدارس الاجتماعي على فصل أو فقرة معقولة في تصوير أحداث ما قرأته . هل يكفي هذا ليعطينا الصورة الكاملة عن حقبة تاريخية أو شريحة اجتماعية؟

الرواية قدّمت لنا عالماً يعج بالأساطير والحكايات الشعبية والوقائع اليومية والشخصيات المفعمة بالحياة ؛ ومن هذا كله كُتبت رواية جيدة ، فالتاريخ والدراسات التاريخية والاجتماعية . . إلخ لا تستطيع أن تدخلنا في عالم حياة أخرى (جماعية أو فردية) على عكس الرواية الزاخرة بالحياة .
أكتب عن هذا الموضوع ما يمكنك الكتابة عنه ، مقتبساً من هذه الرواية ومن روايات عربية وأجنبية لتعزز رأيك بهذا الخصوص .

سؤال عام

يتابع المؤلف حياة الشخصية الرئيسية في الرواية ، أو كونكوو ، بتسلسل زمني ، يعود فيه إلى الماضي من وقت إلى آخر ليلقي ضوءاً على هذه الشخصية أو تلك أو على أحداث ماضية ؛ تابع هذا التسلسل الزمني البسيط ولخص في أقل من صفحتين أطوار حياة هذه الشخصية مع الأحداث الرئيسية التي يعيشها هذا الرجل .

أشياء تتداعى

علي مولا

أشياء تتداعى

S.P250



1 1 6 7 0 7

عالم المعرفة

المنشور والتوزيع
المنشور والتوزيع

المطبعة الأردنية الهاشمية - عكاظ / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ • منشور انتساب العام ٢٠٠٢ م
• الغلاف: زهير أبو شبيب .